فلسطينيّو 48

وحرب الإبادة على غـــزّة

مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة

تحريـــر:
همّت زعـبي وعرين هـوّاري

مدى الكرمل
المـركـز العـربـي للـدراسـات الاجتماعية التطبيقية

فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة

تحرير: همّت زعبي وعرين هوّاري

The '48 Palestinians and the Genocidal War on Gaza: A Critical Inquiry into Silence and Political Agency

Edited by: Himmat Zoubi and Areen Hawari

المساهمات الواردة في الباب الثالث من الكتاب هي دراسات محكَّمة

التدقيق اللغوي: حنّا نور الحاجّ

التصميم: أمل شوفاني

مسؤول النشر والإنتاج: علي موسى

ISBN: 978-965-7308-33-2

كل الحقوق محفوظة 2025

مدى الكرمل- المركز العربي للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة

شارع همجينيم (الملك جورج) 90، حيفا

هاتف: 04-8552035، فاكس: 04-8525973

www.mada-research.org

mada@mada-research.org

أُنتج هذا الإصدار بمساهمة من مؤسسة روزا لوكسمبورغ، وتمويل الوزارة الفدراليّة الألمانيّة للتعاون الاقتصاديّ والتنمية. يمكن استخدام محتوى المنشور أو جـزء منه مع ذكر المصدر فقط.

لا يعبر مضمون هذا المنشور بالضرورة عن وجهة نظر مؤسسة روزا لوكسمبورغ وهو من مسؤوليّة (مدى الكرمل) فقط.

This publication was supported by the Rosa Luxemburg Stiftung with means provided by the German Federal Ministry for Economic Cooperation and Development.

The content of the publication is the sole responsibility (Mada al-Carmel) and does not necessarily reflect a position of RLS.

المحتويات

المقدّمة **5**

همّت زعبي وعرين هوّاري

الباب الأول: مداخلات افتتاحية **13**

الحرب على غزّة... إبادة للإنسان والمكان 15

إلهام شمالي

فلسطينيّو 48 والحرب؛ المكان والمكانة 21

مهنّد مصطفى

الباب الثاني: مقـالات **25**

مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب على غزّة وإسقاطاتها السياسيّة: تحليل استطلاع رأي عامّ- مدى الكرمل 27

امطانس شحادة

قصّة "كوخ العم توم" والداخل الفلسطينيّ 51

حبيب مخّول

بين قبضة الملاحَقة ومحدوديّة الفاعليّة: الطلبة فلسطـينيّـو الـ 48 في الجامعات الإسرائيليّة في أعقاب حرب الإبادة على قِطاع غزّة 73

يوسف طه

الباب الثالث : دراسـات **97**

فلسطينيّو الـ 48 وصفقة التبادل بعد السابع من أكتوبر 2023: بين مواطَنة العدوّ والمواطَنة العارية 99

محمّد عوّاد

الالتحام والانفصال في علاقة الداخل مع لحظة غزّة: عن أيّ تَوقٍ وعن أيّ طَوقٍ نكشف؟ **135**
حنين زعبي

مَفْـهَمَة الإبادة الجماعيّة في غزّة- تحليل نصوص مجلّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة" منذ السابع من أكتوبر 2023 **175**
جاد قعدان

أصوات مكتومة وفضاءات معسكرة: الأطباء الفلسطينيون في المستشفيات الإسرائيليّة بعد السابع من أكتوبر **213**
غادة مجادلة

المساهِمون في الكتاب **253**

المقدّمة

جاء مؤتمر مدى الكرمل السنويّ لعام 2024 تحت عنوان "فلسطينيّو 48 والحرب على غزّة"، بعد مرور بضعة أشهر على بداية حرب الإبادة على قِطاع غزّة، في لحظة تكرّس فيها الخوف وساد فيها الصمت وبرز الفعل السياسيّ من خلال غياب هذا الفعل! فمنذ بدء الحرب على غزّة، بدا فلسطينيّو الـ48 وكأنّهم يعيشون مفترَقًا جديدًا ومرحلة مفصليّة تعيد تعريف علاقتهم بالدولة الإسرائيليّة من جهة وبأبناء وبنات شعبهم من جهة أخرى، مفترَقًا فتح الباب حول سؤال مركزيّ: هل يجد فلسطينيّو الـ48 أنفسهم اليوم أمام ضرورة للحسم والاختيار بين أداء دَوْرهم كجزء من الشعب الفلسطينيّ أو التصالح مع إعادة إنتاجهم كَـ "عرب إسرائيل"، أَمْ إنّه ما زال هنالك هامش من الفعل السياسيّ يمكن للفواعل السياسيّة الرسميّة وغير الرسميّة من خلاله ابتداعُ ممارَسات وأشكال مختلفة من المناورة السياسيّة والعمل السياسيّ تتيح لهم البقاء في مِساحة رماديّة بين الحسم والمراوحة؟

شكّل السابع من أكتوبر 2023 تحوُّلًا بنيويًّا في جوهر علاقة إسرائيل بالفلسطينيّين حاملي المواطَنة الإسرائيليّة؛ فقد أعادت (إسرائيل) تعريفهم على أنّهم "عدوّ داخليّ" في سرديّة استعماريّة تدار بمنطق الحرب لا بمنطق المواطَنة. لم تكن الحرب حدثًا معزولًا عنهم، بل مرآة كشفت هشاشة البنْية التي قامت عليها مواطَنتهم، وحدود ما يسمّى بالاندماج، وعمق العنف الكامن في بنْية الدولة الاستعماريّة نفسها. وبينما تَظهر لحظة غزّة كلحظة تَشِي ببدايات تحوُّل معرفيّ وسياسيّ وفكريّ عالميًّا، كشفت هذه اللحظة عن أزمة مفاهيميّة عميقة داخل الخطّ الأخضر: المواطَنة والبقاء والخصوصيّة والفاعليّة السياسيّة- وهي مفاهيم شكّلت طَوال عقود إطارَ الفعل الفلسطينيّ في الداخل، لكنّها اليوم تواجه اختبارًا وجوديًّا.

ذلك أنّ الحالة الفلسطينيّة الرسميّة في الداخل، أي تلك المرسومة بحدود الأحزاب والمؤسَّسات السياسيّة التمثيليّة، ما زالت بعيدة أو ربّما مُقْصِية نفسها عن هذه الأسئلة الفكريّة والمعرفيّة، ولا سيّما السياسيّة منها. رغم أنّ الحالة الوجدانيّة والشعوريّة في الداخل كانت وما زالت متأثّرة بالحدث، ورغم أنّه خلال العام الثاني تراجع قليلًا خطابُ الخوف والصمت وازداد حجم النضال الخجول ضدّ الحرب، وبينما تصاعَدَ لدى الفواعل السياسيّة مطلبُ "محاربة الإبادة"، لم ينعكس هذا حتّى الآن في حراك سياسيّ جماهيريّ نوعيّ، ولم يعكس أيّ محاولة فكريّة جِدّيّة، داخل الأحزاب ولدى النخبة الأكاديميّة، لإعادة النظر في سؤال الداخل وعلاقته بإسرائيل وبالقضيّة الفلسطينيّة وبدَوْره ومسؤوليّته مقابل شعبه في ظلّ الإبادة والتهجير والأَسْر والتعذيب؛ وهو ما يشير إلى أنّ إسرائيل قد نجحت في فرض شرطها من الصمت السياسيّ، وحتّى الولاء السياسيّ المعلَن في حالات الأزمات والحرب.

لم يكن المؤتمر مجرّد لقاء أكاديميّ، بل كان فعلًا من أفعال الموقف؛ فالحديث والكتابة عن الحرب على غزّة من زاوية فلسطينيّي الداخل لا يراد بهما توصيف "الخصوصيّة" ولا تبرير الصمت، بل جاءا كمساءلة للذات الجماعيّة في لحظة يتقاطع فيها الخوف مع إرادة الحياة وربّما مع "التواطؤ". جاء المؤتمر آنذاك، ولاحقًا العمل على الكتاب، خلال عام كامل اعترافًا بأنّ غزّة -بمدنها ومخيّماتها وجامعاتها وناسها- هي المركز، وأنّ مسؤوليّتنا الأخلاقيّة والمعرفيّة تبدأ من هناك، من كسر الصمت في وجه الإبادة، ومن الالتزام بإنتاج معرفة تحرُّريّة تُعرّي بنْية القمع بدلًا من الاكتفاء بتحليلها. من هذا الوعي انطلقت أوراق هذا الكتاب، في محاولة لتفكيك لحظة الانكفاء والانخراط، ومن أجل قراءة في الوجدان والسياسة، في البنْية النفسيّة والاجتماعيّة، وفي إمكانات التفكير في التحرُّر في ظلّ شروط سياسيّة إباديّة.

تسعى الأوراق التي قُدِّمت خلال المؤتمر، وجرى العمل على تطويرها خلال أكثر من سنة من بعده، إلى تقديم تشخيص لأثر الحرب على غزّة على فلسطينيّي الـ48 وعلى فاعليّتهم السياسيّة أو غيابها. وهو محاولة لوصف الانكفاء والانخراط لا كموقفَيْن متقابلَيْن، بل كـساحتَيْن متداخلتَيْن في صراع الوعي والسياسة: بين الخوف والغضب، بين الصمت والرغبة في الفعل، بين إعادةِ إنتاج شروط الإخضاع والبحثِ عن أفق سياسيّ جديد. إنّ أوراق هذا الكتاب، التي تتنوّع بين التحليل

السياسيّ والنفسيّ والثقافيّ والفلسفيّ، تنطلق من وعي أنّ غزّة هي المركز الذي يعيد ترتيب أسئلة الفلسطينيّين في الداخل عن الذات والموقع والمعنى السياسيّ. كما تفرض على العالم كافّة وعلى أحراره ومثقّفيه النقديّين تحديدًا إعادة النظر بقناعاتهم ومفاهيمهم وبالمرجعيّات التي ينطلقون منها وبالقوى التي يعوّلون عليها.

يبدأ الكتاب من غزّة نفسها، من شهادة إلهام شمالي (أكاديميّة وباحثة من قِطاع غزّة) التي تحدّثت وكتبت من قلب الإبادة. يقدّم النصّ توثيقًا للمعاناة، وكذلك رؤية فلسفيّة وإنسانيّة تُفكّك معنى الإبادة بوصفها سياسة منهجيّة لإلغاء الوجود الفلسطينيّ في كلّ تجلّياته: الجسد والعقل والمكان والذاكرة، لتتحوّل غزّة إلى مرآة قد يرى عبْرها الفلسطينيّون في الداخل ذواتهم السياسيّة والأخلاقيّة مركزًا يعيد ترتيب الأسئلة عن الوجود والمعاني السياسيّة له.

ينتقل بنا مهنّد مصطفى (المدير الأكاديميّ لبرنامج "دعم طلبة الدراسات العليا" في **مدى الكرمل**) من صوت الغزّيّ الواقع تحت الإبادة إلى وعي المتفرّج المقهور. فبعد أن تُقدِّم شمالي مشهد الإبادة، يسأل مصطفى: كيف صمَتْنا؟ وكيف تحوّلنا إلى مجتمع يمارس الخوف كمنظومة قِيَميّة؟ ويشير في مداخلته التي افتتح بها المؤتمر إلى مواطَنة الفلسطينيّين في إسرائيل كمجال للإخضاع. بحسب مصطفى، لم يَنتج الصمت عن القمع الخارجيّ فحسب، بل كان كذلك نتيجة الوعي المدجَّن داخل منظومة استعماريّة جعلت الفلسطينيّ في الداخل يخاف من ذاته كما يخاف من الدولة.

تمثّل ورقة امطانس شحادة (مدير برنامج "دراسات عن إسرائيل" في **مدى الكرمل**)، وهي الثالثة في هذا الكتاب، الجَسْرَ بين التحليل السياسيّ والوجدانيّ والتحليل الميدانيّ. فمن خلال استطلاع رأي أجراه **مدى الكرمل**، في منتصف أيّار 2024، تتحوّل الانفعالات الفرديّة التي تحدّث عنها مهنّد مصطفى إلى اتّجاهات اجتماعيّة قابلة للقياس. من خلال تحليل الاستطلاع الذي تناول آثار الحرب على فلسطينيّي الـ48، والذي تَضَمَّنَ أسئلة حول الآثار الاقتصاديّة، ومواقفهم من الحرب، ومكانتهم في إسرائيل، وكذلك العلاقات بينهم وبين الدولة والمجتمع اليهوديّ، وتقييمهم لأداء الأحزاب والقيادات السياسيّة، وكذلك تقييمهم للحالة السياسيّة الراهنة ومستقبل القضيّة الفلسطينيّة. تكشف الورقة عن مجتمع يعيش تداخلًا بين الرفض الأخلاقيّ للإبادة والخوف الوجوديّ من الدولة، وعن وعيٍ سياسيّ مأزوم يحاول التوفيق بين التضامن والنجاة.

تنقلنا ورقة حبيب مخّول (الباحث في **مدى الكرمل**) من الملاحظة الميدانيّة إلى قراءة البنْية العميقة التي تُنتِج الصمت، في قراءةٍ فكريّة حادّة تُسائل موقع فلسطينيّي الداخل بين الغضب والخوف، بين غزّة والناصرة، بين المقهور والمستعمِر. ففي ورقته "قصة "كوخ العم توم" والداخل الفلسطينيّ"، يقترح مخّول مقاربة جريئة تستعير من مالكوم إكس ثنائيّة "عبد المنزل وعبد الحقل" لتفكيك علاقة الفلسطينيّ بالدولة الاستعماريّة، لا بوصفها علاقة خضوع فحسب، بل كذلك كبنْية نفسيّة-اجتماعيّة يعاد إنتاجها في الحياة اليوميّة، في اللغة والعمل والمواطَنة، بل حتّى في الصمت. وتتحوّل الحرب على غزّة إلى مرآة تكشف حدود الفُتات الذي تمنحه المواطَنة، كما تكشف أنّ الصمت ذاته ليس حيادًا، بل هو شكل من أشكال النجاة، نجاة المستعمَر والمستعمِر معًا. بِذا يوسّع مخّول إطار النقاش من السياسيّ إلى النفسيّ، ومن الحدث إلى البنْية، ليبيّن كيف يسهم الاستعمار في تشكيل الذات الفلسطينيّة من الداخل، وكيف يصبح الخوف نفسه أحد وجوه السيطرة.

يُختَتَم هذا الباب بمقالة للناشط الطلّابيّ يوسف طه تُوثِّق الملاحَقة الواسعة للحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة. تُقدِّم الورقة تفاصيل دقيقة عن لجان الطاعة، والفصل، والتحريض البرلمانّي والإعلاميّ، وتُظهر كيف تحوّلت الجامعات إلى ثكنات أَمنيّة، وأدوات لضبط الوعي السياسيّ للشباب. بَيْدَ أنّها في الوقت ذاته تكشف عن محاولات الترميم الذاتيّ عبْر إنشاء الهيئة الطلّابيّة المشترَكة وتدويل قضايا القمع الأكاديميّ. من خلال هذا التناقض، تَبرز الجامعة كرمز للمرحلة كلّها، أي كجزء بنيويّ من المنظومة الصهيونيّة موالٍ ومطيع لسياساتها خلال الحرب.

في الباب الثالث، الذي يشمل دراسات محكَّمة، يأخذ محمّد عوّاد (المحامي والناشط السياسيّ) التحليل إلى مستوى فلسفيّ حول الدولة والسيادة. تنطلق مقالته "فلسطينيّو الـ48 وصفقة التبادل بعد السابع من أكتوبر 2023: بين مواطَنة العدوّ والمواطَنة العارية" من شميت وأچامبين، لتبيان أنّ الاعتقال الذي طال الفلسطينيّين من حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة، بعد السابع من أكتوبر 2023، لم يكن مسألة قانونيّة، بل ممارسة سياسيّة تعيد إنتاج التمييز بين الصديق والعدوّ داخل بنْية النظام الاسرائيليّ. ووَفْق هذا المنظور، لا تُفهَم المواطَنة الفلسطينيّة في إسرائيل كعَقْد مدنيّ بل كنظام استثناء دائم، إذ هي تُمنَح للفلسطينيّ بقدر

ما يُستبعد منها. وبذلك يصبح الفلسطينيّ في الداخل تجسيدًا "للحياة العارية"؛ حياة يمكن للدولة أن تحافظ عليها أو تزيلها بلا تبعات. بِذا، فإنّ الحرب على غزّة لم تكن حدثًا استثنائيًّا في منطق الدولة، بل كانت تكثيفًا لمنطقها الدائم: إنتاج الفلسطينيّ، في كلّ موقع، على أنّه عدوّ.

من تحليل مواطَنة فلسطينيّي الـ48 في إسرائيل كاستثناء دائم، تنتقل مقالة حنين زعبي (الناشطة السياسيّة والعضو السابق في الكنيست عن التجمُّع الوطنيّ الديمقراطيّ) "الالتحام والانفصال في علاقة الداخل مع لحظة غزّة: عن أيّ توق وعن أي طوق نكشف؟" إلى تفكيك أثر هذا المنطق على الوعي السياسيّ والذاتيّ لفلسطينيّي الداخل. تقترح المقالة قراءة معرفيّة سياسيّة للحظة السابع من أكتوبر 2023 بوصفها حدثًا كاشفًا يعيد ترتيب علاقة الفلسطينيّين في الداخل مع دولة إسرائيل ومع ذواتهم السياسيّة. من خلال تحليلٍ نقديّ لخطابات سياسيّة لناشطين وناشطات من فلسطينيّي الـ48، تتابع المقالة ثنائيّة الالتحام والانفصال، وتبيّن كيف يتذبذب خطاب فلسطينيّي الـ48 بين تأطيرِ الحدث ككارثة تُنتِج صمتًا وخوفًا، وتأطيرٍ آخَر يَفهم الحدث كلحظة تحوُّل بنيويّ تعيد الصراع إلى مربَّعه الاستعماريّ الأوّل. تكشف المقالة عن جماعات عاطفيّة متباينة، بين خطاب الخوف ومنظومة النجاة، وخطابٍ آخر يعبّر عن "جرح أخلاقيّ" عميق ويضيء على الصراع الداخليّ حول معنى فاعليّة السياسة الفلسطينيّة في زمن الإبادة، وعلى الأسئلة المفتوحة حول إمكان تشكُّل ذاتٍ سياسيّة جديدة أكثر قدرة على التقاط لحظة الحقيقة التي كشفتها غزّة.

من تفكيك البنْية السياسيّة والعاطفيّة، يأخذ جاد قعدان (طالب دكتوراه في العلوم الثقافيّة واللسانيّات) هذا النقاش إلى مجاله الثقافيّ والأدبيّ. في مقالته "مَفْهَمَة الإبادة الجماعيّة في غزّة- تحليل نصوص مجلّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة" منذ السابع من أكتوبر 2023"، يحلّل النصوص المنشورة في "فسحة"- منصّة ثقافيّة فلسطينيّة، ليبيّن أنّ الثقافة الفلسطينيّة لم تكن مجرَّد انعكاس للحدث، بل تحوّلت إلى موقع لممارسة الحياة في وجه الموت، لتصبح الكتابة نفسها طقس دفن رمزيّ واستعادة للكرامة، وكذلك مجالًا لتوثيق زمن الإبادة الممزّق. بِذا تتقاطع الورقة مع نصّ إلهام شمالي في اعتبار الكلمة فعلًا معارِضًا، ومع نصّ مهنّد مصطفى في اعتبار الصمت خيارًا سياسيًّا، ليضيف قعدان بعدًا جديدًا حول الثقافة كأرشيف مُوازٍ للحياة، يُبقي للضحايا صوتًا لا يمكن محوه.

تقدّم غادة مجادلة (باحثة في مجال التقاطع بين الصحّة والسياسة) ورقةً حملت عنوان "أصوات مكتومة وفضاءات معسكرّة: الأطباء الفلسطينيون في المستشفيات الاسرائيليّة بعد السابع من أكتوبر"، وجاءت كدراسة لمدى الكرمل، بعد انعقاد المؤتمر، تحمل منظورًا سوسيولوجيًّا لوضع فلسطينيّي الـ48، وعلى وجه التحديد وضْع الأطبّاء الفلسطينيّين في المستشفيات الإسرائيليّة، لتبيّن فيها كيف تحوَّل النظام الصحّيّ إلى حيّز ضبط سياسيّ وأمنيّ. في هذا الفضاء، لا يقاس الفلسطينيّ بمهنته أو كفاءته، بل بولائه المفترَض للدولة. تصف الورقة مشهد "الأصوات المكتومة"، حيث يُفرَض على الأطبّاء الفلسطينيّين الصمتُ القسريّ بوصفه شرطًا للبقاء في المهنة والوظيفة؛ إذ يتّخذ القمع شكلًا مؤسَّساتيًّا أسهَمَ في تدمير المجال الأخلاقيّ والإنسانيّ والفاعليّة السياسيّة في الداخل.

رغم شدّة القمع وعمق سياسات الإخضاع، لا تغيب في مقالات هذا الكتاب محاولاتُ فلسطينيّي الـ48 مقاومةَ هذه البنْية، وإن بأشكال متواضعة ومحدودة. تَظهر هذه المحاولات في المبادَرات الطلّابيّة وفي إنتاجات ثقافيّة -وإن كانت فرديّة- تصرّ على فعل البوح والكتابة، كفعل للحياة في وجه الموت.

ينتمي هذا الكتاب إلى لحظة وعي تتجاوز التوصيف وتدعو إلى مراجعة فكريّة وسياسيّة شاملة لموقع الفلسطينيّين في الداخل، ضمن مشروع الاستعمار المستمرّ، وكذلك مراجعة سياسيّة وأخلاقيّة لدَوْرهم كفلسطينيّين أمام شعبهم في ظلّ الإبادة. فحرب الإبادة لم تُنتِج أزمة في الفعل السياسيّ فحسب، بل إنّها كذلك كشفت عمق التصدُّع في أدوات فَهْمنا للسياسة نفسها. ومن هنا، تنبع مسؤوليّتنا الأخلاقيّة والمعرفيّة في **مدى الكرمل**: أن نعيد إنتاج معرفة فلسطينيّة تحرُّريّة تُعَرّي بنْية القمع بدلًا من أن تكتفي بتحليلها، وأن نحافظ على صوت الجماعة في زمن يراد فيه للصمت والخضوع أن يكون عنوان المرحلة الحاليّة والقادمة.

في النهاية، نتوجّه بالشكر إلى الكُتّاب والكاتبات الذين أسهموا بأوراق هذا الكتاب، وإلى المحكَّمين والمحكِّمات الذين رافقوا عمليّة المراجَعة العلميّة بدقّة ومسؤوليّة. كذلك نعبّر عن تقديرنا العميق لطاقم **مدى الكرمل** على العمل المنهجيّ والمهنيّ الذي جعل إصدار هذا الكتاب ممكنًا، ونخصّ بالشكر الزميلة جوانا جبارة، منسّقة المؤتمر، والزميل علي موسى (سكرتير التحرير والإنتاج

في **مدى الكرمل)** على جهده في التحرير الشكليّ الدقيق الذي رافق إعداد هذا الكتاب. نشكر كذلك الزميلَيْن حنّا نور الحاجّ على تدقيقه اللُّغويّ للمقالات، وأمل شوفاني على عملها المهنيّ في تصميم الكتاب وإخراجه على هذا النحو.

همّت زعبي وعرين هوّاري

الباب الأول
مداخلات افتتاحية

الحرب على غزّة...
إبادة للإنسان والمكان

إلهام شمالي

أيّتها السيّدات الكريمات، أيّها السادة الكرام،

من أرض قِطاع غزّة أحيّيكم جميعًا، وأبعث لكم سلامًا من أبناء شعبنا الفلسطينيّ من وسط خيام اللجوء والمعاناة والتشريد في ظلّ استمرار العدوان الهمجيّ، الذي تتعرّض له الإنسانيّة في قِطاعنا الحبيب من مجازر جماعيّة، ومجاعة في شمال قِطاع غزّة بلغت أشدّها، ومجاعة باتت ملموسة بين خيام النازحين في الجنوب.

أنا بينكم عبْر مؤتمركم هذا للمرّة الثانية، واسمحوا لي بأن أشكر طاقم العمل في مدى الكرمل، الذي أصرّ على وصول صوتي لكم؛ لتتكامل صورة الكلّ الفلسطينيّ في جلسات مؤتمر مدى الكرمل لعام 2024.

أنا هنا، وقد سبق لي أن التحقت ببرنامج سمينار الدكتوراة الذي يعقده المركز في كلّ عام. منذ انطلاقة السمينار في سنواته الأولى، حرص المركز على تلافي الحواجز الجغرافيّة بضمّ طلبة الدكتوراة من قِطاع غزّة، ممّا أتاح لي فرصة المشارَكة آنذاك، ومن موقعي هذا أستطيع القول إنّ هذا السمينار يفتح أمام الطلبة الجادّين بوّابة البحث العلميّ الرصين، عبْر صقل مهاراتهم البحثيّة، وترسيخ شبكة من العلاقات العلميّة مع الأكاديميّين من ذوي المدارس المختلفة في مجال العلوم الإنسانيّة.

---

* أُلقِيت هذه الكلمة المصوَّرة في 29 حزيران 2024، وعليه فإنّ المعطيات والمعلومات الواردة فيها تعكس الوضع في الحرب على قِطاع غزّة وقتذاك.

غزّة حيال إبادة إنسانيّة

اليوم ومن غزّة أقول للحضور جميعًا إنّ ما يحدث في قِطاع غزّة من حرب شعواء ليس إبادة جماعيّة للبشر فحسْب، بل هي إبادة لكلّ مكوّنات الحياة -إذ هي عمليّة لتجريد الفلسطينيّين من الوعي والفكر والثقافة والتعليم- ليتوقّف الزمان عند سرديّة إسرائيليّة مَقيتة. فالحرب الحاليّة هي حرب الرواية والسرديّة التي تستهدف الوجود الفلسطينيّ، وتمثّل امتدادًا لجريمة النكبة الفلسطينيّة التي لم تتوقّف منذ ستّة وسبعين عامًا.

وضعت الحرب الفلسطينيّين في غزّة حيال تحدّيات كبيرة، وصعوبات جمّة، على المستوى الأمنيّ، والاجتماعيّ، والصحّيّ، والنفسيّ، في ظلّ انعدام الأمن الغذائيّ، وزيادة حدّة الفقر والبطالة، وزادت معدّلات الشعور بالخوف والقلق على المستقبل، ممّا سبب العديد من الاضطرابات النفسيّة؛ وقد نزح نحو مليون ونصف مليون فلسطينيّ تقريبًا، داخل كلّ منهم رواية فلسطينيّة مؤلمة عن النزوح والتشريد. وشُطِبت عائلات كاملة من السجلّ المدنيّ لأربعة أجيال، حيث بلغ عدد الشهداء أكثر من سبعة وثلاثين ألف فلسطينيّ، من بينهم عشرة آلاف امرأة فلسطينيّة نتيجة الاستهداف المباشر للمباني ومراكز الإيواء.

لم يكن واقع المرأة قبل الحرب أفضل حالًا في ظلّ تردّي الأوضاع الاقتصاديّة بسبب الحصار والانقسام، لكن وضعها خلال الحرب شديد الصعوبة والتعقيد. فمن نجت من الموت (وَفْق الإحصاءات الأمميّة تُقتل كلّ ساعة امرأتان)، أَو من الاعتقال (إذ هناك ما يقارب خمسين أسيرة اعتُقِلن تحت مسمّى مقاتل غير شرعيّ وبعضهنّ تعرّضن للاغتصاب)، تعاني بسبب فقدان البيت الآمن، ونتيجة التنقُّل والنزوح لعدّة مرّات.

تعيش معظم النساء الآن في مراكز الإيواء، التي تفتقر إلى أدنى مقوِّمات الحياة، وتعاني الأرامل -وعددهنّ ينيف على ثلاثة آلاف أرملة- صعوباتٍ قاسيةً؛ فهنّ يخاطرن بحياتهنّ في سبيل إطعام أطفالهنّ وإعالة أُسَرهن.

يعاني الغزّيّون والغزّيّات من الجوع بينما تُلقى المساعَدات من الجوّ، ليصل بعضها إلى خارج حدود قِطاع غزّة، أو يغرق في البحر؛ فتذوب تلك المساعدات في الماء قبل أن تصل إلى أيديهم. يتحوّل الطعام إلى سراب، وتغرق معها أحلام أطفال ينتظرون آباءهم، الذين قد لا يعودون أمام طيران يتربّص بهم.

تستخدم إسرائيل جميع الأسلحة التي تملكها في حرب الإبادة التي تشنّها على الشعب الفلسطينيّ. إنّها حرب تدميريّة شاملة، هدفها تدمير روح المقاوَمة التي أصبحت روح المدينة. إنّها هجمةٌ وحشيّة هدفها الوحيد إزالة الخصم من الوجود، وقصفٌ وحشيّ جرف البشر أحياءً وأمواتًا، وطرد الناس من بيوتهم وسرقها. إنّه كرنفال الموت في قِطاع غزّة على مدار تسعة أشهر.

على الصعيد الاقتصاديّ، انتقل اقتصاد قِطاع غزّة من الاقتصاد المنكوب إلى المدمَّر؛ فهو اقتصاد متوقّف إلى أجَل غير معروف، وكلّ ما بقي هو اقتصاد البقاء على قيد الحياة. اليوم، من غير الواقعيّ ولا من الـمُجدي الحديث عن مجْمَل الخسائر الاقتصاديّة، أمام عملاق عسكريّ يحرّكه اقتصاد حجمه خمسة عشر ضعفًا ممّا لدى الطرف الفلسطينيّ. ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال الحديث عن مفهوم التعافي الاقتصاديّ حتّى مع سكوت أصوات المدافع، وانتهاء الحرب؛ إذ قد يستغرق استئناف النشاط الاقتصاديّ سنوات عدّة.

الإبادة التعليميّة

في خلفية الحرب العسكريّة، تشنّ إسرائيل حربًا خفيّة تتعمّد من خلالها بثّ التجهيل والتدمير. لأوّل مرّة في تاريخ الصراع الفلسطينيّ- الإسرائيليّ، تتوقّف العمليّة التعليميّة في غزّة بمراحلها كافّة، ويُحْرَم الطلبة من السنة الدراسيّة، وعددهم 88 ألف طالب جامعي و630 ألف طالب في مختلف مراحل التعليم المدرسي، من بينهم 39 ألف طالب في مرحلة الثانويّة العامّة. لم يَحْدث ذاك في حرب عام 1948، ولا في حرب عام 1967.

يسعى جيش الاحتلال إلى تجريد قِطاع غزّة من ثقافته ومتنفَّسه العلميّ والثقافيّ تجريدًا تامًّا، حيث تعرّضت ستّ جامعات فلسطينيّة في القِطاع للتدمير الكلّيّ بسبب القصف المتعمَّد، منها جامعة الأزهر، والجامعة الإسلاميّة، وجامعة الأقصى، ونُسِفت جامعة فلسطين كلّيًّا، وحُوِّل بعضها إلى ثكنات عسكريّة ومراكز اعتقال مؤقّت، كجامعة الإسراء التي احتُلّت مدّة سبعين يومًا، ومن ثَمّ نُسِفت هي والمشفى الجامعيّ الأوّل والوحيد في قِطاع غزّة في كانون الثاني 2024، بالإضافة إلى المتحف الوطنيّ الذي كان يضمّ ثلاثة آلاف قطعة أثريّة.

إلى جانب ذلك، دُمّر عدد من الكلّيّات التقنيّة والمهنيّة، ومراكز البحث العلميّ، ومراكز الأبحاث والدراسات، والمراكز والمؤسَّسات الثقافيّة بما تحويه من ثروة معرفيّة، ومن أهمّ تلك المراكز مركزُ التخطيط الفلسطينيّ، ومركزُ رشاد الشوّا الثقافيّ. وبموازاة ذلك دُمّرت جميع مكتبات قطِاع غزّة، بما فيها مكتبات الجامعات والبلديّات.

أما تصفية الكفاءات العلميّة والأدبيّة والأكاديميّة فما هي إلّا حلقة في سلسلة طويلة من استهداف كلّ مَن يتركون أثرًا في المجتمع الفلسطينيّ من أصحاب التخصُّصات النادرة. فغيابهم يُحْدِث فراغًا كبيرًا، ومن الصعب إيجاد بديل لهم إلّا بعد سنوات طويلة؛ ذلك أنّهم يشكّلون مرتكَزات العمل الأكاديميّ في القِطاع، وهو ما يعني حرمان المجتمع الفلسطينيّ من أكبر قَدْر من الرموز المؤثّرة والشخصيّات الفاعلة، فلا يمكن النظر إلى اغتيال تلك النُّخَب على أنّه عمل عسكريّ عشوائيّ، بل هي ضربات مقصودة تهدف إلى قتل المستقبَل أيضًا.

يبرز من بين قائمة الشهداء ما يزيد عن مئة أستاذ جامعيّ، منهم سبعة عشر من حَمَلة درجة پـروفيسور من ذوي التخصُّصات النوعيّة، واغتيل ثلاثة رؤساء جامعات، من بينهم عالم الفيزياء الـپـروفيسور سفيان تايه الذي استشهد هو وأفراد أسرته، وهو يحمل درجة الأستاذيّة في تخصُّص الفيزياء النظريّة والرياضيّات التطبيقيّة، وسبق له أن صُنِّف من جامعة ستانفورد الأمريكيّة عام 2021 ضمن أفضل 2% من الباحثين في العالم.

إبادة للهُويّة والمكان

ثمّة محاولات إسرائيليّة لطمس الهُويّة الوطنيّة الفلسطينيّة، ومحو ذاكرة الشعب الفلسطينيّ الجماعيّة، وتدمير كلّ شواهد وجوده وارتباطه بالأرض؛ فالثقافة هي الجين الوراثيّ للهُويّة الوطنيّة، وجوهر السرديّة التاريخيّة الفلسطينيّة والمرجعيّة الحقوقيّة والسياسيّة.

لم تَسْلم آثار مدينة غزّة التاريخيّة من فعل العدوان والقصف الهمجيّ، وهي محاولة لاقتلاع التاريخ الفلسطينيّ وللنَّيْل من تراث المدينة العريق الذي يفوق عمر دولة الاحتلال.

قصفت إسرائيل أكثر من مئة وخمسة وتسعين موقعًا تراثيًّا من رموز المدينة، والمنازل، والمتاحف الأثريّة بما فيها أرشيف غزّة المركزيّ، الذي يحوي 150 عامًا من التاريخ، والمساجد والكنائس ككنيسة القدّيس برفيريوس للروم الأرثوذكس المجاورة لمسجد كاتب ولاية، أبرز معالم غزّة القديمة في العهد العثمانيّ، والمواقع الأثريّة التاريخيّة كقصر الباشا التاريخيّ- الأثر المملوكيّ في القِطاع الذي يحوي 100,000 قطعة أثريّة.

ختامًا

إنّ ما يجري في قِطاع غزّة ما هو إلّا إبادة مركَّبة ترمي إلى تفكيك أسس المجتمع الفلسطينيّ عبْر تدمير آمال وأحلام الشباب الفلسطينيّ، بغية إحداث تغييرات اجتماعيّة وسياسيّة؛ فإسرائيل تريد في نهاية الحرب مجتمَعًا عاجزًا عن المطالَبة بحقوقه، وتبتغي تصميم مجتمَع فاقد القدرة على صناعة مستقبله، وهو ما يرسّخ فكرة هجرة الكفاءات، لتفريغ القِطاعات العلميّة والصحّيّة والثقافيّة والاقتصاديّة منهم.

لكن على الرغم من ازدياد الدخان والرماد، سيخرج شعبنا قويًّا متجدّدًا متمسّكًا بأرضه، مُحِبًّا للحياة كطائر العنقاء الذي يحيا بواسطة رماده.

فلسطينيّو 48 والحرب؛ المكان والمكانة

مهنّد مصطفى

أودّ أن أشارككم حديثًا دار بيني وبين أحد الفلسطينيّين ممّن تركوا غزّة، أو السجن الأكبر في العالم -كما وصفه إيلان پـاپـي في كتابه عن قِطاع غزّة- وذلك في لقاءات جمعتنا خارج فلسطين.

بدون مقدّمات كان سؤاله الأوّل: أين عرب الـ48 ممّا يجري في غزّة؟ حاولت أن ألبس عباءة الباحث الذي يخفي وراءها الحقيقة الـمُرّة، وشرحت له ظروفنا، وحساباتنا الباردة، وموازين الربح والخسارة. قال لي: هل تعلم أنّ هنالك إبادة في قِطاع غزّة؟ هل تخافون من دفع ثمن، في ظلّ القتل الجماعيّ والتدمير المنهجيّ لقِطاع غزّة؟ لماذا لم تتحرّكوا مثل ما تحرّكتم في أيّار عام 2021؟ لماذا لم تُطْلِقوا صرخة مدوّية، ولا حراكًا شعبيًّا مزعجًا للدولة؟ لماذا لم تُشعِرونا أنّكم جزء منّا؟ غزّة لن تنسى لكم هذا الموقف.

بعد نحو أربعة أشهر من بداية الحرب، وعندما قرّرت الدولة اليهوديّة إرخاء الحبل لنا عندما عادت إلى توازنها الداخليّ إلى حدٍّ ما، ظهر أنّها أرْختْه عندما تكيّفنا مع الحرب والإبادة والتدمير في قِطاع غزّة، وعندما تمحور نضالنا في حرّيّة التعبير والمشاعر، وهو ما توهّمنا أنّنا نحن من حقّقناه. نحن لم نحقّقه من خلال مواجهة سياسة الإخراس، والقمع، بل أعطتنا إيّاه الدولة اليهوديّة عندما فهمت أنّها أخضعتنا، وانتصرت علينا. هذه هي الحقيقة؛ كان إرخاء الحبْل منذ الشهر الرابع للحرب هو نتيجة الإخضاع لا نتيجة نضال قاوَمَ الإخضاع.

لا يجب أن ننسى، بعد ثمانية أشهر من الحرب، أنّه في الأشهر الثلاثة الأولى منها سادت في صفوفنا حالة من الخوف، هو خوف بثّه الجمهور للقادة، وبثّته القيادة للجمهور، وشاركتْ فيه نُخَبٌ من كلّ القِطاعات دون استثناء. ما يدلّ عليه ذلك أنّ المواطَنة لم تكن وهمًا تعاملت به إسرائيل معنا، بل كانت بالمفهوم النظريّ مواطَنة فارغة. لم نجرؤ حتّى على اختبارها في الحرب، لأنّنا كنّا نعلم -في قَرارة أنفسنا وإدراكنا العقليّ وحَدْسنا الداخليّ والفِطْريّ- أنّها لن تحمينا، وأنّ الدولة هنا هي مشروع لم يكتمل ولن يكتمل.

في السنوات الأخيرة، تفاخرنا -أو زعمنا على وجه الدقّة- أنّنا نصلح لقيادة الحركة الوطنيّة، وأنّنا قادرون على التنظير لها، لكنّنا فهِمنا إسرائيل جيّدًا، وبعمق؛ وهذا صحيح، لدرجة أنّ فَهْمنا العميق لها كاستعمار استيطانيّ، بتفاصيل هذا المشروع من سياسات قطف الزعتر، ولافتات الشوارع، إلى سياسة مصادرة الأرض وانتهاءً بتراتُبيّة الحقوق الجماعيّة والفرديّة، ومعنى الدولة، والمواطَنة، أدّى إلى خوفنا من هذا المشروع، لأنّنا نفهمه، ولكن هذا الفَهْم المعمّق لم يبنِ مشروعًا. والخوف من المشروع ليس فقط خوفنا من المشروع الصهيونيّ في حالة حرب، كما اليوم في غزّة، بل خوفنا من طرح مشروع عمليّ يتّفق مع فَهْمنا للمشروع الصهيونيّ أنّه مشروع استعمار استيطانيّ.

ليس هنالك تفسير لسياسة الصمت إلّا الخوف. لم يكن هذا الصمت مقاومة، كما ستُظهِر مستقبَلًا كذلك أبحاث ودراسات الصمت والصامتين. ولم يكن هذا الصمت تعبيرًا عن الحكمة كما سيبرّر له القادة الصامتون. لقد كان خوفًا. هل الخوف شعور شرعيّ؟ أعتقد ذلك، ولا يمكن إجبار الناس على عدم الخوف في ظلّ نُخَب صامتة، ولكن هل هذا الخوف يبرّر حالة التكيُّف مع الإبادة؟ الجواب هو: لا.

ظهر مع بداية الحرب تنظيم للجان طوارئ للدفاع عن المعتقلين، وحماية الطلبة الجامعيّين، وتنظيم مظاهرات ووقفات قليلة جدًّا طبعًا، ولكن هل هذا يستجيب للنكبة في قِطاع غزّة؟ نعيش اليوم نكبة، تمارس فيها إسرائيل أساليب نكبويّة في قِطاع غزّة، والآن في الضفّة الغربيّة. بعد 75 عامًا على النكبة، عشنا متوهّمين أنّنا قادرون على منع حدوث نكبة، ولكن لو حدثت النكبة لنا لجَرَتْ بيُسْر وسهولة. مجتمع لا يعي أنّ هنالك نكبة هو مجتمع عاد لممارسة حياته الطبيعيّة بعد أشهر من الحرب، ويعوّض تضامنه وحزنه بمشاهدة الأخبار.

لم يعد من الكافي تفسير هذا الصمت بأنّه نتيجة لسياسات القمع التي تنتهجها إسرائيل تجاهنا، بعد كلّ هبّة شعبية نصل فيها لذروة نضالنا لتردع المجتمع وتخيفه، على نحوِ ما كان في "انتفاضة القدس والأقصى" عام 2000، وفي "هبّة الكرامة" عام 2021. بل نحتاج إلى النظر إلى ذواتنا، ونعود الى السؤال المركزيّ، ماذا يعني أن نكون فلسطينيّين؟ هل الهُويّة الفلكلوريّة، والفعل الثقافيّ، والأدبيّ، والمقاهي الثقافيّة، وارتداء الحطّة الفلسطينيّة، وقلادة حنظلة، والمشارَكة في مسيرة العودة، والانتشاء الوطنيّ عند سماع الأناشيد الوطنيّة، تكفي لأن تكون فلسطينيًّا؟ لا، بل كلّها ممارَسات تعويضيّة. هي فائض يعوّض عن نقص المشروع السياسيّ، وغياب المشروع السياسيّ، الذي نكتوي من غيابه في العَقد الأخير تحديدًا. بغياب مشروع سياسيّ، لن تتحوّل "هبّة الكرامة" إلى لحظة سياسيّة نعيد فيها إنتاج مشروعنا الجمعيّ، بل ستتبخّر، كما أنّ الثورة العالميّة الحاليّة، التي أعادت قضيّة فلسطين كقضيّة عدالة تَجْمع العالَـم الحرّ حولها (ليس العالم الحرب- نتنياهويّ)، سوف تتبخّر بغياب مشروع سياسيّ فلسطينيّ. هذا ما أنا مقتنع به. أعاد أهالي غزّة قضيّة فلسطين، وعلينا أن نمسكها، كما تحاول الآن كلّ الجاليات الفلسطينيّة في العالم أن تتنظّم من جديد؛ ونحن لسنا جالية. نحن في الوطن ولا نتنظّم. لن أنسى بكاء فلسطينيّة في لندن، من جيل الفلسطينيّين الثاني، عندما قالت: "اكتشفت في هذه اللحظات بؤسَ أنّي لم أعلّم بناتي اللغة العربيّة، كتعبير عن هُويّتي الفلسطينيّة"، وكم هي نادمة اليوم على ذلك.

هل تَنظَّمْنا، مثل المحاضرين الفلسطينيّين في العالم الذين يتطوّعون لتدريس طلبة غزّة بسبب تدمير الأكاديميا الفلسطينيّة؟ هل تَنظَّمْنا كأطبّاء ضدّ سياسة استهداف الجهاز الصحّيّ في غزّة؟ كمعلّمين؟ كرؤساء بلديّات ضدّ تدمير الحكم المحلّيّ في قِطاع غزّة، وكلّ القِطاعات؟ الجواب: لا. هل جلسنا لنفكّر؟ لا. لماذا؟ لأنّه ليس ثمّة مشروع سياسيّ.

وهنا تحضرني القصيدة الأخيرة التي كتبها الشاعر والأكاديميّ الفلسطينيّ الدكتور رفعت العرعير، الذي استُشهِد في كانون الأوّل 2023، مثل مئات الأكاديميّين والطلبة الذين قُتِلوا خلال الحرب، بثّ فيها رسالة الحياة أمام الموت، القصيدة التي قال فيها:

"إذا كان لا بدّ أن أموت
فلا بدّ أن تعيش أنت

لتروي حكايتي
لتبيع أشيائي
وتشتري قطعة قماش
وخيوطًا
(فلتكن بيضاء وبذيلٍ طويل)
كي يُبصر طفلٌ في مكانٍ ما من غزّة
وهو يحدّق في السماء
منتظرًا أباه الذي رحل فجأة
دون أن يودّع أحدًا
ولا حتّى لحمه
أو ذاته
يبصر الطائرة الورقيّة
طائرتي الورقيّة التي صنعتَها أنت
تحلّق في الأعالي
ويظنّ للحظة أنّ هناك ملاكًا
يعيد الحبّ
إذا كان لا بدّ أن أموت
فليأتِ موتي بالأمل
فليصبح حكاية".

الباب الثاني
مـقـالات

مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب على غزّة وإسقاطاتها السياسيّة:

تحليل استطلاع رأي عامّ- مدى الكرمل

امطانس شحادة

أدّت عمليّة طوفان الأقصى وما أنتجته من حالة ذعر وفقدان ثقة لدى الإسرائيليّين بمؤسّسات الدولة، وحالة الطوارئ منذ بداية حرب الإبادة على غزّة، إلى تعزيز المواقف العدائيّة والعنصريّة تجاه كلّ ما هو فلسطينيّ، ووفّرت فرصة لتعميق سياسات وأدوات الاستعمار في المناطق الفلسطينيّة المحتلّة عام 1967، وكذلك منحت "شرعيّة" لسياسات الإبادة والقتل، وتعميق العنصريّة والإخراس تجاه الفلسطينيّين في إسرائيل.

وصَفت الحكومةُ الإسرائيليّة وصُنّاعُ القرار الحربَ على غزّة بأنّها حرب وجوديّة. كان لهذا التعريف إسقاطات ودلالات كبيرة على جميع المستويات؛ فهو أساس التبرير الإسرائيليّ للهجوم على غزّة وأهلها، والإشهار بإلغاء أيّ حواجز أو ضوابط للجيش في هجومه على غزّة، وتبرير حرب الإبادة (وحدة السياسات- مدى الكرمل، 2023أ). إلى جانب ذلك، ثمّة إسقاطات سياسيّة وأمنيّة لهذا التوصيف، منها إقامة حكومة طوارئ وضبط التصدُّع السياسيّ الداخليّ في إسرائيل، والعمل على إسكات وكتم الانتقادات الداخليّة، وتجييش وتجنيد المجتمَع والإعلام في إسرائيل، واستعمال كلّ الأدوات المتاحة لقمع حرّيّة التعبير عن الرأي وعن مواقف لا تتماشى هي والإجماع الإسرائيليّ، ولا سيّما تلك الصادرة عن المجتمع الفلسطينيّ في الداخل. كذلك مهّدت الحربُ على غزّة وحالةُ الطوارئ الطريقَ لتَبَنّي سياسات الملاحَقة والإخراس والقمع تجاه المجتمع العربيّ الـمُعارِض

مبدئيًّا للحرب والقتل والدمار وقتل المدنيّين. منذ اليوم الأوّل لاندلاع الحرب، تعاملت المؤسَّسة الإسرائيليّة مع المواطنين العرب على أنّهم جزء من "العدوّ"، وأخذت تنفّذ سياسات ترهيب وإخراس تجاه المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل، وتمنع أبناء هذا المجتمع من التعبير عن مواقف معارِضة للحرب ورافضة للقتل والدمار ومسانِدة للمدنيّين في غزّة (وحدة السياسات- مدى الكرمل، 2023ب).

علاوةً على التحريض والترهيب تجاه المجتمع العربيّ، شَرَعت المؤسَّسة الأمنيّة في حملة ملاحَقة استباقيّة واسعة داخل المجتمع العربيّ، لمنع أيّ تعاطف أو دعم لغزّة، حتّى لو كان ذاك تغريدات في وسائل التواصل الاجتماعيّ ضدّ قتل الأبرياء والدمار. وقد اعتقلت الشرطة العشرات منهم بحجّة نشر تغريدات داعمة أو متعاطفة مع غزّة، من بينهم أشخاصٌ مؤثّرون في وسائل التواصل الاجتماعيّ، وقياداتٌ محلّيّة، وكذلك فنّانون وأكاديميّون. وقد برزت على نحوٍ خاصّ ملاحَقةُ الطلبة العرب في الجامعات الإسرائيليّة، وتعليقُ تعليم بعض منهم أو طردُهم بسبب نشر مواقف معارِضة للحرب ومتعاطفة مع أطفال غزّة. كان من الواضح أنّه كلّما طال أمد الحرب ستزداد الهجمات والقمع تجاه المجتمع العربيّ، وذلك كنوع من أنواع الانتقام تجاه كلّ من هو عربيّ، وكمحاولة لوضع قواعد تصرُّف سياسيّ مختلف للمجتمع العربيّ يحدّده الإجماع الصهيونيّ (شحادة، 2024).

الأدوات المستخدَمة في التعامل مع المواطنين الفلسطينيّين وقت الحرب توضّح أنّ المؤسَّسة الإسرائيليّة تتعامل معهم في أوقات الأزمات الأمنيّة الحادّة على أنّهم أعداءٌ، أو -على الأقلّ- أعداءٌ محتمَلون (عوّاد، 2025). بِذا يمكن وصف ما يَحْدث بعودة غير معلَنة إلى الحكم العسكريّ. فقد شهدت فترة الحرب حالةَ تعطيل شبه تامّ للأدوات الديمقراطيّة الشكليّة المستعمَلة في إسرائيل، من بينها حرّيّةُ التعبير عن الرأي والحقُّ في التظاهر ومعارَضة الحرب، وتصعيدًا خطيرًا في تعامل الدولة والمؤسَّسات الأمنيّة والمجتمع الإسرائيليّ تجاه المواطنين الفلسطينيّين. الحرب على قِطاع غزّة وضّحت هشاشةَ المواطَنة الممنوحة للفلسطينيّين في إسرائيل وخَواءَها، وخضوعَها التامّ للدوافع والاحتياجات الأمنيّة ولاحتياجات الإجماع الصهيونيّ وشروطه، وكذلك كشفت الاستعداد لمحو الهامش السياسيّ، الذي استخدمه الفلسطينيّون في إسرائيل لممارَسة أبسط حقوقهم، ولفرض حدود جديدة للتعبير والعمل السياسيّ.

في الأسابيع الأولى من حرب الإبادة على غزّة، كان ردّ فعل المجتمع العربيّ والقيادات السياسيّة شبهَ معدوم، ولم تتحدَّ الأحزاب العربيّة ولجنة المتابعة سياسات القمع والترهيب تحدّيًا جِدّيًّا. فمنذ بداية الحرب، كانت هناك بعض المحاولات للقيام بوقفات احتجاج في عدد من البلدات العربيّة، وتقديم طلبات للشرطة لترخيص تظاهرات، دون أن تستجيب الشرطة، وسجّلت محاولات قليلة للتوجُّه إلى القضاء للاستئناف على قرارات الشرطة. على وجه العموم، بناء على بيانات الأحزاب العربيّة ولجنة المتابعة (وحدة السياسات- مدى الكرمل، 2024ب)، يمكن القول إنّ المجتمع العربيّ والقيادات السياسيّة تعاملوا مع الأحداث على أنّها غير اعتياديّة وتعكس تحوُّلًا خطيرًا في سياسات وتعامُل الدولة مع المواطنين العرب، وقد تستغلّها المؤسَّسة الأَمنيّة لارتكاب جرائم ضدّ المجتمع العربيّ تحت حجّة حالة الطوارئ.

من هنا تأتي أهمّيّة متابعة وتحليل مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب على غزّة، وتأثيراتها على مكانة المواطنين العرب، وعلى العلاقات مع الدولة ومع المجتمع الإسرائيليّ، وعلى القضيّة الفلسطينيّة بمُجْمَلها، وخاصّة أنّ هذا الاستطلاع هو الاستطلاع الأوّل منذ بداية حرب الإبادة على غزّة الذي تنفّذه مؤسَّسة عربيّة. فمنذ بداية الحرب، قامت بعض المؤسَّسات الإسرائيليّة بإجراء استطلاعات رأي عامّ في عموم في البلاد، تشمل المجتمع العربيّ. بَيْدَ أنّ تلك الاستطلاعات[1]، على نحوٍ ما بيّنّا في ورقة موقف سابقة نُشِرت في كانون الثاني 2023، قد تناولت -في ما تناولت- مواقف المجتمَعَيْن العربيّ واليهوديّ في عدّة مَحاور تتعلّق بالحرب، منها: الشعورُ بالأمن الشخصيّ، وإسقاطاتُ الحرب على العلاقات اليهوديّة العربيّة، والمواقفُ تجاه عمليّة طوفان الأقصى والحرب على غزّة، وآثارُ الحربِ الاقتصاديّةُ، ولم تتعامل مع خصوصيّة حالة المجتمع العربيّ، وتجاهلت سياساتِ الترهيبِ والإخراسِ المعمولَ بها منذ بداية الحرب، وتأثيرَها على مواقف المجتمع العربيّ. وضّحنا في ورقة الموقف تلك أنّه من الصعب فَهْمُ وتحليلُ مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب، وتجاه العلاقات مع المجتمع اليهوديّ، وتقييمُ أبناء هذا المجتمع للأمان الشخصيّ، بمعزل عن سياق الحرب الحاليّ، والترهيب والإخراس والملاحَقات السياسيّة تجاه المواطنين العرب،

1. على سبيل المثال: (رودنتكسي، 2023)؛ (هرمان؛ وعنافـي، 2023)؛ (ديتش؛ وآخرون، 2023).

ووضعهم في خانة "العدوّ"، ومنْع المؤسَّسة الأمنيّة أيَّ مظاهر احتجاج أو تظاهرات للتعبير عن رأيٍ مُعارِض للحرب والقتل والدمار.

قراءة مواقف المجتمع العربيّ في هذا الاستطلاع تأخذ بعين الاعتبار هذه العوامل جميعها، وتدرك أنّ تعامل المجتمع العربيّ مع الأسئلة ومع الاستطلاع جاءت في ظلّ أجواء الترهيب والإخراس والملاحَقة السياسيّة، وأنّ ثمّة حذرًا شديدًا في تعامل المستطلَعين مع الأسئلة.

تَعْرض هذه الورقة نتائج استطلاع رأي عامّ أجراه مدى الكرمل في النصف الثاني من شهر أيّار 2024، عبْر عيّنة تمثيليّة من 501 من المستطلَعين، حول آثار الحرب على المجتمع العربيّ في عدّة مَحاور؛ منها السياسيُّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، ومنها قراءةُ المجتمع العربيّ لآثار الحرب على مكانة المواطنين العرب وعلى العلاقات بينهم وبين الدولة والمجتمع اليهوديّ. كذلك شمل الاستطلاع مواقفَ أبناء المجتمع العربيّ من الحرب على غزّة، وتقييمَهم للحالة السياسيّة الراهنة ومستقبَل القضيّة الفلسطينيّة، وتقييمَهم لأداء الأحزاب السياسيّة والقيادات السياسيّة ولجنة المتابَعة خلال الحرب.

آثار الحرب على الحالة الاقتصاديّة

تناول القسم الأوّل من الاستطلاع آثار الحرب على الحالة الاقتصاديّة للمواطنين العرب، وعلى سوق العمل. فحص تقييم المستطلَعين لتأثير الحرب على الأوضاع الاقتصاديّة يكمل المعطيات الرسميّة التي أفادت بوجود آثار اقتصاديّة سلبيّة للحرب على الأوضاع الاقتصاديّة عامّة في البلاد، ولدى المجتمع على نحوٍ خاصّ. وقد وضّحت في ورقة موقف نُشِرت في كانون الثاني عام 2024 أنّ الأضرار الاقتصاديّة في المجتمع العربيّ نتيجة الحرب على غزّة كانت مباشِرة وحادّة، وطالت أجزاءً واسعة من المجتمع؛ إذ لم تكن حدّة الآثار السلبيّة نتيجة التراجع الاقتصاديّ العامّ في البلاد فقط، بل تأثّرت كذلك من طبيعة ومواصَفات الاقتصاد العربيّ وطبيعة مشارَكة العرب في أسواق العمل، ومن السياسات العنصريّة البنيويّة تجاه المجتمع العربيّ، ومن سياسات إعاقة تنمية الاقتصاد العربيّ (وحدة السياسات- مدى الكرمل، 2024أ).

وَفقًا لعدّة تقارير نُشِرت منذ اندلاع الحرب على غزّة، الضرر الاقتصاديّ الذي لحق بالمجتمع العربيّ كان حادًّا ومباشرًا، وتُرجِم بالأساس في تراجع المشارَكة في أسواق العمل، وارتفاع البطالة، وانخفاض في مستويات الدخل. على سبيل المثال، نشر منتدى الاقتصاد العربيّ تقريرًا موسّعًا حول نتائج الحرب على مشارَكة المجتمع العربيّ في أسواق العمل،[2] أكّد وجود تأثير حادّ للحرب على مشارَكة العرب في أسواق العمل، ولا سيّما الرجال العرب، نتيجة الانخفاض الحادّ في نشاط فروع البناء والبنى التحتيّة، وبسبب نقص العمّال الأجانب والفلسطينيّين، إلى جانب انخفاض الطلب في قِطاعات التجارة والضيافة والأغذية والترفيه. توضِّح المعطَيات أنّ نسبة التغيُّب عن العمل في المجتمع العربيّ في الأسبوع الأوّل بعد اندلاع الحرب بلغت نحو 30%، وانخفضت بعد ستّة أسابيع إلى نحو 20%. ثمّة سبب آخَر لهذه الحالة هو زيادة التوتُّر بين العرب واليهود، وهو ما أدّى إلى تقليص العلاقات الاقتصاديّة بينهم. كذلك وضّح تحليلٌ خاصّ لشعبة البحوث في بنك إسرائيل، يحمل العنوانَ "أثر حرب "السيوف الحديديّة" على العمل في المجتمع العربيّ" (شعبة البحوث- بنك إسرائيل، 2023)، حصولَ ضرر بالغ بالتوظيف في المجتمع العربيّ؛ إذ بلغت نسبة البطالة بالتعريف الواسع 15.6 % في المجتمع العربيّ، مقابل 8.6% في المجتمع اليهوديّ.

بينما تعتمد التقارير الرسميّة على المعطيات الرسميّة لدائرة الإحصاء المركزيّة، نقوم في هذا الاستطلاع بفحص تقييم المستطلَعين أنفسهم بشأن الآثار الاقتصاديّة للحرب، ونرى أنّه هناك أهمّيّة لمقارنة تأثير الحرب الاقتصاديّ وَفقًا لموقع ومواصفات مكان العمل، وعلى وجه التحديد ما إذا كان مكانَ عمل فيه أغلبيّة الموظَّفين من المواطنين العرب، أي إنّه على الأغلب يقع في بلدات عربيّة، أم مكانَ عملٍ مختلطًا أو فيه أغلبيّة للموظّفين اليهود، أي إنّه على الأغلب يقع في بلدات يهوديّة. هذا التقسيم من شأنه أن يسهم في توضيح ما إذا كان ثمّة اختلاف في تأثير الحرب الاقتصاديّ بين البلدات اليهوديّة والعربيّة.

تشير نتائج الاستطلاع أنّ 17% من المستطلَعين يعملون في أماكن عمل يعمل فيها مواطنون عرب فقط، وَ33% في أماكن عمل فيها أغلبيّة لموظَّفين عرب، و27 % في أماكن عمل فيها أغلبيّة لموظَّفين يهود؛ أي إنّ غالبيّة المجتمع العربيّ

2. وذلك بناءً على نتائج استطلاع القوى العاملة لشهر تشرين الأوّل (2023) الذي نشرته دائرة الإحصاء المركزيّة: (ميعاري؛ وأرنون، 2023).

(33+27=60 %) تعمل في أماكن عمل مختلطة وهي بتواصل يوميّ تقريبًا مع زملاء من المجتمع اليهوديّ، مع العلم أنّ أماكن العمل المختلطة تحوّلت منذ بداية الحرب على غزّة إلى أدوات ضبط ورقابة ووشاية ضدّ الموظَّفين العرب، وشهدنا حالات عديدة فيها قام زملاء في العمل بالوشاية بزملائهم العرب بسبب كتابة تغريدة أو موقف رافض للحرب على مواقع التواصل الاجتماعيّ (شحادة، 2024). يمكن التوقّع أنّ نتيجة هذا الواقع تؤثّر على المواقف السياسيّة العلنيّة، وعلى تصرُّف المواطنين العرب خلال الحرب على غزّة.

الجدول 1: هل مكان عملك يعمل فيه عرب؟

	العدد	النسبة
تعمل فيه أغلبيّة عربيّة	166	%33
تعمل فيه أغلبيّة يهوديّة	137	%27
يعمل فيه عرب فقط	87	%17
حاليًّا لا أعمل	110	%22
المجموع	501	%100

فحصُ هذا السؤال وَفقًا لمنطقة السكن يوضّح وجود فروق لدى المجتمع العربيّ وَفقًا لمكان السكن. العمل في أماكن عمل تعمل فيها أغلبيّة عربيّة كان أبرز في منطقة الشمال وحيفا ومنطقة القدس وتل أبيب، بينما نسبة العاملين في أماكن عمل تعمل فيها أغلبيّة يهوديّة كان أعلى في مناطق الجنوب والمركز.

الجدول 2: هل مكان عملك يعمل فيه عرب- وَفقًا لمنطقة السكن؟

	الشمال	حيفا	الجنوب	المركز	القدس وتل أبيب
تعمل فيه أغلبيّة عربيّة	%34	%37	%27	%27	%44
تعمل فيه أغلبيّة يهوديّة	%22	%23	%38	%46	%38

يعمل فيه عرب فقط	%20	%19	%14	%10	%0
حاليًّا لا أعمل	%24	%20	%21	%17	%18
المجموع	**270**	**89**	**67**	**60**	**16**

فحصنا كذلك كيف أثّرت الحرب على سَيْر العمل في أماكن العمل، وعلى وجه التحديد ما إذا تعطّل العمل بشكل كلّيّ أو جزئيّ، مع تحديد مدّة التعطُّل. ففي الأشهر الأولى من الحرب، تعطّل عمل مَرافق اقتصاديّة عديدة، خاصّة في منطقة الجنوب، منها قِطاع البناء والبنى التحتيّة، والقِطاع الزراعيّ، والقِطاع السياحيّ، وإلى حدٍّ ما القِطاع الصناعيّ والخدماتيّ.

وَفقًا لنتائج الاستطلاع، قال 29% من المستطلَعين إنّ عملهم لم يتأثّر بسبب الحرب، و29% قالوا إنّه تأثّر على نحوٍ جزئيّ، و15% قالوا إنّ العمل تَعطَّل لفترة طويلة، و7% إنّه تعطّل لفترة قصيرة.

الجدول 3: هل أثّرت الحرب على عملك؟

	العدد	النسبة
تعطَّل العمل على نحوٍ جزئيّ	143	%29
تعطَّلَ العمل على نحوٍ كامل لفترة طويلة	74	%15
تعطَّلَ العمل على نحوٍ كلّيّ لفترة قصيرة	33	%7
لم يتأثّر العمل	147	%29
حاليًّا لا أعمل	104	%21
المجموع	**501**	**%100**

فحْص هذا المتغيّر وَفقًا لمنطقة السكن يوضّح الفروق في آثار الحرب الاقتصاديّة. يتّضح أنّ المواطنين العرب في مناطق الجنوب والمركز والقدس كانوا أكثر تضرُّرًا من مناطق الشمال وحيفا- أي في المناطق القريبة من قِطاع غزّة.

الجدول 4: هل أثّرت الحرب على عملك- وَفقًا لمنطقة السكن؟

	الشمال	حيفا	الجنوب	المركز	القدس وتل أبيب
لم يتأثّر العمل	%27	%38	%25	%33	%27
تعطّل العمل على نحوٍ جزئيّ	%30	%30	%25	%25	%18
تعطّل العمل على نحوٍ كامل لفترة طويلة	%12	%10	%24	%19	%27
تعطّل العمل على نحوٍ كلّيّ لفترة قصيرة	%7	%3	%9	%8	%10
حاليًّا لا أعمل	%23	%19	%17	%15	%18
المجموع	**270**	**89**	**67**	**60**	**16**

الحرب على غزّة أدّت أيضًا إلى تراجع في الدخل لدى قسم من العائلات العربيّة، إمّا بسبب التوقُّف عن العمل، وإمّا بسبب تراجع حركة الاقتصاد والاستهلاك بشكل عامّ في أشهر الحرب الأولى. وَفْقًا لنتائج الاستطلاع (الجدول 5) نجد أنّه لدى 38% من المستطلَعين لم يتأثّر دخل العائلة، بينما تراجع على نحوٍ كبير لدى 31% من العائلات، وعلى نحوٍ بسيط لدى 29%. بِذا، كانت للحرب آثار سلبيّة على دخل قرابة 60% من العائلات العربيّة- وإن بتفاوت في حدّتها.

الجدول 5: هل تراجَعَ دخل العائلة بعد الحرب على غزّة أو بسببها؟

	العدد	النسبة
لم يتأثّر- بقي الوضع كما هو	190	%38
تراجَع تراجعًا كبيرًا	155	%31
كان هناك انخفاض بسيط	143	%29

تحسَّن الدخل	13	%3
المجموع	**501**	**%100**

كذلك في هذا الجانب نجد فروقًا بين المستطلَعين وَفقًا لمكان السكن. في هذا الجانب، نجد أنّ الضرر طال المناطق كافّة، لكنّه كان أكثر حدّة في مناطق الجنوب والقدس وتل أبيب.

الجدول 6: هل تراجع دخل العائلة بعد الحرب على غزّة أو بسببها- وَفقًا لمنطقة السكن؟

	الشمال	حيفا	الجنوب	المركز	القدس وتل أبيب
تراجَعَ على نحوٍ كبير	%29	%30	%42	%22	%64
كان هناك انخفاض بسيط	%30	%24	%24	%40	%9
تحسَّنَ الدخل	%2	%2	%5	3%	%0
لم يتأثّر-بقي الوضع كما هو	%39	%44	%29	%36	%27
المجموع	**270**	**89**	**67**	**60**	**16**
	%100	**%100**	**%100**	**%100**	**%100**

بسبب الحرب وحالة التوتُّر في البلدات اليهوديّة، توقّعنا أن نجد تراجعًا في حالة الاستهلاك وتسوُّق المواطنين العرب من البلدات اليهوديّة، إلّا أنّ نتائج الاستطلاع (الجدول 7) لم تعزّز هذه الفرضيّة، إذ قال 51% من المستطلَعين إنّهم لم يغيّروا عادات الاستهلاك والتسوُّق من البلدات اليهوديّة، و 13% فقط قالوا إنّهم توقّفوا تمامًا عن الشراء من البلدات اليهوديّة، و13% قالوا إنّهم توقّفوا عن ذلك في الفترة الأولى من الحرب فقط.

على الجملة، يمكن الادّعاء أنّ الحرب لم تغيّر من عادات الاستهلاك وتسوُّق المواطنين العرب من البلدات اليهوديّة، ولم يقاطع المجتمع العربيّ البلدات الإسرائيلية من منطلَق موقف سياسيّ، على العكس من المجتمع اليهوديّ الذي يقاطع البلدات العربيّة مقاطَعة كبيرة.

الجدول 7: هل تغيّرت عادات الاستهلاك أو الشراء أو زيارة بلدات يهوديّة بعد الحرب؟

	العدد	النسبة
لم تتغيّر، وأستمرُّ في الشراء والتسوُّق من البلدات اليهوديّة	257	%51
أشتري -في المعتاد- من البلدات العربيّة فقط	116	%23
نعم تغيّرتْ وتوقّفتُ عن التسوُّق والشراء في البلدات اليهوديّة بداية الحرب فقط	66	%13
نعم تغيّرتْ وتوقّفتُ تمامًا عن الشراء والتسوُّق من البلدات اليهوديّة	63	%13
المجموع	**501**	**%100**

آثارُ الحربِ السياسيّةُ

الجانب الثاني الذي تناوله الاستطلاع هو آثارُ الحربِ السياسيّةُ على غزّة على المواطنين العرب، ومن ضمنها مدى شعورهم بالأمان. وَفقًا للنتائج، أشار 58% من المستطلَعين إلى تراجع في الشعور بالأمان الشخصيّ بدرجات كبيرة، بينما أشار 42% منهم إلى تراجع بدرجات قليلة.

كذلك أشار أكثر من نصف المستطلَعين (55%) إلى شعور بالخوف من اعتداء من قِبل الشرطة، وإنْ بدرجات قليلة. ولدى 45% زاد الخوف من اعتداء الشرطة بدرجات عالية. كذلك كان الحال بالنسبة للخوف من اعتداء من قِبل مواطنين يهود، إذ قال 66% من المستطلَعين إنّهم يخشَوْن، بدرجات قليلة من اعتداء مواطنين يهود، و34% بدرجات مرتفعة.

هذه المعطيات توضّح الشعور بعدم الأمان والمخاوف من اعتداءات من قِبل الشرطة أو المواطنين اليهود على المواطنين العرب، في ظلّ الحرب على غزّة وأحداث السابع من أكتوبر، وبخاصّة على ضوء تحريض وزراء في الحكومة ضدّ المواطنين العرب، ولا سيّما وزير الأمن القوميّ إيتمار بن چڤير، وحملة توزيع السلاح على المواطنين اليهود، وتصرُّفات الشرطة على أرض الواقع (شحادة، 2024).

الجدول 8: أثر الحرب على غزّة على...

	عدم الأمان الشخصيّ	الخوف من اعتداء الشرطة عليك	اعتداء عليك من قِبل مواطنين يهود
1 بدرجة قليلة	%24	%42	%47
2	%18	%13	%19
3	%23	%13	%13
4 بشكل كبير	%35	%32	%21
المجموع	**%100**	**%100**	**%100**

في جانب آثار الحرب على تعامل الدولة مع المواطنين العرب، سألنا المستطلَعين عن تقييمهم لكيفيّة تعامل إسرائيل مع المواطنين العرب على أثر الحرب على غزّة.

الجدول 9: حسب رأيك، كيف ستتعامل إسرائيل مع المواطنين العرب على أثر الحرب على غزّة؟

	العدد	النسبة
ستكون أكثر عنصريّة تجاه العرب	269	%54
ستقيّد العمل السياسيّ وحرّيّة التعبير عن الرأي	115	%23
ستعمل على تحسين الوضع الاقتصاديّ للعرب وفي الوقت نفسه سوف تقيّد العمل السياسيّ	77	%15
لا أعرف	40	%8
المجموع	**501**	**%100**

وجدنا أنْ ثمّة غالبيّة مطلقة ترى أنّ سياسات الدولة ستكون أكثر عنصريّةً تجاه المواطنين العرب على أثر الحرب، بواقع 54% من المستطلَعين، وأنّ 23 % يتوقّعون أن تقوم الدولة بتقييد العمل السياسيّ وحرّيّة التعبير عن الرأي؛ أي إنّ قرابة 77 % من المستطلَعين يتوقّعون أنّ تعامُل الدولة مع المواطنين العرب سيزداد سوءًا، إمّا عبْر تزايد العنصريّة وإمّا عبْر تقييد العمل السياسيّ وقمع حرّيّة التعبير. وثمّة

15 % فقط يعتقدون أنّ الدولة ستعمل على تحسين الوضع الاقتصاديّ للمواطنين العرب كنوع من أنواع الاحتواء وزيادة سيطرة الدولة على المواطنين العرب.

يمكن القول إنّ المجتمع العربيّ يرى أنّ خطوات القمع والإخراس التي تقوم بها المؤسَّسات الأمنيّة حاليًّا، والعنصريّة العلنيّة من قِبل متّخذي القرار وسياسيّين، وعامّة المجتمع الإسرائيليّ، هي مقدّمة لأسلوب تعامل الدولة مع المواطنين العرب أيضًا بعد انتهاء الحرب.

في هذه الأوضاع، يرى قسم كبير من المستطلَعين (الجدول 10) أنّ الحرب على غزّة وآثارها ستؤثّر سلبًا على العلاقات بين المجتمعَيْن العربيّ واليهوديّ.

الجدول 10: تأثير الحرب على غزّة على العلاقات بين المجتمع العربيّ مع المجتمع اليهوديّ

	العدد	النسبة
ستزيد التوتُّر في العلاقات بين المجتمعَيْن العربيّ واليهوديّ	199	%40
لن تغيّر أيّ شيء وستبقى العلاقات كما هي	123	%24
يتعلّق الأمر بما ستنتهي إليه الحرب	111	%22
يمكن أن تؤدّي إلى تحسين العلاقات بعد انتهاء الحرب	58	%12
لا أعرف	10	%2
المجموع	**501**	**%100**

وجدنا أنّ 40% من المستطلَعين يعتقدون أنّ الحرب ستؤدّي إلى زيادة التوتُّر بين المجتمعَيْن العربيّ واليهوديّ (40%)، و24% يرَوْن أنّها لن تغيّر العلاقات، و22% يقرنون الأمر بكيفيّة انتهاء الحرب، وثمّة 12% فقط قالوا إنّها ستحسّن العلاقات.

بِذا نرى أنّ المستطلَعين مدرِكون للتحوُّلات التي حصلت منذ بداية الحرب على غزّة في طبيعة العلاقات بين المجتمعَيْن العربيّ واليهوديّ، والتغيُّرات في مواقف المجتمع اليهوديّ، وتزايد العنصريّة والعداء والتطرُّف في المواقف السياسيّة العلنيّة.

الآثار على القضيّة الفلسطينيّة

تناول الاستطلاع كذلك تقييم المواطنين العرب لتأثير الحرب على القضيّة الفلسطينيّة عامّة. بداية، سألنا المستطلَعين عن مصير غزّة في اليوم التالي للحرب، كما نوضّح في الجدول 11.

الجدول 11: بحسب رأيك، هل ستؤدّي الحرب إلى التالي؟

	العدد	النسبة
ستستمرّ حماس في حكم غزّة	147	%29
قد تؤدّي إلى إقامة دولة فلسطينيّة مستقلّة	82	%16
ستؤدّي إلى إقامة سلطة لإدارة القِطاع تتشكّل من دول عربيّة	50	%10
ستؤدّي إلى القضاء على حماس وعودة السلطة الفلسطينيّة إلى الحكم في غزّة	35	%7
ستُحتلّ ثانيةً غزّةُ كاملةً، وستُفرَض عليها سيطرة إسرائيليّة مباشِرة	34	%7
لا أعرف	153	%31
المجموع	**501**	**%100**

وَفقًا للإجابات، يمكن الادّعاء أنّه لا تصوُّرَ واضح لدى المستطلَعين بشأن نتيجة الحرب على غزّة، وبشأن كيفيّة تأثير الحرب على الحالة السياسيّة، وبخاصّة في ظروف عدم اليقين القائم، وعدم وضوح كيفيّة استمرار الحرب عند إجراء هذا الاستطلاع في شهر آذار 2024، أي قبل الكثير من التحوُّلات الميدانيّة وتوسيع الحرب على لبنان. كذلك لا يمكن أن نتجاهل تأثير حالة الخوف والملاحَقة السياسيّة القائمة منذ بداية الحرب على مواقف وأجوبة المستطلَعين. في ظلّ هذه المحدوديّات، ليس من المفاجئ أن يختار 31 % من المستطلَعين -وهي النسبة الأعلى- الخيارَ "لا أعرف" للإجابة عن هذا السؤال. وَفقًا للنتائج،

نجد كذلك أنّ 29% من المستطلَعين قالوا إنّ حماس ستستمرّ في حكم غزّة، وقال 16% إنّ الحرب قد تؤدّي إلى إقامة دولة فلسطينيّة مستقلّة، وقال 10% إنّ الحرب ستؤدّي إلى إقامة سلطة لإدارة قِطاع غزّة تتشكّل من دول عربيّة. قلّة قليلة (7%) قالت إنّ الحرب ستؤدّي إلى القضاء على حركة حماس وعودة السلطة الفلسطينيّة، ونسبة مشابهة قالت إنّ الحرب ستؤدّي إلى إعادة الاحتلال الإسرائيليّ إلى قِطاع غزّة، بينما قال أغلب المستطلَعين (31%) إنّهم لا يعرفون ماذا سيكون.

أمّا في ما يخصّ الحلّ الأكثر مناسَبةً للقضيّة الفلسطينيّة (الجدول 12)، فنجد أنّ غالبيّة المستطلَعين (51%) ما زالوا يدعمون حلّ الدولتَيْن (وَفقًا للمفهوم العربيّ لهذا الحلّ، أي أن تبقى إسرائيل كما هي وأن تقام دولة فلسطينيّة)، بينما قال 20% من المستطلَعين إنّهم يدعمون حلّ الدولتَيْن مع تحويل إسرائيل إلى دولة لكلّ مواطنيها. وهي نتائج شبيهة بنتائج استطلاع عام 2022، وتراجَعَ خيارُ حلّ الدولة الواحدة لليهود والفلسطينيّين معًا من 22% عام 2022 إلى 15% هذا العام.

الجدول 12: ما هو الحلّ السياسيّ الأكثر ملاءَمةً برأيك للقضيّة الفلسطينيّة- الإسرائيليّة؟

	العدد	النسبة
حلّ الدولتَيْن للشعبين	256	%51
حلّ الدولتَيْن مع تحويل إسرائيل إلى دولة لكلّ مواطنيها	102	%20
حلّ الدولة الواحدة لليهود والفلسطينيّين معًا	73	%15
استمرار الوضع القائم على ما هو عليه	33	%7
لا أعرف	37	%7
المجموع	**501**	**%100**

سألنا كذلك بشأن تقييم المستطلَعين ما إذا قرّبت الحرب من إقامة دول فلسطينيّة أَمْ أبعدتها (الجدول 13)، ووجدنا أنّ غالبيّة بسيطة (37%) -مقارَنةً بباقي الخيارات- ترى أنّ الحرب قرّبت إقامة دولة فلسطينيّة، بينما يرى 21% أنّها

أبعدتها، ويرى 33% أنّها لم تغيّر أيّ شيء.

بِذا نرى مرّة أخرى أنّ عدم الوضوح بشأن نتيجة الحرب وإسقاطاتها هي العامل الأبرز- وهو أمر طبيعيّ في ظلّ عدم وضوح نتائج الحرب لغاية إجراء الاستطلاع، والكيفيّة التي ستكون عليها نهاية الحرب.

الجدول 13: حسب رأيك، هل قرّبت الحرب إنهاءَ الاحتلال وإقامةَ دولة فلسطينيّة، أَمْ أبعدتهما؟

	العدد	النسبة
قرّبت إقامةَ دولة فلسطينيّة	185	%37
أبعدت إقامةَ دولة فلسطينيّة	103	%21
لم تغيّر شيئًا	165	%33
لا أعرف	48	%10
المجموع	**501**	**%100**

أمّا في ما يتّصل بتصوُّر المستطلَعين للتوجُّه السياسيّ الأكثر ملاءَمةً للمواطنين العرب في إسرائيل، فقد وجدنا -كما يوضّح الجدول 14- أنّ أغلبيّة صغيرة من المستطلَعين ترى أنّ الحلّ الأكثر ملاءَمةً هو الاندماج السياسيّ الكامل والمشارَكة في التحالف الحكوميّ، بواقع 39%[3] بينما يرى 30% أنّ الحلّ الأكثر ملاءَمةً هو بناء مؤسَّسات عربيّة وطنيّة لتنظيم المجتمع العربيّ، ويرى 17% أنّ التركيز على تحصيل الميزانيّات من الدولة دون المشارَكة في الائتلاف الحكوميّ هو الحلّ الأكثر ملاءَمةً، أي الاهتمام بالجوانب المدنيّة دون أن يكون ذلك مقرونًا بتغيير مواقف أو تصرُّف سياسيّ والاندماج في المنظومة السياسيّة. وقد اختارت قلّة قليلة من المستطلَعين (10%) خيار مقاطعة الكنيست كلّيًّا. يمكن القول إنّ إسقاطات الحرب وأثرها السياسيّ على مواقف وتصرُّف المجتمع الفلسطينيّ لم تتّضح ولم تنضج لغاية إجراء الاستطلاع، وتتعلّق إلى حدّ بعيد بالنتائج النهائيّة للحرب، وبالتحوُّلات السياسيّة في المجتمع الإسرائيليّ.

3. تحتاج هذه النتيجة إلى الكثير من التحليل المرتبط بسلوك المستعمَرين وأسباب تماهيهم مع المستعمِر. في هذا الصدد، بالإمكان العودة إلى مقال حبيب مخّول في هذا الكتاب، ص.ص. 51- 72. (كيّال، 2024).

الجدول 14: حسب رأيك، ما هو التوجُّه الأكثر ملاءمةً للمواطنين العرب في ظلّ الوضع السياسيّ الراهن؟

	العدد	النسبة
الاندماج السياسيّ الكامل والمشارَكة في التحالف الحكوميّ	198	%39
بناء مؤسَّسات عربيّة وطنيّة لتنظيم المجتمع العربيّ	154	%31
التركيز على تحصيل الميزانيّات من الدولة دون المشارَكة في الائتلاف الحكوميّ	83	%17
مقاطعة الكنيست كلّيًّا	51	%10
لا أعرف	14	%3
المجموع	**501**	**%100**

تقييم تصرُّف المواطنين العرب

بخلاف تجارب سابقة (منها -على سبيل المثال لا الحصر- الحرب على غزّة عام 2014 وهبّة أيّار عام 2021)، لم يخرج المجتمع العربيّ في أيّ مظاهرات احتجاجيّة في البلدات العربيّة ولا في المدن الساحليّة (المختلطة)، وتميّز هذه المرّة بالهدوء غير التقليديّ. هذا التصرُّف سيحتاج إلى دراسات وأبحاث معمَّقة مستقبَلًا دون أدنى شكّ. فهل كان عامل الخوف هو الرادع أمام خروج تظاهرات وفعّاليّات احتجاجيّة؟ وما مدى تأثير صدمة السابع من أكتوبر 2023 وطبيعته على تصرُّف المواطنين الفلسطينيّين؟ وما تأثير وجود حكومة يمينيّة بالكامل وشخص إيتمار بِنْ چـڤـير في منصب وزير الأمن القوميّ المسؤول عن الشرطة، على تصرُّف المواطنين العرب؟ كذلك لا يمكن تجاهل تأثير قمع الشرطة والسلطة القضائيّة لهبّة أيّار (2021) وتعاملهما مع المعتقَلين وشدّة الأحكام الجائرة الصادرة ضدّ عدد كبير منهم، وترك المتّهَمين لمواجهة الشرطة والمخابرات والمحاكم وحدهم، كعامل ردع داخليّ في المجتمع الفلسطينيّ.[4] من هنا أهمّيّة الفحص

4. للتوسُّع في هذا الصدد، وتحليل تعامل المؤسَّسة الأمنيّة مع المواطنين العرب خلال وبعد هبّة أيّار: (عنبتاوي، 2024).

الأوّليّ لتقييم المستطلَعين لتصرُّف المجتمع العربيّ منذ بداية الحرب في هذا الاستطلاع.

في البداية، فحص الاستطلاع كيفيّة تقييم المستطلَعين لتصرُّف المجتمع العربيّ وقت الحرب. توضّح النتائج (الجدول 15) أنّه في هذا الجانب ثمّة عدم إجماع في تقييم التصرُّف. فقد قال 31% من المستطلَعين إنّ تصرُّف المواطنين العرب هو تصرُّف حكيم ومسؤول، بينما قال 27% إنّه لم يكن أمام المواطنين العرب إمكانيّات أخرى للتصرُّف، وقال 24% إنّه تصرُّف نابع عن خوف، وقال 8% فقط إنّ المجتمع العربيّ مقصّر، و7% قالوا إنّه كان في الإمكان أن يقوم العرب بمظاهرات احتجاج سلميّة أكثر ممّا كان.

يمكن القول إنّ تعاملَ مؤسَّسات الدولة تجاه المواطنين العرب منذ اليوم الأوّل للحرب، وحملاتِ الترهيب والإسكات والاعتقالات، والأجواءَ العامّة التي سادت في البلاد منذ السابع أكتوبر 2023 (وهو واقع لم يجرّبه المجتمع العربيّ منذ عقود، لا من حيث طبيعة الهجوم الذي قامت به حماس، ولا من حيث ردّة الفعل الإسرائيليّة، ولا من حيث الأدوات التي استعملتها المؤسَّسة تجاه المجتمع العربيّ)، والتهديداتِ التي صدرت عن قيادات سياسيّة أو أمنيّة تجاههم، كلّ هذه جميعها أثّرت على تقييم المواطنين العرب. كذلك لا يمكن إلغاء الاحتمال أنّ المستطلَعين يتعاملون بحذر شديد مع الاستطلاعات الهاتفيّة، ولا يعبّرون بالضرورة عن مواقفهم على نحوٍ صريح. كلّ هذه العوامل كان لها دَوْر في تشكُّل مواقف المجتمع العربيّ وتقييم التصرُّف.

الجدول 15: كيف تقيّم تصرُّف المواطنين العرب بعد الحرب على غزّة؟

	العدد	النسبة
تصرُّف حكيم ومسؤول	153	%31
لم يكن أمام المواطنين العرب إمكانيّات أخرى للتصرُّف	137	%27
تصرُّف نابع عن خوف	119	%24
كان موقفهم مقصّرًا	41	%8

كان في الإمكان أن يقوم العرب بمظاهرات احتجاج سلميّة أكثر ممّا كان	34	%7
لا أعرف	17	%3
المجموع	501	**%100**

هذه الحالة تُرجِمت أيضًا في مواقف المستطلَعين بشأن استعدادهم للمشارَكة شخصيًّا في المظاهرات والاحتجاج كما يوضّح الجدول 16. القسم الأكبر من المستطلَعين (48%) قال إنّه غير مستعدّ للمشارَكة شخصيًّا في احتجاجات أو مظاهرات ضدّ الحرب، بينما قال 31% إنّهم مستعدّون للمشارَكة فقط إذا كانت المظاهرات من تنظيم ودعوة لجنة المتابعة وبترخيص الشرطة.

هنا يمكن الادّعاء أنّ الأجواء العامّة وتهديدات الأجهزة الأمنيّة وممارَساتها على أرض الواقع، من بينها اعتقالات لعدد كبير من الشباب وشخصيّات اعتباريّة وفنّيّة وقيادات سياسيّة، قامت بدَوْر في ترهيب الناس وردعهم من المشارَكة في الاحتجاجات، وفي تشكُّل وعي جماعيّ أنّ الحالة الحاليّة تختلف عن أيّ تجربة سابقة مرّ فيها المجتمع العربيّ.

الجدول 16: ما هو مدى استعدادك لمشاركتك شخصيًّا في احتجاجات أو مظاهرات ضدّ الحرب؟

	العدد	النسبة
غير مستعدّ للمشارَكة بتاتًا	242	%48
لا أشارك إلّا إذا كانت المظاهرات من تنظيم ودعوة لجنة المتابعة وبترخيص الشرطة	153	%31
يمكن أن أشارك في وقفات احتجاج سلميّة في بلدي- مكان السكن	62	%12

مستعدّ أن أشارك بكلّ الحالات	41	%8
لا أعرف	4	%1
المجموع	501	**%100**

بالإضافة إلى المواقف الشخصيّة، فحَصَ الاستطلاع مدى رضى المستطلَعين عن أداء القيادات السياسيّة والحزبيّة العربيّة خلال الحرب على غزّة. وَفقًا للنتائج (الجدول 17)، نرى أنّ غالبيّة المستطلَعين غير راضين عن أداء الأحزاب العربيّة وأعضاء الكنيست العرب ولجنة المتابعة. فقد قال نحوُ 68% من المستطلَعين إنّهم غير راضين (بتاتًا وإلى حدٍّ ما) عن أداء الأحزاب العربيّة، وعن أداء أعضاء الكنيست العرب وعن أداء لجنة المتابعة. في المقابل، أعرب نحوُ 12- 13% من المستطلَعين عن رضًى عالٍ عن الأداء.

ذاك يعني أنّه على الرغم من أنّ المستطلَعين غير مستعدّين للمشارَكة الشخصيّة في الاحتجاجات والتظاهر، وأنّ قسمًا كبيرًا منهم قالوا إنّ تصرُّف المجتمع العربيّ هو تصرُّف حكيم (31%)، وأنّه لم تكن ثمّة إمكانيّات أخرى للتصرُّف أمام المواطنين العرب (27%)، على الرغم من كلّ ذلك، مستوى رضاهم عن أداء القيادات والمؤسَّسات السياسيّة منخفض.

الجدول 17: درِّج من 1 إلى 5 مدى الرضى عن أداء القيادات السياسيّة العربيّة خلال الحرب، بحيث يشير الرقم 1 إلى "غير راضٍ بتاتًا"، و5 إلى "راضٍ جدًّا"

	الأحزاب العربيّة	أعضاء الكنيست العرب	لجنة المتابعة
1	%55	%52	%54
2	%13	%15	%14
3	%18	%16	%14
4	%6	%7	%6
5	%6	%6	%5

لا أعرف/ أرفض الإجابة	%2	%3	%7
المجموع	**%100**	**%100**	**%100**

في نهاية الاستطلاع، فحصنا تصوُّر المستطلَعين بشأن الدَّوْر الذي يمكن أن يقوم به المجتمع العربيّ تجاه غزّة بعد انتهاء الحرب. توضّح النتائج أنّ خيار المواطنين العرب يقتصر على تقديم الدعم الماليّ والإنسانيّ لِقطاع غزّة بالأساس (70%).

الجدول 18: ما هو بحسب رأيك دَوْر الفلسطينيّين في إسرائيل نحو قِطاع غزّة بعد الحرب؟

	العدد	النسبة
تقديم الدعم المادّيّ والإنسانيّ	351	%70
تقديم الدعم السياسيّ	16	%3
لا حاجة إلى القيام بأيّ شيء	122	%24
المجموع	**501**	**%100**

يمكن تفسير ذلك بأنّ المواطنين العرب يقدّرون أنّ الحالة السياسيّة، ودَوْرهم في القضيّة الفلسطينيّة، لن يتغيّرا تغيُّرًا جِدّيًّا بعد انتهاء الحرب، وأنّه على غرار أحداث سابقة سيقتصر دَوْر المجتمع العربيّ في الدعم الماليّ والإنسانيّ، وربّما في الدعم السياسيّ لحلول مقترَحة، لكن من خلال موقعهم كمواطنين في دولة إسرائيل، وبخاصّة في ظلّ تصاعد سياسات القمع والملاحَقة الإسرائيليّة على نحوٍ غير مسبوق.

خاتمة

هدفُ هذا الاستطلاعِ الإسهامُ في تقديم قراءة أوّليّة لمواقف المجتمع العربيّ بشأن الحرب على غزّة وإسقاطاتها الاقتصاديّة والسياسيّة، وعلى العلاقات بين المجتمع العربيّ ودولة إسرائيل والمجتمع اليهوديّ. تشير نتائج الاستطلاع أنّه في حين أبدت نتائج الاستطلاع وضوحًا في الأسئلة حول أثر الحرب الاقتصاديّ، وحول تعامل الحكومة الإسرائيليّة مع المواطنين العرب والعلاقات العربيّة

اليهوديّة بعد الحرب، عكست النتائج صعوبة في تقييم المجتمع العربيّ للحالة السياسيّة التي أنتجتها الحرب على غزّة، ونتائج الحرب على القضيّة الفلسطينيّة. لعلّ الأدوات المستخدَمة في تعامل الدولة مع المواطنين الفلسطينيّين حتّى الآن لا تسهم في وضوح هذه المواقف، كما أنّ الوضع السياسيّ الصعب بشكل غير مسبوق وسياسات التخويف والإخراس قد زادت من حالة الإرباك وربّما الخوف. في المقابل، وضّح الاستطلاع عدم رضى المستطلَعين عن أداء الأحزاب السياسيّة وأداء القيادات السياسيّة، وأداء لجنة المتابعة منذ بداية الحرب.

الأدوات والسياسات المعمول بها تجاه المواطنين العرب منذ بداية الحرب توضّح أنّ المؤسَّسة الإسرائيليّة تتعامل معهم في أوقات الأزمات الأمنيّة الحادّة على أنّهم أعداءٌ، أو -على الأقلّ- أعداءٌ محتملون. وهي أمور واضحة للمجتمع العربيّ. فقد شهدت فترة الحرب حالة تعطيل شبه تامّ للأدوات الديمقراطيّة الشكليّة المستعمَلة في إسرائيل على قلّتها وهامشيّتها، من بينها حرّيّة التعبير عن الرأي والحقّ في التظاهر ومعارضة الحرب، كما شهدت تصعيدًا خطيرًا في تعامل الدولة والمؤسَّسات الأمنيّة والمجتمع الإسرائيليّ تجاه المجتمع العربيّ. هذا السياق يؤثّر بطبيعة الحال على مواقف المجتمع العربيّ، وعلى ارتفاع منسوب الحذر في التعامل مع استطلاعات الرأي العامّ الهاتفيّة، وبذلك قد لا يعكس المواقفَ على نحوٍ دقيق في هذه المرحلة. من هنا تنبع أهمّيّة الاستمرار في إجراء استطلاعات رأي عامّ مستقبليّة بغية توضيح مواقف المجتمع العربيّ بعد أن تتّضح صورة نتائج الحرب على غزّة، وربّما تخفيف تأثير سياسات الإخراس على المواطنين العرب.

المراجع

ديتش، موران؛ وآخرون. (2023، 27 تشرين الثاني). نتائج استطلاع العلاقات اليهوديّة العربيّة. **مركز دراسات الأمن القوميّ**. [بالعبريّة]
https://www.inss.org.il/he/publication/spotlight-arab-jews

رودنتكسي، أريك. (2023، 3 كانون الأوّل). استطلاع متعمق لمواقف المجتمع العربيّ على خلفيّة الحرب بين إسرائيل وحماس. **برنامج كونراد ادنوار للتعاون اليهودي العربي**. [بالعبريّة]
https://dayan.org/he/content/6178

شحادة، امطانس. (2024، حزيران). مواطَنة هشّة- العنصريّة والقمع تجاه المواطنين العرب في إسرائيل إبّان الحرب على غزّة. دراسات عن إسرائيل- **مدى الكرمل**.
https://shorturl.at/uh4Mk

شعبة البحوث- بنك إسرائيل. (2023، 10 كانون الأوّل). تحليل خاص لشعبة البحوث: تأثير حرب "السيوف الحديدية" على الاهتمام بالعمل في المجتمع العربي. **بنك إسرائيل**.
https://shorturl.at/A4ND7

عنبتاوي، خالد. (2024). **هبّة في حالة عتبة: هبّة الكرامة (أيّار 2021) والفعل الانتفاضيّ-الشعبيّ لدى فلسطينيّي 1948 (مقاربة سوسيولوجيّة)**. حيفا: مدى الكرمل.

عوّاد، محمد. (2025). "فلسطينيّو الـ48 وصفقة التبادل بعد السابع من أكتوبر 2023: بين مواطَنة العدوّ والمواطَنة العارية". لدى: هوّاري، عرين؛ وزعبي، همّت (محرّرتان). **فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل.ص.ص. 99 - 134.

كيّال، أسرار. (2024، كانون الأول). انعكاس الإرث النفسيّ للمجتمع الفلسطينيّ في مناطق الـ48 في سلوكه الجمعيّ منذ بداية حرب الإبادة على غزّة. برنامج علم النّفس التحرّري- **مدى الكرمل**.
https://shorturl.at/mJJ30

ميعاري، سامي؛ وبراك، أرنون. (2023، كانون الأوّل). تأثير الحرب على غزّة على أنماط مشارَكة العرب في أسواق العمل. ورقة موقف 4، **المنتدى ا لاقتصادي العربيّ**. [بالعبريّة]
https://did.li/2lmmC

هرمان، تمار؛ وعناڤي، أور. (2023، 10 تشرين الثاني). استطلاع "سيوف حديديّة": رقم قياسي منذ 20 عامًا في الشعور بالانتماء للدولة بين اليهود والعرب على حد سواء. **المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة**. [بالعبريّة]
https://www.idi.org.il/articles/51391

وحدة السياسات- مدى الكرمل. (2023أ، تشرين الأوّل). تداعيات أوّليّة للحرب على غزّة. تقدير موقف. **مدى الكرمل**.
https://mada-research.org/post/15922

وحدة السياسات- مدى الكرمل. (2023ب، تشرين الثاني). الحرب على غزّة: سياسة الإخراس والترهيب والملاحَقة تجاه الفلسطينيّين في إسرائيل. تقدير موقف. **مدى الكرمل**.
https://mada-research.org/post/15931

وحدة السياسات- مدى الكرمل. (2024أ، كانون الثاني). أثر الحرب على قِطاع غزّة في الاقتصاد العربيّ داخل الخطّ الأخضر. تقدير موقف. **مدى الكرمل**.
https://mada-research.org/post/15949

وحدة السياسات- مدى الكرمل. (2024ب، شباط). الأحزاب العربيّة في الداخل بين مطرقة حرب الإبادة وسندان حكومة إسرائيل. تقدير موقف. **مدى الكرمل**.
https://mada-research.org/post/15956

قصّة "كوخ العم توم" والداخل الفلسطينيّ

حبيب مخّول

ملخَّص

في السابع من أكتوبر 2023، مع انطلاق عمليّة "طوفان الأقصى" وما تبعها من حرب إبادة إسرائيليّة في قِطاع غزّة، ساد صمت شبه تامّ في الداخل الفلسطينيّ (أراضي عام 1948). هذا الصمت بدا مُفارِقًا على نحوٍ لافت للانفجار الشعبيّ الذي شهده الفلسطينيّون في الداخل خلال هبّة الكرامة في أيّار 2021،[1] حين خرجوا إلى الشوارع رفضًا لمحاولات التهجير في حيّ الشيخ جرّاح وعدوان الاحتلال على القدس وغزّة. المفارقة الزمنيّة والسياقيّة هذه تطرح سؤالًا سياسيًّا-اجتماعيًّا مركزيًّا: لماذا امتنع جزء كبير من فلسطينيّي الداخل عن الاحتجاج أو حتّى التعبير العلنيّ عن التضامن مع غزّة في ذروة الإبادة الجماعيّة؟

هذا السؤال، الذي أُشبِع تحليلًا في المقالات الصحفيّة، يحظى بتفسيرات شتّى: من الخوف والقمع، إلى الانكفاء السياسيّ، إلى الرغبة في الحفاظ على فُتات الامتيازات الذي تمنحه دولة إسرائيل. لكن هذه الورقة تقترح قراءة إضافيّة تُسلِّط فيها الضوء على البنْية الاستعماريّة الاجتماعيّة–النفسيّة التي تُنتِج هذا الصمت وتعيد إنتاجه. اعتمادًا على مقاربة مالكوم إكس حول "عبد المنزل وعبد الحقل"، ومن خلال تحليل الاستعمار الاستيطانيّ بوصفه بنْية عنصريّة تُفرِّق بين السكّان الأصليّين داخل الحيّز الجغرافيّ الواحد وَفقًا للحسابات الاستعماريّة، تدّعي هذه الورقة أنّ إسرائيل تتّبع سياسة فرز واستيعاب مُمَأْسَسة تُنتِج ما يسمّى "فلسطينيّ المنزل وفلسطينيّ الحقل".

1. هبّة الكرامة: اندلعت في أيّار 2021، الموافق لشهر رمضان، خلال الاحتجاجات الفلسطينيّة ضدّ محاولات التهجير في حيّ الشيخ جرّاح بالقدس. تخلَّلَ الهبّةَ مهاجمةُ مستوطنين للفلسطينيّين في "المدن المختلطة"، ومحاولاتُ اقتحام للمسجد الأقصى المبارك، واعتداءاتٌ عنيفة من قِبل الشرطة وقوّات الأمن، وعدوانٌ على غزّة. للاستزادة، بالإمكان مراجعة: (عنبتاوي، 2024).

تسعى هذه الورقة إلى تقديم معالَجة نظريّة مفاهيميّة؛ فهي لا تستند إلى تجميع معطَيات ميدانيّة، بل تحاول تحليل الواقع الذي تبحثه استنادًا إلى النظريّات التي تعالج البنْية الاستعماريّة الاجتماعيّة النفسيّة كما يراها روس وفانون (Ross, 1982 & Fanon, 2008) كإطار نظريّ عامّ، ومن خلال اعتماد التعبير الاستعاريّ "عبيد المنزل وعبيد الحقل" لمالكوم إكس بوصفها عدسة تحليليّة تساعد في فَهْم اختلاف ردود الأفعال لدى فلسطينيّي الـ48 بعد السابع من أكتوبر 2023 مقارَنةً بهبّة عام 2021 ودون أن تدّعي التطابق إطلاقًا. تستخدم هذه الورقة الموادّ الصحفيّة واستطلاعات الرأي بوصفها شواهد لتوضيح قابليّة الإطار للتطبيق وتقدُّم ثنائيّة فلسطينيّ المنزل/ فلسطينيّ الحقل كـمتغيّرات تحليليّة احتماليّة مشروطة بسياقات وخلال لحظات بعينها، لا كتصنيفات هُويّاتيّة أو أحكام أخلاقيّة. لا تدّعي الورقة أنّ هذه المقارَبة تنطبق في جميع الأوضاع، بل تحاجج أنّ هذه المقارَبة تحتاج إلى شروط محدَّدة ليكون الإطار المفاهيميّ المقترَح ملائمًا. الشرط الأوّل هو وجود تفاوت بنيويّ في معاملة إسرائيل للفلسطينيّين داخل نفس الحيّز الجغرافيّ؛ أي إنّ الفلسطينيّين داخل مناطق الـ48 (لاحقًا: فلسطينيّو/ فلسطينيّي الـ48)، في الحدث العينيّ والظرف السياسيّ قيد البحث، يعامَلون بطريقة مختلفة عن الفلسطينيّين في المناطق المحتلّة عام 1967. الشرط الثاني هو شدّة التهديد الذي تتعرّض له الدولة الاستعماريّة؛ ففي لحظات تدرك فيها إسرائيل أنّ وجودها مهدَّد (مثلما في 2023/10/7)، يزداد تمسّك بعض فلسطينيّي الداخل بما تبقّى لديهم من فُتات المواطَنة، ويفضّلون الصمت خوفًا من الخسارة. أمّا في لحظات هي أقلّ تهديدًا (مثلما في أحداث الشيخ جرّاح وهبّة الكرامة عام 2021)، فقد يكون المجال أوسع للاحتجاج والمشارَكة. تكثيف هذه الشروط يعيد تشكيل "قيمة" المواطَنة إدراكيًّا ويدفع نحو أنماط كُمون/ صمت- وهي سلوكيّات تقترح الورقة أن تكون موضوعًا لأبحاث ميدانيّة في المستقبل.

المقدّمة

"مش عاجبك؟ لكان روح عغزّة!"

"مين هادا؟ هادا ضفّاوي!"

أمثال هاتَيْن العبارتَيْن هي التي دفعتني لكتابة هذه الورقة؛ وكنت قد بدأت أسمعها منذ الصغر،[2] لكنّني لم أفهمها قَطّ. تحمل هذه العبارات استعلاءً وتهديدًا، وفي ذات الوقت تفترض أنّ وضع الفلسطينيّ في الداخل أفضل وأحسن بكثير من أوضاع الفلسطينيّين في الضفّة وغزّة، وأنّ تغيُّر أوضاع فلسطينيّي الداخل قد يكون في اتّجاه واحد فقط، إلى التدهور، إذ لا يمكن له أن يتحسّن. وإن حمل أيّ تغيير، فهو بالضرورة نحو الأسوأ. ولذا عليه أن يرضى بالقليل من الحظّ الذي "أنعمت به" عليه إسرائيل؛ إذ إنّ الأوضاع التي يعيشها فلسطينيّو الـ48 (مَهْما كانت مجحفة) تظلّ مشروطة بقبولهم للأمر الواقع، وإلّا فإنّها قد تتدهور وتدفع بهم إلى ما هو أسوأ. أتساءل: لماذا؟ لماذا كانت هذه هي المقارنة؟ لماذا يرضى فلسطينيّو الـ48 بهذا الخيار؟

لِـمَ يجلس فلسطينيّو الـ48 ساكتين، وغزّة تعيش لحظة إبادة؟ لِـمَ يجلسون وكأنّهم متفرّجون على مسرح التاريخ؟ لهذا السؤال أجوبة كثيرة. الخوف، والرعب، والقلق، وعجز القيادة، وتفكيك الوحدة، وعدم الرغبة في خسارة امتيازات مدنيّة توفّرها له المواطَنة، كلّها إجابات ممكنة وقد تكون محقّة ولها وزنها. لكن في المقالة سوف أقترح مبنًى تحليليًّا يوضّح جانبًا إضافيًّا لهذه الظاهرة. هذا المبنى يرى في معاملة إسرائيل المختلفة للفلسطينيّين في طرفَيِ الخطّ الأخضر ومن ضمنها المواطَنة، كأحد العوامل التي قد تؤثّر على صمت الكثيرين من فلسطينيّي الـ48 تجاه ما تقوم به إسرائيل في غزّة.

في البداية ترصد الورقة بعض الإجابات التي طُرِحت في الصحافة لسؤالنا أعلاه، ومن ثَمّ تتناول الأدبيّات ذات المنظور النقديّ والمناهض للاستعمار التي تعالج تعامل الاستعمار مع السكّان الأصليّين ومن ضمنها الأدبيّات التي انشغلت بسلوك الواقعين تحت الاستعمار بعامّة، والفلسطينيّين على وجه الخصوص.

2. الباحث فلسطينيّ من مناطق الـ48.

عند الخوض في التفرقة والعنصريّة الاستعماريّة الإسرائيليّة، ستقوم الورقة بتحليل الفلسطينيّ من منظور علم النفس الاجتماعيّ، عبر تطبيق مفهوم "عبيد المنزل" مقابل "عبيد الحقل"، على نحوٍ ما جاءت في تحليل مالكوم إكس لرواية "كوخ العمّ توم"، على الحالة الفلسطينيّة. بغيةَ المقارنة، تقوم الورقة بمراجعة سلوك فلسطينيّي الـ48 في "هبّة الكرامة" في محاولة لفَهْم الفارق الشاسع بين ردّة فعلهم في الحرب الحاليّة مقابل ردّة فعلهم خلال هبّة الكرامة.

ستقوم الورقة بمحاولة فَهْم سيكولوجيّةِ مَن أسمّيه "الفلسطينيّ المتوسّط"[3] داخل مناطق الـ48، مستعينًا ببعض الإحصاءات لتكون دليلًا على هذه القراءة. في النهاية، تدّعي الورقة أنّ الفروق الموهومة بين الفلسطينيّين على شقَّيِ الخطّ الأخضر ليست كبيرة كما يحاول المستعمِر أن يقنعنا. وتحاول الورقة الاستثمار في المبنى المطروح محاوِلةً فتح النقاش لتحدّي هذه البنى وما تنتجه للإسهام في إنتاج فاعليّة فلسطينيّة تحاول التحرُّر من هذا الاستعمار.

تسعى هذه المقالة إلى الإسهام في قراءة حقل دراسة العنصريّة الاستعماريّة، وعلى وجه التحديد في الحالات التي تُنتِج فيها البنْيةُ الاستعماريّة تراتُبيّاتٍ داخل نفس البنْية كما في الحالة الفلسطينيّة ذات الجغرافيّات السياسيّة المختلفة.

لماذا هنالك هدوء في "الجبهة الداخليّة"؟

مباشرة بعد السابع من أكتوبر 2023، تصاعد خطاب التخويف الإسرائيليّ تجاه فلسطينيّي الـ48؛ فقد تحدّث نتنياهو منذ اليوم الأوّل عن "الجبهة الرابعة"، معتبرًا أنّ فلسطينيّي الـ48 جزء من الحرب إلى جانب الجنوب والضفّة والشمال (شحادة، 2024). بِنْ چڤـير لوّح بعودة "حارس الأسوار 2"، في إشارة منه إلى هبّة الكرامة في أيّار 2021، فيما حذّر نير بركات (وزير الاقتصاد الإسرائيليّ) من قيام فلسطينيّي الـ48 بالهجوم على مدن يهوديّة، ولذا شجّع على تسليح فِرَق الحراسة. فوَفقًا لبركات، إذا تحرّك 1% فقط من فلسطينيّي الداخل وتسلّحوا، فمعنى ذلك وجود أكثر من 20 ألف مقاتل في قلب إسرائيل (أرلوزوروڤ، 2023). لكن هذه المخاوف لم تتحقّق. على العكس من ذلك، بدا الداخل الفلسطينيّ هادئًا جدًّا، الأمر الذي شغل الصحافة الإسرائيليّة وأثار موجة تفسيرات متباينة.

3. المقصود هو الفلسطينيّ غير المسيّس، يقطن في بلدة/ مدينة ذات غالبيّة فلسطينيّة في أراضي الـ48، ولغته الأمّ هي العربيّة.

عيران زِنْــچِـر (2023) رأى أنّ هذا الهدوء يعكس خوف الفلسطينيّين من حدوث نكبة ثانية، بالتوازي مع خوف اليهود من حدوث محرقة ثانية. وعَزَا ذلك إلى عنف الشرطة منذ الأيّام الأولى، وإلى معرفة الفلسطينيّين باللغة العبريّة ومتابعتهم الإعلام العبريّ، الأمر الذي جعلهم "شهودًا" على أفعال مقاتلي حماس عوضًا عن أن ينجرّوا وراء خطابها. سامي سموحا ذهب في الاتّجاه نفسه، معتبرًا أنّ فلسطينيّي الـ48 يخشَوْن خسارة الخدمات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، وأنّ شبح نكبة جديدة يظلّ ماثلًا أمامهم. في مقابل هذه القراءات الأمنيّة، ظهرت أصوات تركّز على دَوْر القيادة العربيّة في ضبط الشارع. فقد صرّح أمير بشارات، مدير اللجنة القطْريّة لرؤساء السلطات المحلّيّة العربيّة، أنّ قتل مواطنين فلسطينيّين على أيدي مقاتلي حماس جعله يشعر بـِ "شراكة قَدَر"، وأنّ هذا القرب العاطفيّ من الإسرائيليّين استُثْمِر سياسيًّا في إقامة مقرّ طوارئ مشترَك مع الحكومة الإسرائيليّة (كَلْكَلِسْت، 2023). وأكّدت هنادي بصول (مديرة مركز عربيّ- يهوديّ في اللدّ) أنّ القيادة الكلاسيكيّة أمسكت هذه المرّة بزمام المبادرة، خلافًا لِما حصل عام 2021 حين جاءت القيادة من الشارع، وأنّ الهدف الأساسيّ كان احتواء الوضع وتعزيز الاستقرار (أبو لبن، 2024). إلى جانب ذلك، اعتبرت الصحفيّة الإسرائيليّة أرلوزوروف (2023) أنّ بعض أسباب الصمت مَرَدُّها إلى فقدان حماس لشرعيّتها، وتزايد تقبُّل الفلسطينيّين في الداخل لفكرة أنّ إسرائيل باقية ولن تزول.

أمّا في الصِّحافة الفلسطينيّة، فقد برزت أصوات أقلّ وصفيّة وأكثر نقديّة. حنين زعبي (2024أ) رأت أنّ الصمت ليس تعبيرًا عن "مسؤوليّة" بل هو انعكاس للخوف من الساديّة الإسرائيليّة ومن العقاب الجماعيّ، وأنّ القيادة في الداخل تسعى إلى فكّ الارتباط مع غزّة لتجنُّب دفع ثمن الانتماء (زعبي، 2024ب). علي مواسي (2024) قدّم تحليلًا بنيويًّا، عازيًا الكُمون إلى عسكَرَة الحياة، وضعف المؤسَّسات السياسيّة والمدنيّة، وتفشّي الجريمة المنظَّمة، وغياب المشروع السياسيّ، وسياسات العصا والجزرة. خالد عنبتاوي (2024) ركّز من جهته على فشل القيادة وانعدام المشروع التحرُّريّ، معتبرًا أنّ هذا الفراغ هو ما يفسّر الاستكانة الحاليّة مقارَنةً بالتحرُّك الواسع في هبّة الكرامة.

من خلال هذا الاستعراض، يبدو أنّ تفسيرات الصمت في الداخل الفلسطينيّ بعد السابع من أكتوبر 2023 تراوحت بين الخوف من القمع والتهديد الأمنيّ، وضبط القيادة للشارع، ومحاولات التضامن مع الإسرائيليّين أو الاندماج في مؤسَّسات

الدولة، إضافة إلى العوامل البنيويّة المتعلّقة بضعف التنظيم وغياب المشروع السياسيّ. في حين أنّ لجميع التفسيرات التي ذُكِرت سابقًا دَوْرًا في تفسير هذه الظاهرة، أودّ في هذه المقالة طرح رؤية مختلفة قد تسهم في إضافة تفسيرات لهذا الصمت. تقترح هذه الورقة مقاربة بديلة تنظر إلى الصمت على أنّه نتاج لبنْية استعماريّة-عنصريّة تُنتِج تراتُبيّات داخليّة، وهو ما سأحلّله لاحقًا عبْر التعبير الاستعاريّ "فلسطينيّ المنزل/ فلسطينيّ الحقل".

العنصريّة والاستعمار

العنصريّة كانت وما زالت جزءًا لا يتجزّأ من الاستعمار. روبرت روس في مقدّمة كتابه يتطرّق إلى علاقة العنصريّة بالاستعمار، لافتًا أنّها ليست أحاديّة الاتّجاه (Ross, 1982) . يرى روس أنّ العنصريّة -خاصّةً في أوروبا- تطوّرت مع توسُّع رقعة الاستعمار واستغلال الأوروبـيّين لموارد الشعوب الأخرى، وأنّها (العنصريّة) استُخدِمت كأداة وذريعة لشَرْعَنة الاستعمار، وأنّ الاستعمار اعتمد على "فوقيّة" العِرْق المستعمِر كآليّة مُهِمّة للحفاظ على الاستعمار. من ناحية أخرى، يرى روس أنّه لا يكفي الحديث عن الفوقيّة، كوسيلة لشَرْعنة الرغبة في الربح فقط، بل يضيف قائلًا إنّها في الوقت ذاته دافعٌ للاستعمار ونتيجة تولّدت منه. يؤكّد روس أيضًا أنّ الكثير من الشعوب المستعمَرة تبنّتْ -نتيجةً للاستعمار- عنصريّةَ المستعمِر نحوها، وكثيرًا من التقسيمات والأفكار التي أتى بها (من ذلك -على سبيل المثال- تقسيم الناس إلى "قبائل" في أفريقيا أو تقسيم سكّان الهند إلى "طبقات") (Ross, 1982, P. 3).

وفي السياق ذاته، يطرح جوليان چـو في بحثه إطارًا مهمًّا لتحليل العنصريّة، ويصنّفها على أنّها ظاهرة اجتماعيّة بنيويّة داخل الاستعمار في القرن العشرين (Go, 2004)، ويرى أنّ الاستعمار حرَمَ الشعوبَ المستعمَرة الحقوقَ السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة متذرّعًا بكونها "منحطّة عِرْقيًّا". لم يكتفِ چـو بهذا التصنيف العامّ بشأن مبنى الاستعمار والعنصريّة، بل أضاف أنّ عنصريّة الاستعمار ليست واحدة، أي إنّ لها تشكُّلات مختلفة في سياقات تاريخيّة وجغرافيّة مختلفة: عنصريّة القرن السابع عشر مقابل عنصريّة القرن التاسع عشر، أو عنصريّة إمبراطوريّة كولونياليّة معيَّنة مقابل أخرى، مدّعيًا أنّه ليس ثمّة دافع واحد للعنصريّة، وهو ما تتولَّدُ عنه فروقٌ في ممارساتها. فقد وجد في بحثه بشأن

تعامُل أمريكا مع مستعمَريها سكّان المحيط الهادئ في چوام (Guam) ما هو مختلِف عن تعاملها الخاصّ بمستعمَريها في سامْوَا الأمريكيّة (American Samoa) والفلپـين؛ وكلّها مناطق استعمرتها أمريكا في فترة العامَيْن 1888 و1889. فبينما قام الأمريكيّون بالنظر إلى الفلپـينيّين باحتقار ورغبوا بتحويلهم إلى أمريكيّين، نظرت مؤسَّسات الحكم الاستعماريّ إلى سكّان الجزيرتَيْن چوام وسامْوَا بإعجابٍ ما؛ ولذا كان هدف الحكم الأمريكيّ في هاتَيْن الجزيرتَيْن هو المحافَظة قَدْر الإمكان على الوضع القائم لديهما.

وكما أنّ الاستعمار يمارس تمايزًا في سياساته البنيويّة، فإنّه يترك أثرًا نفسيًّا عميقًا على المستعمَرين. هنا تتقاطع البنْية المادّيّة مع البنْية النفسيّة-الثقافيّة، لتنعكس أحيانًا في استبطان المستعمَر لدونيّته مقابل المستعمِر. وَفقًا لفرييري، المستعمَر سينظر إلى المستعمِر على أنّه العالِمُ وذو المعرفة، وسيفترض جهلَهُ هو، أي إنّه بذلك يتقبّل فوقيّة المستعمِر المعرفيّة (Friere, 2005)، وهو ما تؤكّده كذلك ليلى أبو لغد بادّعائها أنّ التصوُّرات الحداثيّة للعائلة والنساء التي هَيْمَنَتْ في دول الشرق الأوسط التي خضعت للاستعمار، هذه التصوُّرات استبطنت خطابات الاستعمار بشأنها فأخضعت القِيَم الثقافيّة والدينيّة في المجتمعات الإسلاميّة لاختبار الحداثة، بوصفه المعيار الوحيد لتحديد شرعيّة هذه القِيَم وطبيعتها (خنفير، 2024). يظهر هذا الأثر النفسيّ على نحوٍ واضح في التعبير الاستعاريّ "العمّ توم" التي تكشف عن آليّات استدخال القمع والبحث عن البقاء عبْر التشبُّه بالسيّد.

يسهم هذا التشكُّل البنيويّ للعنصريّة الاستعماريّة في خلق وعيٍ مشوَّهٍ للموقع والهُويّة والانتماء لدى المستعمَر، حيث يتطرّق الكثير من المنظّرين الأكاديميّين إلى العلاقة النفسيّة بين المضطهِد والمضطهَد؛ إذ من هول الاضطهاد نرى المضطهَد يحاول أن يتقرّب من مضطهِده وأن يقلّده، وإن كان ذلك باضطهادِ مَن هم مثله (Friere, 2005). يدّعي فانون أنّ سيطرة المستعمِر على السكّان الأصليّين ليست سياسيّة أو اقتصاديّة أو عسكـرية فحسـب، بل هي نفسيّة كذلك (Berger and Jabr, 2021)(Fanon, 2008) ؛ أي إنّ استعباد الأشخاص لم يكن جسديًّا فحسْب، بل إنّ الأمر تجاوز ذلك إلى استعباد تاريخهم وكرامتهم ووكالتهم أي نفوسهم. استنادًا إلى فانون، الاستعمار يشنّ معركة يوميّة على وعيِ مَن يستعمرهم، وذلك إمّا عن طريق الإقناع، وإمّا بالتأثير على الرأي العامّ، أو

البيروقراطيّة والدعاية (Berger and Jabr, 2021). على سبيل المثال، يتحدّث فانون عن توق الرجل الأسود أن يتحوّل فجأة إلى رجل أبيض، ذلك التحوُّل الذي لا يحظى باعتراف إلّا من خلال العلاقة مع امرأة بيضاء البشرة (Fanon, 2008, P. 45). وتدّعي ليلى أحمد (Ahmed, 2011) أنّ التفوُّق الأوروبـيّ يشكّل افتراضًا أساسيًّا ونقطة انطلاق في نصوص بعض المفكّرين العرب الذي يرَوْن في الغرب نموذجًا يُحتذى به، مضيفة أنّ جذور الشعور بالدونيّة والعجز أمام الغرب نمت مع غزو ناپـليون لمصر (1798– 1801) وعجز الإمبراطوريّة العثمانيّة عن هزيمته.

استنادًا إلى هذا، يصبح من المفيد اللجوء إلى قصّة "كوخ العم توم" أداةً تحليليّةً لفَهْم بنْية الاستعمار الإسرائيليّ الاجتماعيّة وأثرها على سلوكيّات وفَهْم الفلسطينيّين في الداخل.

قصّة "كوخ العم توم"

كُتِبت رواية "كوخ العمّ توم" في فترة كانت فيها العبوديّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة لا زالت قانونيّة. كتبتها هارييت بِيتْشِرْ سْتُو ونُشِرت عام 1852، (Beecher Stowe, 2024, P. V). الشخصيّة المركزيّة في القصّة هي العمّ توم، وهو عبد منزل في بيت سيّده. عندما حاول عدد من العبيد الذين يعملون في المزرعة الهرب، عرضوا ذلك على توم أيضًا. سبب توجُّههم لتوم أنّه ضحيّة مثلهم؛ إذ إنّ سيّده سيبيعه ويسلخه عن امرأته وأولاده (Beecher Stowe, 2024, P. 50). بَيْدَ أنّ توم رفض الهرب. وكان مصيره أن يعيش في العبوديّة إلى أن مات على يدَيْ سيّد طاغٍ (Beecher Stowe, 2024, Pp. 522- 523).

يُستخدم التعبير "العمّ توم" إهانةً لمن هو ذو أصول أفريقيّة ويخضع لأناس بِيض أو متواطئ مع الاضطهاد الذي يمارسونه، أو إهانةً لأيّ مستعمَر يذوت دونيّته ويتماهى مع المستعمِر (Meriam-Webster, [n.d]).

عبد المنزل وعبد الحقل

تناول مالكوم إكس التعبير "العمّ توم" في خطاب شهير له في جامعة ميشيـچان عام 1963، يقول فيه إنّ هنالك نوعين من العبيد: "عبد الحقل وعبد المنزل". العمّ توم هو مثال لعبد المنزل، الذي يعيش في منزل سيّده (في القبو أو في العلّيّة)

ويعيش على ما يتكرّم به عليه سيّده، يرتدي ثيابًا تنازَلَ عنها سيّده، ويأكل بواقي الطعام من مائدته. يضيف إكس أنّ عبد المنزل يَعْرف سيّده كما يَعْرف نفسه، ويشارك سيّده بألمه ووجعه ومرضه. ويدّعي مالكوم إكس أنّه عند احتراق منزل السيّد يعمل عبد المنزل على إطفاء المنزل أكثر ممّا يعمل سيّده (X, 1963). يتابع خطابه قائلًا: عندما يحثّ أحدهم عبد المنزل على الهروب من سيّده، يرفض العبد بقوله: أهرب إلى أين؟ ماذا أستطيع أن أفعل من دون السيّد؟

في كتاب فانون "بشرات سوداء، أقنعة بيضاء" (Fanon, 2008)، يجادل بأنّ الرجل الأسود يطمح إلى أن يصبح أبيض، ويقدّم اللغة بوصفها مثالًا أساسيًّا على ذلك. فاللغة بالنسبة للمستعمَر وسيلة لإثبات انتمائه للمستعمِر؛ كلّما أتقنها ازداد قربه منه. تنبع قوّة اللغة هنا من عقدة النقص الناتجة عن تدمير الثقافة الأصليّة، بحيث تصبح لغة المستعمِر مفتاحًا للترقّي الاجتماعيّ والاقتصاديّ. يوضّح فانون أنّ الضبّاط المحلّيّين الذين خدموا في جيوش الاستعمار استُخدِموا أساسًا كـَ "مترجِمين" للمستعمِر، وأنّ التمييز بين الشعوب المستعمَرة كان يقاس أحيانًا بطريقة لفظهم للّغة الأجنبيّة. بِذا تصبح اللغة أداة لخلق هرميّة جديدة: من يتقن لغة المستعمِر يُعتبَر "أكثر تحضُّرًا" ويحظى بفرص أفضل للنجاح.

من العمّ توم إلى فلسطين: بناء الإطار المفاهيميّ

يدّعي فوكو أنّه كي ينتمي عبد المنزل إلى مجتمع سيّده عليه الانسلاخ أو الانقطاع عن تاريخه وإرثه (Foucault, 1988). ويضيف فوكو أنّ الإنسان يفعل ذلك كي يتفادى التعامل والمقارنة مع السيّد؛ وذلك لأنّ جهل السيّد بالتجارب التي يمرّ بها شعبه تثير الجنون.

نجد هذه المفاهيم تنعكس كذلك في الأبحاث التي تعاملت مع هذه المواضيع في الحالة الفلسطينيّة. ففي بحث أَجْرتْه في العام 2018 لمى خوري[4] تقوم باستخدام التعبير "فلسطينيّ البيت" ("The House Palestinian") (Khouri, 2018) واصفةً به تجربتها الخاصّة كمهاجرة فلسطينيّة هاجرت من الأردن إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة. استفزّ انتخاب ترامـپ للمرّة الأولى في عام 2016 تساؤلات

4. معالجة ومحللة نفسية فلسطينية مقيمة في الولايات المتحدة الأمريكية، تحمل شهادة الدكتوراة في التحليل النفسي وتمارس التحليل النفسي العابر للحضارات.

خوري عن هُويّتها وتصرُّفها. هذه التساؤلات جعلت خوري تتأمّل في مفهوم "فلسطينيّ المنزل". تُعرِّف خوري "فلسطينيّ المنزل" من عدّة نواحٍ. أوّلًا، هو واعٍ لهُويّته وللنضال الفلسطينيّ القائم والاحتلال والقمع اليوميَّيْن اللذَيْن يواجههما من الاحتلال الإسرائيليّ، لكنّه يعلن أنْ ليس لديه أيّة ضغينة أو غضب تجاه سكّان الغرب من حوله (حيث يقطن في الشتات) (Khouri, 2018). ثانيًا، يتحوّل الفلسطينيّ، بحسب تجربتها، إلى فلسطينيّ المنزل عند تقبُّله العنصريّة ضدّ الفلسطينيّين. فهي من تجربتها الخاصّة حكمت على شعبها وأساءت فَهْمه وأقنعت نفسها بأنّها ليست جزءًا منه (Khouri, 2018). تقبُّلها فكرةَ أنّه لا يمكن للفلسطينيّ أن يحلم بالأمان وتقرير المصير ولذلك هي ليست جزءًا من شعبها جعلها تفهم أنّها أصبحت "فلسطينيّة منزل".

ترى خوري أنّ هذه الظاهرة تعكس صدمة مجتمعيّة؛ فهي إستراتيجيّة لخداع الذات في محاولة للبقاء. فواقع الاستعمار يولّد حزنًا وغضبًا شديدَيْن، لكن التعبير عنهما قد يدمّر الفرد، فيستبدلهما بكراهيَة الذات. هكذا يصبح "فلسطينيّ المنزل" أسيرَ ارتباك شعوريّ دائم، وتتحوّل هذه الحالة إلى جزء من حياته اليوميّة. وتضيف خوري أنّ قبول هذا الموقع هو في جوهره خدعة نفسيّة، إذ تتمزّق الهُويّة الأصليّة ويملأها حضور الهُويّة المستعمَرة (Khouri, 2018).

بحسب رأيها، تنتقل هذه الظاهرة للأجيال اللاحقة من خلال صمت الأهل وعدم تعبيرهم عن الحزن. وترى خوري أنّ نقل هذه الصدمة يكون عن طريق التصرُّفات لا الكلمات (Khouri, 2018). وعليه، وبحسب هذه المقاربة، يرى فلسطينيّ المنزل أنّه من المريح أن يقلّد سيّده في فكره ونهجه وأن يتظاهر بأنّه سالم داخليًّا. فكلّ محاولات عبد المنزل للبقاء تتلخّص بتفادي الغضب والجنون، لأنّه مميت. فإذا غضب وثار، فله عقاب محتَّم. لذا فغريزة البقاء تحتّم عليه تقبُّل هذه المعاملة من قِبل سيّده وعدم التعبير عن رأيه بها. فإذًا، الرغبة في تقليد السيّد هي أيضًا جزء من الاستعمار، استعمار الفكر والروح (Mcphail, 1981). الاستعمار هو من يزوّدنا بالصور التي يجب أن نرى بها نفسنا وغيرنا من خلالها (Butler, 2009). ومن هنا يبدأ فلسطينيّ المنزل بلبس قناعٍ مقلِّدًا مستعمِرَهُ (لغته وطرقه ومعتقداته) منفّذًا تعليماته. ليس بذلك فحسْب، بل كذلك من خلال كبح غضبه وحزنه، وبتسليم نفسه لخدمة سيّده. ويقوم فلسطينيّ المنزل بالقول لسيّده ما يرغب أن يسمعه (السيّد).

تنعكس شخصيّة "عبد المنزل" كذلك في علاقته مع "عبد الحقل"؛ إذ ينشغل الأوّل في استخدام معرفته وعلاقته مع السيّد لكبح عبد الحقل وقول ما يرغب السيّد في سماعه. هو يقول لعبد الحقل ما يطلبه سيّده ليرضى عنه ويكمل ويضمن بقاءه.

الحالة الفلسطينيّة

يشكّل المبنى التحليليّ الذي اقترحه جوليان چو حول العنصريّة الاستعماريّة المتغيّرة مدخلًا مهمًّا لفَهْم الحالة الفلسطينيّة والبنْية الاجتماعيّة للعنصريّة تحت الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ. وكما في حالة الاستعمار الأميركيّ لشعوب المحيط الهادئ، فإنّ إسرائيل داخل الجغرافيا الواحدة (فلسطين التاريخيّة)، وفي اللحظة الزمنيّة نفسها، تتعامل مع السكّان الأصلانيّين (الفلسطينيّين) وَفق منطقٍ تمايُزيّ لا يراهم جماعة قوميّة واحدة، بل يُعيد فرزهم بحسب الموقع الجغرافيّ والحسابات الاستعماريّة.

تتّضح ملامح هذا التفاوت البنيويّ بصورة خاصّة بعد عام 1967. فقد حصل فلسطينيّو الـ48 على الجنسيّة الإسرائيليّة منذ عام 1952، بما في ذلك حقّ التصويت والترشُّح للكنيست، كما رُفِعت القيود على حرّيّة حركتهم مع انتهاء الحكم العسكريّ في نهاية عام 1966 (صبّاغ، 1990، ص 33– 36).[5]

في المقابل، لم يُمنح فلسطينيّو الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة الجنسيّةَ الإسرائيليّة بعد الاحتلال، وظلّوا محرومين من الحقوق السياسيّة وحرّيّة الحركة. أمّا فلسطينيّو القدس، فمُنِحوا إقامة إسرائيليّة تخوّلهم الحصول على خدمات بلديّة وحقّ التصويت في انتخابات بلديّة القدس، لكنّهم ظلّوا ممنوعين من المشارَكة في

5. رغم حصول فلسطينيّي الـ48 على المواطَنة الإسرائيليّة، عرّف العديد من الباحثين تلك المواطَنة بأنّها ثانويّة أو عرَضيّة أو استعماريّة، وأشاروا أنّهم يعانون من قوانين ومن سياسات عنصريّة استعماريّة تصادر أرضهم وتخنق حيّزهم وتسيطر على شؤونهم الثقافيّة وتلاحق عملهم السياسيّ لا يتّسع هذا المقال للتعمُّق فيها. في هذا الصدد، انظر: (Bishara, 2017) (Rouhana & Sabbagh-Khoury, 2014). ورغم التفاوت الكبير في الأوضاع الاقتصاديّة والحالة المدنيّة لفلسطينيّي الـ48، بكونهم مواطنين في دولة إسرائيل، في عام 2023، قبل السابع من أكتوبر 2023، قُتِل 234 فلسطينيًّا في الضفّة على أيدي الجيش والمستوطنين (Doctors without borders, 2023)، بينما قُتِل في العام نفسه حتّى آخر شهر تشرين الأوّل في الداخل 213 الكثير منهم قُتِلوا بأيدي عصابات إجرام تنتشر في المجتمع في ظلّ تقاعس الشرطة الإسرائيليّة أمامهم (مركز أمان، 2023).

البرلمان. هذه الفوارق تشير إلى أنّ العنصريّة الاستعماريّة في الحالة الإسرائيليّة ليست مجرّد تفوُّق عِرْقيّ/ دينيّ ثابت، بل هي بنْية متغيّرة تتكيّف مع اعتبارات السيطرة وتوازنات المشروع الصهيونيّ.

يرتبط هذا التفاوت ارتباطًا وثيقًا بالهاجس المركزيّ للمشروع الصهيونيّ، وهو المعضلة الديمـچرافيّة. كما يبيّن إيلان پاپـه (التطهير العرْقيّ في فلسطين)، الصهيونيّة منذ القرن التاسع عشر اعتبرت وجود الفلسطينيّين العقبة الأكبر أمام تحقيق مشروعها (پـاپـه، 2007، ص. 278– 279). ويستشهد پـاپـه بقولٍ منسوب إلى داڤيد بن چـوريون مُفادُهُ أنّ وجود الفلسطينيّين في إسرائيل بنسبة 20% يمثّل مشكلة، وإذا بلغت نسبتهم 40% ستكون نهاية الدولة. ورغم أنّ الفلسطينيّين شكّلوا نحو 20% من السكّان عام 1949، حاولت إسرائيل تقليص هذه النسبة عبْر التهجير وهدم البيوت ومنع "المتسلّلين" من العودة (صبّاغ، 1990، ص 23– 24). لكن هذه السياسة فشلت؛ إذ يعترف بلموند، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربيّة ومنسّق أعمال الحكم العسكريّ، بأنّ آلاف الفلسطينيّين طُرِدوا، لكن عشرات الآلاف بقُوا وازداد عددهم باستمرار (صبّاغ، 1990، ص 27).

إزاء هذا الفشل، اعتمدت إسرائيل مقارَبة پراچماتيّة ابتغت استغلال بقاء الفلسطينيّين عوضًا عن التخلّص منهم. فقد جرى دمجُهم في سوق العمل كأيدٍ عاملة رخيصة (صبّاغ، 1990، ص 34)، والاعتمادُ على الزراعة الفلسطينيّة لتأمين احتياجاتها الغذائيّة (قعدان، 2025). في الوقت نفسه، وظّفت الدولة وجود الفلسطينيّين في الداخل كأداة دبلوماسيّة لإبراز صورة إسرائيل على أنّها "ديمقراطيّة تحترم حقوق الأقلّيّات"، ولإنكار وصفها بدولة فصل عنصريّ. بَيْدَ أنّ المعضلة الديمـچرافيّة عادت لتفرض نفسها بعد عام 1967: فلو منحت إسرائيل الجنسيّة للفلسطينيّين في الضفّة وغزّة كما فعلت مع فلسطينيّي الـ48، لفقدت أغلبيّتَها اليهوديّة. ومع تساوي أعداد الفلسطينيّين واليهود تقريبًا بحلول عام 2022، تحقَّقَ تحذيرُ بِنْ چوريون القديم. وللتعامل مع هذا الواقع، فرضت إسرائيل نظامَ فصل عنصريّ واحتلالًا مُوازيًا للتوسُّع الاستيطانيّ والتهجير.

بِذا يصبح الوجود الفلسطينيّ الفعليّ على الأرض تحدّيًا مستمرًّا للنظام الإسرائيليّ، واجهته الدولة عبْر خليط من الـپـراچـماتيّة الاقتصاديّة والديكور الديمقراطيّ، مستخدِمة درجات متفاوتة من التمييز العنصريّ تجاه الفلسطينيّين في فلسطين

التاريخيّة. وبِذا، لا تكون عنصريّة المشروع الصهيونيّ مجرّد خطاب شَرْعَنة للاستيطان، بل تَكُون جزءًا بنيويًّا من منظومة اجتماعيّة استعماريّة تُنتِج واقعًا مركّبًا ومتغيّرًا، وتعيد تشكيل نفسها باستمرار.

"فلسطينيّو المنزل" وَ"فلسطينيّو الحقل" في فلسطين التاريخيّة

على الرغم من أنّ خوري طوّرت مفهوم "فلسطينيّ المنزل" من تجربتها في الشتات، ومن خلال تحليلها الذاتيّ وتجارب مَن عالجتهم، فإنّ هذا المفهوم لا يقتصر على حالة الفلسطينيّ خارج الوطن. بل بالإمكان القول إنّه يتناسب كذلك مع الحالة الفلسطينيّة في فلسطين التاريخيّة. فكما أوضح مالكوم إكس، تتطلّب حالة عبد المنزل شرطَيْن أساسيَّيْن: وجود علاقة واضحة بين السيّد والعبد، أي بين المستعمِر والمستعمَر، ووجود تمايز بين عبد المنزل وعبد الحقل في وعي العبيد أنفسهم. هذان الشرطان يتوافران منذ عام 1967، بعد احتلال الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة ورفع الحكم العسكريّ عن فلسطينيّي الـ48. في هذا الصدد، في الإمكان النظر إلى فلسطينيّي الداخل باعتبارهم أقرب إلى "فلسطينيّي المنزل" الذين "يسكنون مع سيّدهم"، في حين يُنظَر إلى سكّان الضفّة وغزّة على أنّهم "فلسطينيّو الحقل" الواقعون خارج هذه الجدران.

ويشكّل التفاوت في معاملة إسرائيل لفلسطينيّي الـ48 وفلسطينيّي الـ67 الأساسَ لتطبيق مقارَبة فلسطينيّ المنزل/ فلسطينيّ الحقل. ويجدر التأكيد ثانيةً أنّ هذه المقارَبة تُستخدم هنا بوصفها عدسة تحليليّة مشروطة بالسياق، لا بوصفها تصنيفًا جوهريًّا أو ثابتًا لهُويّة الفلسطينيّين في الداخل. الهدف هو الإضاءةُ على أنماط سلوكيّة ممكنة في ظروف استعماريّة معيَّنة، لا اختزالُ التجربة الفلسطينيّة بهذا الوصف.

في هذا الإطار، يمكن النظر إلى قسم من فلسطينيّي الـ48 بوصفهم أقرب إلى "فلسطينيّي المنزل"؛ فهُمْ يعيشون داخل "جدران" قد تكون جدران المواطَنة الإسرائيليّة أو الجدران الفعليّة مثل جدار الفصل العنصريّ والحدود مع مصر والأردن وغزّة، أو في قبو أو علّيّة، كما حال القرى والبلدات العربيّة في الداخل، أو حتّى الحارات العربيّة (الأشبه بالچيتوهات) في المدن الفلسطينيّة التاريخيّة. وكما يحتمي "عبد المنزل" بجدران سيّده من الحَرّ والعمل الشاقّ، يحتمي فلسطينيّو الداخل بجدران المواطَنة، ظانّين أنّها قد توفّر لهم قَدْرًا من الحماية من بطش

السيّد. بعضهم يتهافتون على التشبُّه بالمستعمِر في اللغة والسلوك، بل كذلك ينظرون باستعلاء إلى "عبيد الحقل" أي فلسطينيّي الضفّة وغزّة والقدس، الذين يواجهون البطش المباشر.

هذا البعد يتجلّى أيضًا في المجال النفسيّ كما تناوله فانون. فقد أشار إلى أنّ الاستعمار يُستَدخَل عبْر اللغة، وأنّ المحتلّ المستعمَر يثبت انتماءه للمستعمِر عبْر استخدامها. في الداخل الفلسطينيّ، يشكّل إتقان العبريّة عاملًا أساسيًّا للتقدُّم المهنيّ، بل للبقاء الجسديّ؛ إذ قد يتعرّض من يتحدّث العربيّة علنًا لاعتداءات عنصريّة. ليس من المستغرَب أنّ 46% من فلسطينيّي الـ48 قالوا إنّهم لا يشعرون بالراحة باستخدام العربيّة في الأماكن العامّة (المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة، 2023ب). بَيْدَ أنّ اللغة هنا ليست أداة بقاء فحسْب، بل قد تصبح أحيانًا علامة على استدخال المعايير الاستعماريّة كذلك: من اللافتات التجاريّة إلى المحادثات اليوميّة حتّى الخدمة العسكريّة. وعلى هذا النحو ينعكس تحليل فانون أنّ اللغة تُنتِج هرميّة جديدة، إذ يُعتبَر المتحدّث المتقِن "أكثر تحضُّرًا" بكونه أكثر قربًا إلى المستعمِر.

ثمّة بُعدٌ آخَر لتذويت الانقسام بالإمكان رؤيته في العلاقات الاقتصاديّة. وَفقًا لبحث مدى الكرمل، عندما يُسأل فلسطينيّو الـ48 عن شعورهم عند زيارتهم الضفّة للقيام بجولة مشتريات، الكثير منهم يؤكّدون على الفصل والتقسيم "إحنا عرب الـ48" مقابل "هم أهل الضفّة" (هوّاري، 2023). هذا التقسيم يَظهر كذلك في التعامل مع طلبة من الضفّة في مدارس عربيّة في الـ48 (أبو أسعد، 2023)، والعلاقات الزوجيّة مع نساء من الضفّة أزواجُهنّ من أراضي الـ48 (ظاهر-ناشف وهوّاري، 2023). وفي استطلاع أجراه مركز مدى الكرمل عام 2023 حول العلاقات في طرفَي الخطّ الأخضر، يتّضح مجدَّدًا أنّ أساسها هو الشعور بالحذر، وأنّها تركّز على التعاون في مجالات اقتصاديّة وثقافيّة وسياحيّة، وعلى نحو أقلّ في المجال السياسيّ (محاجنة، 2023).

يتّضح البعد الآخر للتمايز من خلال ما تمنحه المواطَنة، "المواطَنة الاستعماريّة الاستيطانيّة"، التي تغيّرت معالمها عبْر أربع مراحل تبعًا للتحوُّلات الجيوسياسيّة الإسرائيليّة (Rouhana & Sabbagh-Khoury, 2014). وفي إطار هذه الورقة، تُفْهَم المواطَنة على أنّها جزء من "الفتات" الذي توزّعه إسرائيل لفلسطينيّي الـ48.

أمّا التفاوت بين فلسطينيّي الـ48 وفلسطينيّي الـ67 من حيث المعامَلة، فهو يتجلّى في عددٍ من الممارسات اليوميّة: من القتل والاستيطان والتهجير الذي يتركّز في الضفّة وغزّة، إلى الفوارق في حرّيّة الحركة والوضع الاقتصاديّ بينهم وبين الإسرائيليّين اليهود، وفي مستوى العنف المباشر ضدّهم. وهذه الفوارق ليست عرَضًا جانبيًّا، بل هي جوهر في إدارة الاستعمار. وقد نجحت إسرائيل في ترسيخها نفسيًّا وثقافيًّا عبْر خطاب يعيد تعريف فلسطينيّي الداخل بوصفهم "عرب إسرائيل"، منفصلين عن باقي الفلسطينيّين. يتقاطع هذا مع ما طرحه فانون عن الحرب النفسيّة كجزء من السيطرة الاستعماريّة، وكذلك مع تحليلات أخرى (McPhail, 1981؛ Butler, 2009؛ هوّاري، 2023) تخصّ إنتاج الاستعمار لصورة نمطيّة يسعى المستعمَر نفسه إلى التشبُّه بها أو مطابقتها. هكذا أصبحت المواطَنة أداة ضبط وسيطرة: ليست حقًّا متساويًا، بل موقع استعماريّ هشّ، تدار قيمته بحسب مصالح إسرائيل وظروفها الجيوسياسيّة.

هبّة الكرامة 2021، والسابع من أكتوبر 2023

كيف تساعد مقارَبة "فلسطينيّي المنزل/ فلسطينيّي الحقل" في تفسير ردّ فعل فلسطينيّي الداخل تجاه ما يحدث في حرب الإبادة في غزّة؟ للإجابة عن هذا السؤال، أقترح مقارنة ردود الفعل في أعقاب الحرب على غزّة مقابل ما سبقها خلال أحداث الشيخ جرّاح والعدوان على غزّة في أيّار 2021، والتي عُرِفت بأحداث هبّة الكرامة.

تُعَدّ هبّة الكرامة من أهمّ لحظات الشعب الفلسطينيّ منذ هبّة الأقصى عام 2000، إذ جسّدت مثالًا مهمًّا على أهميّتها في الوحدة النضاليّة للشعب الفلسطينيّ في مختلِف مواقعه في فلسطين التاريخيّة، على الرغم من التشرذم والتجزئة التي فُرِضت عليه. ففي تلك اللحظة، كان تعامُلُ إسرائيل مع فلسطينيّي الـ48 شبيهًا بتعاملها مع فلسطينيّي الضفّة والقدس المحتلّة (عنبتاوي، 2024). فقد وُجِد فلسطينيّو الـ48 في مواجهة مباشرة مع مؤسَّسات الدولة دعمًا لأهل القدس والشيخ جرّاح الذين يعيشون في ظلّ سياسات التهجير والاقتلاع. كذلك يعيش سكّان المدن الساحليّة اللدّ والرملة وعكّا ويافا الذين يعانون من نفس السياسات والممارسات من قِبل مؤسَّسات الدولة والأنظمة الاستيطانيّة؛ بما قلّص الفوارق بينهم وبين إخوانهم في الضفّة الغربيّة والقدس، وفتح المجال أمام اندلاع احتجاج واسع النطاق.

وَفقًا للمقارَبة المطروحة هنا، إحدى أهمّ خصائص التفرقة الاستعماريّة تكمن في التفرقة في المعاملة. فكلّما ازداد الفرق في المعاملة، سواء أكان ذاك في تحسين ظروف "فلسطينيّي المنزل" أَمْ في تدهور ظروف "فلسطينيّي الحقل"، ازدادت الفجوة وظهرت الحدود بين الطرفَيْن بوضوح أشدّ.

وأمّا الشرط الثاني الذي شدّد عليه مالكوم إكس -إلى جانب التفرقة- وهو أنّه كلّما ازداد تهديد وجود السيّد أكثر ربط "عبد المنزل" مصيره ومستقبله ووجوده بالسيّد أكثر، وكلّما كبر تهدُّد وجود السيّد أكثر زاد "عبد المنزل" في جهوده لإنقاذه.

من هذا المنطلق، بالإمكان قراءة السابع من أكتوبر 2023 بوصفه لحظة صادمة تاريخيًّا: إسرائيل تعرّضت لهجوم غير مسبوق منذ 50 عامًا (أي منذ حرب عام 1973). فقد باغتتها الفصائل الفلسطينيّة من قِطاع غزّة، المحاصَر منذ أكثر من ستّ عشرة (16) سنة. لم تكن الصدمة من نصيب "السيّد" وحده، بل طالت "فلسطينيّ المنزل" كذلك. فبحسب المقارَبة هنا، كلّما كان التهديد الوجوديّ على إسرائيل أكبر، ازداد الهلع لدى جزء من فلسطينيّي الـ48، وانطلقت غريزة البقاء. وكما رُفِض في رواية "كوخ العمّ توم" الهربُ خشيةً من المجهول، لدى الكثيرين من فلسطينيّي الـ48 ثمّة خشية من الحياة بعد احتراق بيت السيّد، فقد يسعَوْن إلى إطفاء النيران حفاظًا على "البيت الذي يسكنونه". في هذه الحالة، لدى البعض ربّما كان الصمت وعدم المشاركة في الاحتجاج أشبه بإسهام غير مباشر في عمليّة "إطفاء الحريق". هذا ما قد يُستشَفّ من خطابات العديد من القيادات، عندما حثّت على ضبط النفس وعدم التظاهر، وافتخرت بالانضباط والانصياع (زعبي، 2025).

بالإضافة إلى هذا، أرى أنّ حجم الكارثة والإبادة التي يتعرّض لها الفلسطينيّون في غزّة والضفّة كان سببًا إضافيًّا يفسّر ردّ فعلِ فلسطينيّي الـ48. هذه الـمَشاهد تُولِّد لديهم مقارنة مباشرة بين أوضاعهم وأوضاع باقي الفلسطينيّين، ولا سيّما الفلسطينيّين الذين في غزّة، فتجعل الفُتات الذي تمنحه إسرائيل يبدو أكثر قيمة. هنا يصبح ما وصفته خوري بارتفاع "سعر الغضب" ملموسًا؛ فشراسة السيّد وعنفه تزداد بلا حدود، وفي المقابل ترتفع قيمة الفُتات (المواطَنة وميزاتها) في أعين المستعمَرين. الخوف لا يكون من القمع فحسْب، بل كذلك بخسارة "الامتيازات" القليلة التي يحصلون عليها، والتي تغيّرت قيمتها فجأة في فترة زمنيّة قصيرة جدًّا. وقد انعكس ذلك عمليًّا في مظاهر الحرب من خلال منع التعبير، والملاحَقات، والاعتقال الإداريّ، وهو ما جعل مكتسبات المواطَنة نفسها تحت المساءلة.

بعبارة أخرى، علْمًا أنّ الطرفَيْن خاضعان للسلطة نفسها، حين ينظر "عبد المنزل" إلى خارج النافذة ويرى شخصًا مثله يتعرّض للعقاب والعمل الشاقّ في الحقل، يبدأ بتقدير الفُتات الذي لديه. بِذا فإنّ الصمت الذي نشهده لدى فلسطينيّي الـ48 لا يعني فقدان انتمائهم، بل إنّه -على العكس من ذلك- يُعَدّ دلالة على فلسطينيّتهم؛ إذ هم يرَوْن أنفسهم في الفلسطينيّين الذين في غزّة ويشاهدون بأعينهم الإبادة التي يتعرّضون لها.

تتّضح قوّة هذه المقارَبة أكثر عند المقارنة مع سلوك فلسطينيّي الـ48 خلال هبّة الكرامة. ففي أيّار 2021، كانت الفوارق في المعاملة بين أجزاء الشعب الفلسطينيّ أقلّ بكثير. وكان تعامل إسرائيل مع فلسطينيّي الـ48 أقرب إلى تعاملها مع فلسطينيّي الضفّة والقدس: من قضايا السكن المتمثّلة بالتهجير ومصادرة البيوت أو هدم المساكن، إلى نصب الحواجز من الباطون المسلّح التي أَغلَقت مداخل البلدات الفلسطينيّة في مناطق الـ48. علاوةً على هذا، التهديد للمنزل وللسيّد لم يكونا كبيرَيْن؛ فالـمَطالب آنذاك تمثّلت في وقف تهجير عدد من البيوت في حيّ الشيخ جرّاح، ولم تقع عمليّة عسكريّة مباشرة تهدِّد الدولة. لذا، بحسب المقارَبة، انعكاس التفرقة كان أقلّ حدّة، وهو ما أتاح مِساحة أكبر للاحتجاج والمشارَكة.

أمّا بعد السابع من أكتوبر، فقد تضاعف هَوْل القتل والإبادة والدمار الإسرائيليّ في غزّة، ممّا زاد من خوف فلسطينيّي الـ48 أكثر وأكثر، وهو ما يفسّر -في تقديري- الامتناعَ عن التظاهر أو أيّ مظاهر احتجاج أخرى. فكلّما ازدادت المقارنة بين الفروق، ازداد الشعور بالخوف والتمسُّك بالسلطة. يمكن رصد هذه النتائج باستطلاعات الرأي: فبعد السابع من أكتوبر 2023 مباشرة، ظهر ارتفاع ملحوظ في أوساط فلسطينيّي الـ48 الذين يشعرون بأنّهم جزء من دولة إسرائيل ومشاكلها (المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة، 2023أ، 2023ب)؛ إذ ارتفعت النسبة من 22 % في حَزيران 2023 لتبلغ 70 % في نهاية تشرين الأوّل من العام نفسه. وفي استطلاع قام به مركز مدى الكرمل في آذار 2024، ظهر أنّ 39 % من المستطلَعين من فلسطينيّي الـ48 يرَوْن أنّ الحلّ الأكثر ملاءَمةً لهم هو الاندماج السياسيّ الكامل والمشارَكة في التحالف الحكوميّ.[6] قد يَكْمُن تفسير الارتفاع الملحوظ لديهم، بشأن الإحساس بكونهم جزءًا من دولة إسرائيل، في التهديد الكبير على وجود إسرائيل وتوقُّع ردّة الفعل العنيفة ضدّهم من قِبل إسرائيل ردًّا على هجوم حماس.

6. انظر ورقة امطانس شحادة في هذا الكتاب. ص.ص. 27 - 49.

في توافر هذَيْن الشرطَيْن، تفاوُتُ المعاملةِ وشدّةُ التهديد، يبرز جانب آخَر من الظاهرة يتمثل في العلاقة العكسيّة القائمة في الصراع التحرُّريّ. فعندما يثور "عبيد الحقل" ويهاجمون بيت السيّد، تكون النتيجة المتوقَّعة هي حرق البيت، الذي يمثّل في نظرهم القمع والظلم الذي عاشوه. بَيْدَ أنّ وجود "عبيد المنزل" داخل البيت يجعل التحرُّر معضلة مزدوجة؛ وذلك أنّ تحرير عبد المنزل من قمعه يتطلّب منه التخلّي عن الفُتات الذي يملكه، على المدى غير البعيد، بينما تبدو الحرّيّة المطْلَقة مجهولة النتائج. وقد خبروا يقينًا العقابَ الذي يترتّب عليه الغضب أو محاولة الهرب. لذا يتمسّك عبد المنزل بالفُتات الذي لديه، ويرى في "النعم" التي تحلّ على منزل سيّده مَصْدرًا لمكسب شخصيّ له يضاف إلى الهدوء الذي يعمّ البيت ينعكس عليه، والجدران التي تقمعه تتحوّل في وعيه إلى وسيلة حماية.

إجمال

قدّمت هذه الورقة إطارًا لمحاولة فَهْم صمت فلسطينيّي الـ48 تجاه الإبادة في غزّة، مقارَنةً بتصرُّفهم في هبّة الكرامة قبل سنتين. سعت الورقة في البداية إلى استعراض التفسيرات المطروحة، إسرائيليًّا وفلسطينيًّا لظاهرة هذا الصمت، ثمّ انتقلت إلى تحليل الحالة نفسها بوصفها مثالًا على العنصريّة الاستعماريّة كبنْية اجتماعيّة تُنتِج تمايُزات داخل الجماعة المستعمَرة؛ إذ في الغالب يتبنّى المستعمَر تصنيفات المستعمِر ويعيد انتهاجها.

على هذا الأساس، طوّرت الورقة إطارًا نظريًّا مستنِدًا إلى أعمال فانون ومالكوم إكس، وبأعقاب لـمى خوري، يقوم على التعبير الاستعاريّ عبيد المنزل/ عبيد الحقل. ووَفق هذا الإطار، يمكن النظر إلى فلسطينيّي الـ48 بوصفهم "فلسطينيّي المنزل"، وإلى فلسطينيّي المناطق المحتلّة عام 1967 بوصفهم "فلسطينيّي الحقل"؛ إذ كلّما تعرّض بيت السيّد للتهديد من قِبل "عبيد الحقل" ازداد "عبيد المنزل" تمسُّكًا به، خوفًا على الفُتات الذي ينالونه من وجوده. بِذا، يرى الإطار أنّ الفوارق في المعاملة (الإبادة في غزّة) والتهديدات الوجوديّة التي واجهتها إسرائيل بعد السابع من أكتوبر 2023 رفعت من قيمة "الفُتات" (المواطَنة) وامتيازاتها، في عيون جزء من فلسطينيّي الـ48، فكان الصمت هو الإجابة لحماية السيّد. بل ثمّة ما هو أكثر من ذلك، إذ ترى هذه المقارَبة صمت فلسطينيّي الـ48 تعبيرًا عن

فلسطينيّتهم نفسها، وذلك أنّه لا يمكن فَهْمه إلّا في ضوء المقارنة مع ما يواجهه إخوتهم في غزّة والضفّة.

بهذا الطرح، لم تكتفِ الورقة بطرح السؤال: لماذا لم يتحرّك فلسطينيّو الداخل ضدّ الحرب كما فعلوا في هبّة الكرامة؟ بل سعت إلى تقديم تفسير إضافيّ يضيء على ديناميكيّات أعمق تنتجها البنْية الاستعماريّة.

المراجع

أبو أسعد، إسلام. (2023). "تصوّرات وتطبيقات التربويّين لسياسات التقييم والاحتواء تجاه التلاميذ الفلسطينيّين من الضفّة الغربيّة في المدارس العربيّة في إسرائيل". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 88 - 104.

أبو لبن، ندين. (2024، 01 كانون الثاني). تحمون بعضكم بعضًا؟ فقط إذا كنتم يهود: "يجب أن نستيقظ قبل أن يهزمنا المتطرّفون". **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/bdevcvmt

أرلوزوروف، ميراف. (2023، 27 تشرين الأوّل). "لا أمل لحارس الأسوار 2": الخوف في أعلى مستوياته، لكن عرب إسرائيل محافظون على انضباط النفس. **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/2erz4w3s

پاپـه، إيلان. (2007). **التطهير العرقيّ في فلسطين**. بيروت: مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

خنفير، هاجر. (2024، 22 تشرين الأوّل). نقد الاستشراق من منظورٍ جندريّ: ليلى أبو لغد نموذجًا. **تكوين**.
https://tinyurl.com/zz5ftx2r

زعبي، حنين. (2025). "الالتحام والانفصال في علاقة الداخل مع لحظة غزة: عن أي تَوقٍ وعن أي طَوقٍ نكشف؟". لدى: زعبي، همّت؛ وهوّاري، عرين (محرّرتان). **فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص.ص. 135 - 174.

زعبي، حنين. (2024أ، 3 آذار). الداخل ما بعد السابع من أكتوبر: الصمت إزاء حالة خارج السياسة. **عرب48**.
https://l1nq.com/yLRjB

زعبي، حنين. (2024ب، 18 آذار). الداخل ما بعد السابع من أكتوبر: شراكة في ظلّ الإبادة ... غزّة كضرر جانبيّ. **عرب48**.
https://l1nq.com/h06Fd

زِنْـچر، عيران. (2023، 7 تشرين الثاني). مخاوف عرب إسرائيل. **كان 11**. [بالعبريّة]
https://www.kan.org.il/content/kan-news/opinions/599008

شحادة، امطانس. (2025). "مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب على غزّة وإسقاطاتها السياسيّة: تحليل استطلاع رأي عامّ- مدى الكرمل". لدى: زعبي، همّت؛ وهوّاري، عرين (محرّرتان). **فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص.ص. 27 - 50.

شحادة، امطانس. (2024، حزيران). مواطَنة هشّة: العنصريّة والقمع تجاه المواطنين العرب في إسرائيل إبّان الحرب على غزّة. **مدى الكرمل**.
https://tinyurl.com/yhy4pvun

صبّاغ، زهير. (1990). "مرحلة الصدمة والنضال ضدّ الحكم العسكريّ 1948 - 1967". لدى: جبريل، محمّد؛ ونزّال، واصف (محرّران). **فلسطينيّو 48 نضال مستمرّ 1948 - 1988**. القدس: مركز الزهراء. ص 21 - 76.

ظاهر-ناشف، سهاد وهوّاري، عرين. (2023). ""رحلة جبليّة، رحلة صعبة": التجربة المعيشة للنساء الفلسطينيّات من المناطق المحتلّة عام 1967 المتزوّجات والمقيمات داخل "الخطّ الأخضر"". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 104- 134.

عنبتاوي، خالد. (2024). **هبّة في حالة عتبة: هبّة الكرامة (أيّار 2021) والفعل الانتفاضيّ-الشعبيّ لدى فلسطينيّي 1948 (مقاربة سوسيولوجيّة)**. حيفا: مدى الكرمل.

قعدان، محمد. (2025، 07 شباط). جذور سياسة التجويع الصهيونية: ملامح من فترة الحكم العسكري الأولى. **رُمّان**.
https://rommanmag.com/archives/34853

كَلْكَلِسْت. (2023، 16 تشرين الثاني). الحرب هزّت المجتمع العربيّ. حماس ذبحتنا، والآن إسرائيل تلاحقنا سياسيًّا. **كَلْكَلِسْت**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/mv477rac

محاجنة، سامي. (2023). "علاقات على الأطراف: قراءة في استطلاع رأي حول طبيعة العلاقات في المجتمع الفلسطينيّ على طرفَي الخطّ الأخضر". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 20- 41.

مركز أمان. (2023). العنف والجريمة في المجتمع العربي، التقرير السنوي لمركز "أمان"- المركز العربي لمجتمع آمن للعام 2023. **مركز أمان**.
https://h1.nu/1jzt5

المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة. (2023أ، 10 تشرين الثاني). استطلاع رأي سريع حول "السيوف الحديديّة": رقم قياسيّ للعشرين سنة الأخيرة في شعور الانتماء للدولة لدى اليهود وكذلك لدى العرب. **المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة**. [بالعبريّة]
https://www.idi.org.il/articles/51391

المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة. (2023ب، 25 كانون الأوّل). استطلاع آراء المجتمع العربيّ حول حرب "السيوف الحديديّة": ثُلثا المواطنين تقريبًا يشعرون أنّهم جزء من الدولة ومشاكلها. **المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة**. [بالعبريّة]
https://www.idi.org.il/articles/51968

مواسي، علي. (شتاء 2024). مشكّلات الكُمون: فلسطينيّو 1948 والحرب الإسرائيليّة على قِطاع غزّة. **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، 137. ص 126- 150.
https://www.palestine-studies.org/ar/node/1654951

هوّاري، عرين. (2023). "بين شقَّيْن: شعب يمارس وحدته وانشطاره". لدى: مصطفى، مهنّد (محرّر). **العلاقات بين الفلسطينيّين في فلسطين التاريخيّة: ديناميّات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص 42- 68.

Ahmed, L. (2011). **Quiet Revolution: The Veil's Resurge**. Yale University Press.

Beecher-Stowe, Harriet. (2011). **Uncle Tom's cabin**. London: Harper press.

Berger, Elizabeth; & Samah, Jabr. (2021). "FANON AND PALESTINE: THE STRUGGLE FOR JUSTICE AS THE CORE OF MENTAL HEALTH". In: Nigel C., Gibson. (Ed.). **FANON TODAY Reason and Revolt of the wretched of the earth**. Canada: Daraja Press. Pp. 127- 154.

Bishara, Azmi. (2017). "Zionism and equal citizenship: Essential and incidental citizenship in the Jewish state". In: Rouaha, Nadim (ed.). **Israel and the Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state**. Cambridge University Press. Pp. 137- 155.

Butler, J. (2009). **Frames of war: When is life grievable?.** New York, NY: Verso.

Doctors without borders. (2023, December 15). 2023 is the deadliest year on record for Palestinians in the West Bank. **Doctors without borders**. https://tinyurl.com/mrhm3jj5

Fanon, Franz. (2008). **Black Skins, White Masks**. UK: Penguin books.

Foucault, M. (1988). **Madness and civilization: A history of insanity in the age of reason**. New York, NY: Vintage Books. (Original work published 1965).

Friere, Paulo. (2005). **PEDAGOGY of the OPPRESSED**. New York/ London: Continuum.

Go, Julian. (2004). "Racism" and Colonialism: Meanings of Difference and Ruling Practices in America's Pacific Empire. **Qualitative Sociology**, 27 (1). Pp. 35- 58.

Khouri, Lama Z. (2018). Through Trump's Looking Glass into Alice's Wonderland: On Meeting the House Palestinian. **Psychoanalytic Perspectives**, 15 (3). Pp. 275- 299.

McPhail, T. (1981). **Electronic colonialism: The future of international broadcasting and communication**. Newbury Park, CA: Sage.

Meriam-Webster. [n.d.]. Uncle Tom. **Meriam-Webster**. https://www.merriam-webster.com/dictionary/Uncle%20Tom

Ross, Robert. (1982). REFLECTIONS ON A THEME. In: Robert, Ross (Ed.). **Racism and Colonialism Essays on Ideology and Social Structure**. Leiden: MARTINUS NIJHOFF. Pp. 1- 10.

Rouhana, Nadim, & Sabbagh-Khoury, Areej. (2014). Settler-colonial citizenship: conceptualizing the relationship between Israel and its Palestinian citizens. **Settler Colonial Studies**, 5 (3). Pp. 205- 225. https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/2201473X.2014.947671

X, Malcom. (1963, January 23). The Race Problem. **Columbia University**. https://ccnmtl.columbia.edu/projects/mmt/mxp/speeches/mxt17.html

بين قبضة الملاحَقة ومحدوديّة الفاعليّة: الطلبــة فلسطـينيّـو الـ 48 في الجامعات الإسرائيليّة في أعقـــاب حــرب الإبـادة على قِطـاع غــزّة

يوسف طه

ملخَّص

تسعى الورقة إلى تتبُّع الملاحَقة السياسيّة والممارَسات القمعيّة التي واجهتها الطالبات الفلسطينيّات والطلّاب الفلسطينيّون من مناطق الـ 48، في الجامعات الإسرائيليّة، خلال فترة حرب الإبادة على قِطاع غزّة، التي اندلعت عقب السابع من أكتوبر 2023، والتي تراوحت بين التهديد بالفصل والتحويل إلى لجان الطاعة والاعتقال. وعلى نحوٍ مُوازٍ، تتناول الورقة أداءَ الحركات الطلّابيّة والفاعليّة الذاتيّة الفلسطينيّة إزاء هذه الحملة.

في البداية، تتطرّق الورقة إلى التحوُّلات في فاعليّة الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في الجامعات الإسرائيليّة، وتُقدِّم خلفيّةً وأسبابَ تضعضُع فاعليّتها ونشاطها في العَقْدَيْن الأخيرَيْن، وكذلك تعرّج على استهداف الحركة الطلّابيّة من قِبل السلطات الإسرائيليّة، والتي برزت على نحوٍ خاصّ منذ هبّة الكرامة عام 2021. تدّعي الورقة أنّ هذَيْن العاملَيْن (استهدافَ الطلّاب والطالبات الجامعيّين، وإضعافَ وضعف الحركة الطلّابيّة) أسهَمَا في إحباط قدرة الحركات الطلّابيّة على التصدّي بفاعليّة للهجمة الشرسة التي اشتدّت بعد حرب الإبادة على قِطاع غزّة.

مقدّمة

تشير معطيات مجلس التعليم العالي في إسرائيل إلى أنّ الطلّاب الفلسطينيّين من مناطق الـ 48 يشكّلون ما نسبته 19% من إجماليّ عدد الطلّاب الكلّيّ في الجامعات والكلّيّات الإسرائيليّة؛ إذ في العام 2023 كان عددهم 61,550 طالبًا عربيًّا من أصل 332 ألف طالب جامعيّ في إسرائيل (مجلس التعليم العالي، 2023).

على مستوى الداخل الفلسطينيّ، شكّلت الحركات الطلّابيّة، على مدار عقود من الزمن، حالةً سياسيّة وفكريّة وحزبيّة هامّة، وكان لها وزن مجتمعيّ وسياسيّ امتدّ إلى خارج أسوار الجامعات (مصطفى، 2011)، وكان للطلبة العرب والحركات الطلّابيّة دَوْر بارز في هبّة يوم الأرض عام 1976 وهبّة أكتوبر عام 2000. منذ نشأتها، مُثّلت في الحركة الطلّابيّة في الفكر، وأيضًا في النشاطات، التيّارات الفكريّة السياسيّة والحزبيّة المختلفة للفلسطينيّين في الداخل بما في ذلك حركة الأرض، وأبناء البلد، والتجمّع الطلابيّ، والتيّارات السياسيّة الإسلاميّة -الحركة الإسلاميّة الجنوبيّة وكتلتها "القلم" والحركة الإسلاميّة الشماليّة تحت مسمّى "اقرأ"-، والتيّار الشيوعيّ المتمثّل بالحزب الشيوعيّ والجبهة الطلّابيّة في الجامعات (مصطفى، 2002).

في السنوات الأخيرة، لم تنجح الحركات الطلّابيّة في الحفاظ على ذات الحضور والنشاط القويّ؛ وذلك لأسباب مختلفة، أبرزُها عدم قدرة الحركات الطلّابيّة الفلسطينيّة على مجاراة هَيْمَنة الجامعات واتّحادات الطلّاب الإسرائيليّة في قضايا تقديم الخدمات الطلّابيّة. فقد أسهَمَ تفوُّق هذه المؤسَّسات اقتصاديًّا في تغييب لجان الطلّاب العرب والاتّحاد القُطْريّ للطلّاب الجامعيّين (وهي هيئات منتخَبة من قِبل الطلبة العرب تُمثِّلهم أمام المؤسَّسات الأكاديميّة). كذلك كان لحظر الحركة الإسلاميّة الشماليّة والحركة الطلّابيّة "اقرأ"، وهي التي قامت بدَوْر بارز على الساحة الطلّابيّة إلى أن حُظِرَت إسرائيليًّا عام 2015، دَوْرٌ إضافيّ في إضعاف الحركات الطلّابيّة في الداخل.

فضلًا عن هذا، أسهم تشكيل القائمة المشترَكة، على نحوٍ ما، في تراجع الحركات الطلّابيّة. فإلى جانب غياب المنافَسة الفكريّة بين الأحزاب، اتّكلت الأحزاب على القائمة المشترَكة، معتبِرةً إيّاها جسمًا من شأنه أن يحافظ على وجودها دون

كثير من الاستثمار والجهد في المؤسَّسات الحزبيّة أو الطلّابيّة، فتراجع استثمار الأحزاب في الحركات الطلّابيّة والشبابيّة، وهو ما أسهَمَ في إضعافها.

لم يَدُمْ هذا التراجع طويلًا؛ إذ في نهاية العَقْد الأوّل من القرن الحاليّ، بدأت الحركة الطلّابيّة في الداخل باستعادة دَوْرها، وبرز هذا في البداية في جامعة تل أبيب، التي نشطت داخل حرمها خمس حركات طلّابيّة فلسطينيّة: حركة رؤية، وجفرا- التجمُّع الطلّابيّ، والجبهة الطلّابيّة، ومنتدى إدوارد سعيد- وهي حركة ثقافيّة وطنيّة غير حزبيّة-، ومنتدى طلّاب الحقوق الذي يعمل على تنظيم طلبة الحقوق في الجامعة. اقتصر العمل الطلّابيّ الجدّيّ على جامعة تل أبيب، وظهر بصورة أكثر تواضعًا في جامعة حيفا، بينما تغيّبت الحركة الطلّابيّة في جامعات بئر السبع والتخنيون وبار إيلان، وبرز غيابها على نحوٍ خاصّ في الجامعة العبريّة بالقدس- وهي التي طالما شكّلت حالة طلّابيّة محوريّة تاريخيًّا.

تكرّرت محاولات استعادة تنظيم الحركات الطلّابيّة، حزبيّة كانت أَمْ ثقافيّة أَمْ دينيّة، في جامعات أخرى إلى أن استعادت الحركات الطلّابيّة نشاطها في معظم الجامعات.

منذ العام الدراسيّ 2017- 2018، برز دَوْر الحركة الطلّابيّة من خلال تنظيم نشاطات عديدة كان لها تأثير كبير وتفاعل طلّابيّ واسع، وقد برز ذلك على نحوٍ خاصّ في فعّاليّات إحياء ذكرى النكبة التي تحوّلت إلى أحد أهمّ النشاطات لدى الحركات الطلّابيّة في الداخل، وبخاصّة في فعل رفع العلَم الفلسطينيّ داخل الجامعات الإسرائيليّة؛ إذ تشهد هذه الجامعات إحياء ذكرى النكبة سنويًّا عبْر نشاطات مختلفة برزت من بينها على وجه الخصوص النشاطاتُ التي نظّمتها الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في جامعتَيْ تل أبيب وبئر السبع عام 2022، وعلى وجه التحديد في الخامس عشر من أيّار.

رافق هذه الفترةَ تحريضٌ إسرائيليّ واسع، وشهدت تقييدات وقوانين مختلفة ترمي إلى منع مثل هذه النشاطات. فعلى سبيل المثال، في أعقاب نشاطات إحياء ذكرى النكبة عام 2022، قامت إدارة جامعة بئر السبع بتحويل ناشطين في الحركة الطلّابيّة في الجامعة إلى لجان الطاعة، وذلك بذريعة تنظيم نشاطات غير قانونيّة داخل الحرم الجامعيّ، وبتهمة استخدام مفردات أو تعابير تحرّض على الإرهاب والعنف، ككلمة "شهداء" -على سبيل المثال- التي جرى تحويل طالبة استخدمتها إلى لجنة الطاعة في الجامعة (عرب48، 2023ب).

أمّا في جامعة تل أبيب، فقد اعتقلت الشرطة ثلاثة طلبة من ناشطي الحركة الطلّابيّة، واعتدت عليهم بالضرب المبْرِح، وحاولت منع استمرار فعاليّة إحياء ذكرى النكبة، إلّا أنّ النشاط استمرّ وسط رفع مئات الأعلام الفلسطينيّة- وهي التي زادت التحريض إلى حدّ كبير.

جرى اعتقال الطلبة الثلاثة في مَدخل الجامعة؛ وهو تابع مباشرة للجامعة، ولطالما كانت تتولّى المسؤوليّةَ عنه عبر أمنها الخاصّ، إلّا أنّها في هذا النشاط، إحياء ذكرى النكبة من قبل الحركات الطلّابيّة الفلسطينيّة في جامعة تل أبيب، سمحت بتدخُّل الشرطة الإسرائيليّة بقرار استثنائيّ من إدارتها. وقد رفعت يدها عن هذا الحدث رغم حصوله في حيّز الحرم الجامعيّ، وهو ما أدّى إلى اعتداء الشرطة على الطلبة العرب رغم اعتداء أذرع اليمين عليهم، وقد اعتُدِيَ على الطلبة العرب واعتُقِلوا قبل أن يبدأ النشاط، وذلك ابتغاءَ ترهيب بقيّة الطلبة العرب من المشارَكة في هذا النوع من النشاطات (عرب48، 2022أ). قامت الشرطة وقتذاك بتمديد اعتقال بعض الطلبة ليوم ويومَيْن، وشهدت جلسات المحاكم تظاهرات طلّابيّة واسعة رفضًا لسياسات الاعتقال والملاحَقة تجاه الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في جامعة تل أبيب (عرب48، 2022ب).

بداية تصعيد الاستهداف

تلا تلك النشاطاتِ حملةُ تحريض إسرائيليّةٌ واسعة على الحركات الطلّابيّة الفلسطينيّة الفاعلة في الجامعات الإسرائيليّة، قادَتْها حركةُ "إمْ تِرْتْسُو"[1] اليمينيّة التي تعمل في الجامعات على نحوٍ خاصّ. وصدر بعض هذا التحريض من سياسيّين ونوّاب في الكنيست وإعلاميّين، ووصلت هذه الموجة التحريضيّة الواسعة إلى أروقة الكنيست الإسرائيليّ. فبعد يوم من إحياء ذكرى النكبة عام 2022، شهد الكنيست الإسرائيليّ في 16 أيّار 2022 جلسة صاخبة تخلّلتها حملة

1. تأسّست حركة "إم ترتسو" في العام 2006 بمبادرة شخصيّات يمينيّة بارزة كان في مقدَّمها رونين شوفال الذي لا يزال يترأّسها حتّى عام 2025، وإيرز تدمور الذي نشط في حزب **الليكود**، وكانا من بين المشاركين في "برنامج القيادة الشابّة" التابع لمعهد **الإستراتيجيّة الصهيونيّة**. تُعرِّف "إمْ تِرْتْسُو" نفسها بأنّها منظّمة يمينيّة صهيونيّة محافِظة تسعى إلى تعزيز "**القِيَم الصهيونيّة**" في إسرائيل والحفاظ على "دولة إسرائيل كدولة قوميّة للشعب اليهوديّ"، وذلك من خلال السعي إلى تجديد الخطاب والفكر والأيديولوجيا **الصهيونيّة** في المجتمع الإسرائيليّ وفي أوساط جيل الشباب ليكون مؤهّلًا لقيادة الدولة في المستقبل (بدوي، 2023).

تحريض على الحركات الطلّابيّة الفلسطينيّة، وعلى وجه التحديد بسبب إحياء ذكرى النكبة في جامعتَيْ تل أبيب وبئر السبع ورفع العلم الفلسطينيّ فيهما.

افتتح تلك الجلسةَ الصاخبةَ رئيسُ المعارضة، آنذاك، بنيامين نتنياهو قائلًا:

> هذه أيّام حمراء فيها يجري تجاوز خطوط حمراء. كلّنا نرى لهيب النار الذي يريد أن يقتلنا جميعًا. الأعلام الفلسطينيّة تُرفع في كلّ مكان في إسرائيل. جميعنا رأينا تلك التظاهرة الكبيرة للنكبة في جامعة تل أبيب ("الشيخ مونّس"- كما يسمّيها هؤلاء). في قلب تل أبيب هذا يحدث، بينما من يرفع علَم إسرائيل عليه أن تكون لديه جرأة ليقوم بذلك. هذا ما يحصل الآن في دولة إسرائيل. يا لَلعار! (قناة الكنيست، 2202).

بعد أسبوع من القيام بتلك النشاطات، عُرِض اقتراح قانون يهدف إلى منع رفع الأعلام الفلسطينيّة في الأحرام الجامعيّة وأُقِرَّ بالقراءة التمهيديّة، استغلّ بعض أعضاء الكنيست مساحة الدقيقة التي تتاح لكلّ عضو كنيست للتحدّث عن كلّ اقتراح قانون مقدَّم، لمتابَعة التحريض على الحركة الطلّابيّة وعلى نشاط إحياء ذكرى النكبة في الجامعات الإسرائيليّة. في مناقشة اقتراح القانون، توعَّدَ وزير الأمن السابق يوآڤ چـالانت، الذي كان آنذاك عضو معارضة، بنكبة جديدة، مذكّرًا بإسقاطات النكبة، وعبّر في خطابه عن غضب شديد تجاه ما تقوم به الحركات الطلّابيّة قائلًا:

> نحن نشهد في الأسابيع والأيّام والساعات الأخيرة زيادة الأعمال الإرهابيّة التي تأتي من المجتمع العربيّ في إسرائيل، وهي أوّلًا خطيرة للعرب في إسرائيل وليس للدولة، وربما أقول هناك رسالة للعرب أن لا يخطئوا، وأودّ أن أشرح ما أقصد... الجريمة المنتشرة في المجتمع العربيّ باتت تأخذ توجُّهًا قوميًّا، وما حصل في الأيّام الأخيرة في جامعة تل أبيب وجامعة بئر السبع، هذا خطر كبير عليكم [موجِّهًا رسالته إلى العرب]. قبل أربعة وسبعين عامًا جرّتكم قيادتكم حسن سلامة وأمين الحسيني إلى حرب كانت نتيجتها الهروب من البلاد، وأنا أقول لكم: لا تعودوا إلى نفس الخطأ. سيأتي وقت تتجاوزون فيه الخطّ الأحمر، وعند ذاك سيكون الثمن باهظًا جدًّا. إذا استمررتم في هذا الأداء، فسنصل إلى مكان اللا-عودة؛ وأنا أتعهّد لكم ألّا يكون ذلك، وأنا أعرف كيف أقوم بعمليّات وأستعمل القوّة، وهذا

ما سيكون عند قيام حكومة الليكود الجديدة عمّا قريب. (قناة الكنيست، 2202أ).

وفي تعقيب على اقتراح القانون، قال عضو الكنيست عن الليكود يسرائيل كاتس، خلال خطابه على منصّة الكنيست في 23 أيّار 2022:

> أنا أتوجّه إلى الطلبة العرب في الجامعات الذين يرفعون الأعلام الفلسطينيّة وأقول لهم: تذكّروا حرب عام 1948. تذكَّروا حرب استقلالنا ونكبتكم. هو استقلالنا ونكبتكم. اسألوا الكبار عندكم وأجدادكم الذين سيؤكّدون لكم أنّ اليهود في النهاية سينهضون ويدافعون عن أنفسهم. إيّاكم أن تشدّوا الحبل أكثر من المتاح، ولا تجلبوا للمجتمع العربيّ في إسرائيل كارثة أخرى كما كان في النكبة. (قناة الكنيست، 2022ب).

في الخطاب ذاته، استذكر كاتس ما كان في سبعينيّات القرن العشرين في الجامعات محرِّضًا على د. عزمي بشارة، في إشارة إلى أنّ هذا المشهد يذكّر بما كان في تلك السنوات. آنذاك شهدت الأحرام الجامعيّة مظاهرات صداميّة للحركات الطلّابيّة ضدّ اليمين الإسرائيليّ برز فيها بشارة، واعتُقِل خلالها مرّتَيْن واعتُبِر أحد رموزها البارزين. وكذلك ذكر الحركة الإسلاميّة مهدّدًا بقوله: "إنّنا أخرجناها عن القانون والباقون في الطريق"، ليَخْلص إلى ما يلي: "نحن سنلقّنكم درسًا لن تنسَوْه أبدًا، وسنضع لهذا الإرهاب في الجامعات حدًّا، ولن نسمح لكم بالاستمرار في هذا الاتّجاه، وسيأتي يوم تخسرون فيه كلّ ما حصلتم عليه وكلّ ما لديكم". (قناة الكنيست، 2022ب).

لم تكن مقارنة كاتس ما يحصل في الجامعات في إحياء ذكرى النكبة عام 2022 بفترة سبعينيّات القرن العشرين من قَبيل المصادفة. لقد اعتبر كثيرون السبعينيّات فترة ذهبيّة عاشتها الحركة الطلّابيّة من خلال نشاطها البارز وقتذاك (غسّان، 2018)، وقامت فيها الحركة الطلّابيّة بدَوْر بارز في هبّة يوم الأرض عام 1976. عُدَّت تلك الفترة نقطة مفصليّة ومُهِمّة في إقامة الاتّحاد القطْريّ للطلّاب العرب الذي كان عزمي بشارة أوّل رئيس له، وقام بدَوْر مركزيّ وقياديّ في تأسيسه؛ إذ تصدّرت الحركة الطلّابيّة في الداخل إذّاك الحركة الطلّابيّة في الجامعة العبريّة في القدس التي خرجت منها قيادات سياسيّة عديدة في الحركة السياسيّة الفلسطينيّة في الداخل. تأتي هذه المقارَنة تأكيدًا على أنّ إسرائيل تتعامل بجِدّيّة

فائقة مع حالة نهوض الحركات الطلّابيّة الفلسطينيّة في السنوات الأخيرة، وأنّ في نيّتها ما هو أبعد من مجرّد ضبطها، بل فيها تهديداتٌ واضحة للطرد وتكرار النكبة والقمع، ومحاولةٌ على نحوٍ جادّ وفعّال لمنع عودة تأثير الحركة الطلّابيّة وللتأكيد على أنّ التعامل سيكون أكثر شدّة وأكثر قمعًا ممّا كان عليه الأمر في تلك الفترة.

بعد مرور أسبوع واحد على جلسة الكنيست الصاخبة، في 23 أيّار 2022، صدّق الكنيست الإسرائيليّ في 1 حزيران 2022، بالقراءة التمهيديّة، على حظر رفع علَم فلسطين في المؤسَّسات الأكاديميّة التي تتلقّى تمويلًا من الدولة، وذلك بأغلبيّة 63 عضوًا مقابل معارضة 16 فقط. تَقدَّم باقتراح القانون هذا أعضاءُ كنيست من الليكود، وانضمّ له أقطاب حكومة بِنِتْ وائتلافه الحكوميّ رغم أنّ بِنِتْ كان قد تعهَّدَ برفض التصويت على أيّ قانون يطرحه الائتلاف حينذاك، إلّا أنّهم توحّدوا حول هذا القانون وسُجِّل غياب يائير لـپـيد رئيس الحكومة البديل آنئذٍ وجميع نوّاب حزبه. رئيس المعارضة بنيامين نتنياهو قال بعد التصويت على القانون: "لقد أقررنا الآن في الكنيست قانون العلَم الذي يَحظر رفع علم منظَّمة التحرير الفلسطينيّة في المؤسَّسات التي تموّلها الدولة، ويؤكّد أنّ إسرائيل لديها علم واحد فقط؛ ونحن سنعيد إسرائيل إلى اليمين. هذا يوم مهمّ لدولة إسرائيل ولمستقبل الدولة اليهوديّة" (شاليـف، 2022).

وردًّا على إقرار القانون، أصدرت التجمُّع الطلابيّ بيانًا جاء فيه: "العلم الفلسطينيّ هو علمنا الوطنيّ، وهو أحد الرموز التي تعكس هُويّتنا كطلبة فلسطينيّين في كلّ مكان، داخل الجامعات الإسرائيليّة وخارجها، وأيّ قانون جائر يُقصد منه نزع الوعي الوطنيّ من نفوس طلّابنا سنردّ عليه بالاحتفاء وبالتشبّث أكثر فأكثر بهذه الرموز". وأضاف البيان قائلًا: "لطالما وضعْنا التمسّك بهُويّتنا وبوعينا الوطنيَّيْن في مركز عملنا الطلّابيّ، ولطالما واجهْنا بثبات وإصرار سياسات المحو والأَسْرَلة التي تنتهجها المؤسَّسة الإسرائيليّة منذ النكبة وحتّى يومنا هذا، ولن تنجح هذه المحاولات الغبيّة ونستمر بتأكيدنا على انتمائنا التامّ لشعبنا الفلسطينيّ رغم كلّ هذه القوانين الغبيّة" (عرب48، 2022ت).

كذلك استنكرت الجبهة الطلّابيّة إقرار هذا القانون، وجاء في بيانها تعليقًا عليه:

> إنّ منع رفع العلم الفلسطينيّ هو تنكُّر لكلّ الاتّفاقيّات والأعراف الدوليّة، ومسّ بحرّيّة التعبير وحرّيّة التظاهر وحرّيّة الفكر. رفع العلم الفلسطينيّ ليس وليد الأحداث الأخيرة، بل رفعناه في الجبهات الطلّابيّة في بداية

نشاط الحركة الطلّابيّة في الجامعات الإسرائيليّة، ولكن المساس بحرمة الجامعة وفرض أَجِنْدة سياسيّة يمينيّة عليها هو استمرار لمحاولات حثيثة لمنع شرعيّة العلَم الفلسطينيّ ووجودنا كطلّاب عرب فلسطينيّين في الجامعات. (بانيت؛ وصحيفة بانوراما، 2024).

على الرغم من محاولات تصدّي الحركات الطلّابيّة لسياسات القمع هذه، استمرّت حمْلة ملاحَقة الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة، واتّخذت أشكالًا مختلفة وأساليب متنوّعة، كان منها أن قدّمت حركة "إمْ تِرْتْسُو" اليمينيّة طلبًا إلى جامعة تل أبيب بحظر كتلة "جفرا- التجمُّع الطلّابيّ" في جامعة تل أبيب، وذلك بذريعة الهتاف بشعارات داعمة للإرهاب على إثر تظاهرة طلّابيّة ضدّ عدوان الجيش الإسرائيليّ على مدينة جنين في شباط 2022، وهو ما رفضته الجامعة على نحوٍ رسميّ من خلال رسالة نائب رئيسها ردًّا على طلب الحظر (عرب48، 2023أ)، إلّا أنّ الجامعة بعد شهر من هذا الطلب منعت كتلة "جفرا" من تنظيم معرضها السنويّ للكتاب، بحجّة تضمّنه كتبًا تحريضيّة (عرب48، 2023ت).

تلا ذلك إقرار قانون آخر -بالقراءة التمهيديّة فقط- أكثر شموليّةً من القوانين السابقة، يستهدف عمل ونشاط الكتل الطلّابيّة العربيّة على نحوٍ واضح. ما رمى إليه مقترح القانون هو إخراج كتل طلّابيّة عن القانون وفصل الطلبة الفاعلين فيها من الجامعات إن عبّروا عن دعمهم للنضال الفلسطينيّ، الذي أسماه نصّ القانون بالإرهاب، ورفعوا أعلام العدوّ، أي العلَم الفلسطينيّ، حيث صودِق على هذا القانون بالقراءة التمهيديّة بأغلبيّة 50 عضو كنيست، ورفضه 32 آخرون (الجرمق الإخباريّ، 2023). وكما في محاولات قمع سابقة، أصدر كلّ من التجمّع الطلّابيّ والجبهة الطلّابيّة بيانًا احتجاجيًّا إثر التصديق على القانون.[2]

2. وجاء في بيان التجمُّع الطلّابيّ: "القوانين العنصريّة لن تَثنينا عن الاستمرار بالعمل الطلّابيّ الوطنيّ في الجامعات الإسرائيليّة، بل تزيدنا عزيمةً وإصرارًا على المضيّ قُدُمًا وتوسيع عملنا ونشاطنا بشكل أكبر لأنّ هذا القانون يثبت بشكل لا يقبل التأويل مدى ارتباكهم من عمل ونشاط حركتنا الطلّابيّة الذي يتجاوز تأثيره أروقة الكنيست ويعطي أملًا لشعبنا في جميع أماكن تواجده بوجود طلّاب فلسطينيّين متفوّقين ومتميّزين ومنتمين لشعبهم وقضيّتهم في الجامعات الإسرائيليّة وينخرطون بالعمل الطلّابيّ الوطنيّ والثقافيّ".

وجاء في بيان الجبهة الطلّابيّة: "إنّ قانون حظر الحركات الطلّابيّة وملاحقة النشطاء السياسيّين هو مسّ بحرّيّة التعبير، ومسّ بالأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة، كما أنّها محاولة للسيطرة على الحيّز الأكاديميّ. ولا شكّ أنّ هذه المحاولة تتقاطع مع محاولاتهم السيطرة على الجهاز القضائيّ في الدولة، وتفصيل الأكاديميا على مقاس اليمين الفاشيّ لخدمة مطامعه الاحتلاليّة وتقويض حقّ الشعب الفلسطينيّ في تقرير المصير وإنهاء الاحتلال وتقويض عمليّة الحِوار والسلام". (بانيت؛ وصحيفة بانوراما، 2022).

في وقت سابق، في بداية عام 2023، صدر أمر للشرطة الإسرائيليّة من وزير الأمن القوميّ آنذاك، إيتمار بن چـڤـير، يُحظَر بموجِبه رفع العلَم الفلسطينيّ، وذلك وَفقًا لصلاحِيَته كوزير يسيطر على جهاز الشرطة. على أثر هذا، أصدر المفوَّض العامّ للشرطة، كوبي شبتاي، أمرًا لجهاز الشرطة يمنع رفع الأعلام الفلسطينيّة، وهو ما تعمل عليه الشرطة باستمرار منذ ذلك الحين (براينر، 2023). من الجدير بالذكر أنّ الحركة الطلّابيّة في جامعة تل أبيب تحدَّتْ قرار بن چـڤـير وقامت برفع مئات الأعلام الفلسطينيّة خلال إحياء ذكرى النكبة في أيّار 2023 (دلاشة، 2024).

لم يقتصر القمع على جامعة تل أبيب، بل طال الجامعات المختلفة في إسرائيل، ومن خلاله حاولت الجامعات فرض سياسات الضبط والسيطرة والقمع على الطلّاب والطالبات من فلسطينيّي الـ 48. على سبيل المثال، في جامعة حيفا، التي يُعَدّ فيها العرب ذوي العدد الأكبر مقارنة بسائر الجامعات،[3] حُظِر كلّ نشاط احتجاجيّ داخل الجامعة، بل لقد بلغت محاوَلات القمع حدَّ تهديد الطلبة بفصلهم إن جرى نشاط من هذا القَبيل. فضلًا عن ذلك، تشهد الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في الجامعة انتهاكًا صارخًا لحقوق الحركات الطلّابيّة؛ إذ تستخدم الجامعة الأدوات البيروقراطيّة لتعطيل نشاطات الحركة الطلّابيّة فتتدخّل هناك في المضامين، وتمنع استخدام مصطلحات وتعابير معيَّنة، نحو: الطلّاب الفلسطينيّون؛ الشعب الفلسطينيّ؛ القضيّة الوطنيّة... كذلك تُلزِم الجامعة الحركاتِ الطلّابيّةَ الفلسطينيّة بترجمة منشوراتها إلى العبريّة قبل توزيعها، كي يتسنّى لممثّلي الجامعة أن يتابعوا ويراقبوا ما فيها من مضامين، إضافة إلى تكتيكات تعطيل نشر إصدارات الحركة الطلّابيّة من خلال اشتراط النشر بالموافَقة التي تستغرق مسارًا بيروقراطيًّا طويلًا، إذا تمّت الموافقة عليها أصلًا. أحيانًا، يستغرق هذا الأمر أسابيع، وبالتالي تَحُول الإجراءات الطويلة دون توزيع هذه الإصدارات، وذلك لتأخُّر الوقت وعدم مناسبتها للحدث (أي إنّها تقوم بسياسات ضبط على نحوٍ مختلف).

أمّا في جامعة بار إيلان، فهناك منع غير رسميّ لتشكُّل أيّ تحزُّك طلابي فلسطيني فيها؛ إذ منذ عام 2023 قُدِّم طلب رسميّ لتسجيل كتلة طلّابيّة باسْم "جفرا- التجمّع الطلّابيّ" في الجامعة، ولا زالت الجامعة على مدار هذه الفترة الطويلة تماطل

3. تبلغ نسبة الطلبة العرب في جامعة حيفا نحو 44% مِن طلبة البكالوريوس، وَ33% من طلبة الماجستير والدكتوراة (دائرة الإحصاء المركزيّة، 2023).

وترفض الموافَقة على إقامة هذا الجسم داخل الجامعة، وفي الوقت ذاته تنشط بعض الكتل الطلّابيّة اليمينيّة التي تعمل وسط تعاون وثيق مع إدارة الجامعة والنقابة الطلّابيّة فيها. وقد تقدّم مؤخّرًا مركز عدالة القانونيّ بطلب رسميّ للجامعة بوقف هذه المماطلة وتسجيل الكتلة في الجامعة (عدالة، 2024).

شكّلت هذه المرحلة تحدّيات عظيمة أمام العمل الطلّابيّ الفلسطينيّ في الجامعات الإسرائيليّة، وبات واضحًا لمن يعمل في الحقل الطلّابيّ أنّ الرقابة وسياسات الضبط والملاحَقة، بل التهديد كذلك، هي عنوان هذه المرحلة، وقد يكون في هذا تأكيد على حجم وتأثير الحركة الطلّابيّة. قابلت الحركات الطلّابيّة هذه السياسات بصلابة وأظهرت تمسُّكًا وتماسكًا، وقامت بتحرُّكات جريئة في ظلّ واقع صعب وتحدّيات كبيرة. استطاعت الحركة الطلّابيّة، في تلك الفترة، أن تفرض نفسها لاعبًا مؤثّرًا في الساحة السياسيّة على صعيد المجتمع الفلسطينيّ في الداخل والتعامل من قِبل المؤسَّسة معها. وقد وصلت الأمور إلى حدّ عَقْد جلسات برلمانيّة في طارئة في الكنيست ومداولات في اللجان المختلفة وتقديم اقتراحات قوانين كردّ فعل مباشر على نشاطات الحركة الطلّابيّة السياسيّة والوطنيّة في الجامعات الإسرائيليّة.

الحركة الطلّابيّة والحرب على قِطاع غزّة

يمكن اعتبار السياسات والممارَسات التي اتّبعتها الجامعات الإسرائيليّة المختلفة قبل السابع من أكتوبر 2023 تمهيدًا لِما قامت به بَعده. فقد شهدت الأيّام الأولى من الحرب على قِطاع غزّة حملة من قِبل هذه الجامعات على طلبتها الفلسطينيّين، من مناطق الـ 48، بمشاركة النقابات الطلّابيّة الإسرائيليّة والزملاء اليهود الذي قاموا بدَوْر وُشاة على الطلبة العرب كما سنوضّح لاحقًا. يؤكّد هذا ما أشرنا إليه آنفًا: أنّ هذه السياسات والممارَسات لم تُخلَق من فراغ، بل هي استمرار وتصعيد مباشر للتحريض ومحاولات التشديد والقمع وملاحَقة العمل الطلّابيّ الوطنيّ الفلسطينيّ في الجامعات الإسرائيليّة على مدار السنوات التي سبقت بداية حرب الإبادة على قِطاع غزّة.

تصدّرت جامعة حيفا هذه الجولة من حملات التحريض، وبدأت حملةَ القمع هذه، التي انضمّت إليها عشرات الجامعات والمعاهد في إسرائيل، بدعم وتوجيه من وزير التعليم والأذرع الحكوميّة الرسميّة (حاج يحيى، 2023). ففي 12 تشرين

الأوّل 2023، أي بعد أقلّ من أسبوع على بداية الحرب، وجّه يوآڤ كيش، وزير التربية والتعليم الإسرائيليّ، رسالة إلى رؤساء المؤسَّسات الأكاديميّة يطالبهم بالتبليغ لمجلس التعليم العالي بشأن الخطوات التي اتّخذوها بالتعامل مع طلبة يعبّرون عن تأييدهم "للإرهاب" والتعامل معهم بيدٍ من حديد (وزير التربية والتعليم، 2023). على نحوٍ متزامن، استدعت الجامعات الإسرائيليّة أكثر من 150 طالبًا وطالبة لِلِجانٍ سُمّيت لجان الطاعة (بويرات، 2023ب). تناولت معظم هذه اللجان تُهَمًا للطلّاب والطالبات تتعلّق بمنشورات نُشِرت في وسائل التواصل الاجتماعيّ. تحوّلت معظم تلك اللجان إلى ما يشبه التحقيقات المخابراتيّة بشأن آراء الطلبة وتصوُّراتهم ومواقفهم السياسيّة دون علاقة مباشرة بمضمونِ ما نشروه (لجنة المتابعة والتوثيق في الهيئة الطلابية المشتركة، 2024).

طرحت لجان الطاعة على الطلبة[4] -في أساس ما طرحت- أسئلة سياسيّة وفكريّة لا تتعلّق بتاتًا بنصّ المنشور أو فحواه، بل أخذت منحًى آخَر بغية الإيقاع بالطلبة ووضْعهم في خانة الاتّهام. من الجدير بالذكر أنّ أكثر من 90 بالمئة من الملفّات كانت عن مشارَكات لقصص (stories) على حساباتهم في منصة إنستـچـرام، والتي على إثرها فُصِل عشرات الطلبة فصلًا نهائيًّا أو مؤقَّتًا، لفصل دراسيّ أو لفصلَيْن (لجنة المتابعة والتوثيق في الهيئة الطلابية المشتركة، 2024). ورغم تبرئة عشرات الطلبة في الكلّيّات والجامعات وإغلاق الملفّات ضدّهم بعد انعقاد هذه اللجان، فإنّ انعقاد لجان الطاعة، الذي رافقه نشرُ أسماء الطلبة، وضعهم في خطر شديد بسبب التحريض عليهم، والذي بلغ حدّ إهدار دمهم بين زملائهم الطلبة اليهود، على نحوٍ ما حصل من اعتداء جسديّ وتعريض حياة الطلبة العرب للخطر في مساكن الطلبة في كلّيّة نتانيا (بويرات، 2023أ).

وقد حُرِم الكثير من الطلبة من مواصلةَ تَلقّي دراستهم، بل مجرَّدَ الوصول إلى الحرم الجامعيّ، بعد كمّ كبير من التهديدات التي كانت تصلهم بعد نشر أسماء كثيرين منهم وصور منشوراتهم في وسائل التواصل الاجتماعيّ. وصل التحريض على الطلبة إلى لجنة التعليم في الكنيست؛ فقد عقدت اللجنة جلسةً ناقشت فيها قضيّة الطلبة العرب "داعمي الإرهاب"، كما ورد في نص الدعوة لعَقْد لجلسة.

4. في هذه اللجان، مثَّلَ الطلبةَ في غالبيّة الملفّات مركزُ عدالة القانونيّ، بالتعاون مع محامين متطوّعين ومراكز قانونيّة منها مركز الميزان، بالإضافة إلى عدد من المحامين المتطوّعين الذين أسهموا في الدفاع عن الطلبة ومرافَقتهم في هذه اللجان.

سادت في هذه الجلسة أجواء تحريضيّة، وذُكِرت خلالها أسماء بعض الطلبة العرب وحُرِّض عليهم، بل لقد بلغ الأمر حدّ التحريض على الجامعات ذاتها بذريعة أنّها حتّى تلك اللحظة لم تَقُمْ بطرد هؤلاء الطلبة. كذلك أتاحت لجنة التعليم عرض شرائح فيها أسماء وصور الطلبة وسط جوّ تحريضيّ لحِقَ بالطلبة العرب كافّة واتّهامات مختلفة لهم (قناة الكنيست، 2024أ).

أسهَمَ اتّحاد النقابات الطلّابيّة الإسرائيليّة، وهو المنتخَب مباشرةً من قِبل أعضاء مجالس النقابات في جميع الجامعات والكلّيّات في إسرائيل، في تصعيد التحريض على الطلبة العرب، حيث قام بإنشاء غرفة إدارة طوارئ يقوم من خلالها طلبة الجامعات اليهود بمراقبة زملائهم من الطلبة العرب ومنشوراتهم على مواقع التواصل الاجتماعيّ، كي يحاسَبوا لاحقًا (اتحاد النقابات الطلّابيّة الإسرائيليّة، 2023).

بالإضافة إلى هذا، توجّه اتّحاد النقابات إلى وزير التربية والتعليم، يوآف كيش، برسالة يطالب فيها بنصّ مشروع قانون يُشَرْعِن إلزام المؤسَّسات الأكاديميّة باتّخاذ إجراءات فصل، دون دفع تعويضات، ضدّ أيّ عضو من أعضاء في السلك الجامعيّ "يجرؤ على التعبير عن أيّ نقد لإسرائيل وسياستها" (هآرتس، 2024).

تنسجم هذه الملاحَقات مع اقتراح قانون، دعمه اتّحاد النقابات الطلّابيّة (زرحياه، 2024)، وقدّم في تمّوز 2024 عضوُ الكنيست أوفير كاتس (قناة الكنيست، 2024ب)، يهدف إلى فصل أيّ عضو هيئة تدريس يعمل داخل المؤسَّسة إذا أعرب عن دعمه لمنظَّمة إرهابيّة أو عمل إرهابيّ أو كفاح مسلَّح من قِبل دولة معادية أو من قِبل أفراد ضدّ دولة إسرائيل أو يحرّض على الإرهاب (الكنيست، 2024).

من الجدير بالذكر أنّ الجامعات الإسرائيليّة رفضت اقتراح القانون هذا في موقف إجماع أصدره منتدى رؤساء الجامعات (ديتيل، 2024). ويمكن تفسير موقف منتدى رؤساء الجامعات هذا بأنّه نابع من قلقه من الحملة الدوليّة الواسعة التي كانت تعاني منها الجامعاتُ الإسرائيليّة في تلك الفترة، إثر الحراك الطلّابيّ العالميّ الناشط والداعم لفلسطين والـمُطالِب بقطع العلاقات مع إسرائيل وإيقاف العلاقات مع الجامعات الإسرائيليّة. ويمكن دعم هذا الترجيح على ضوء نجاح هذه الضغوطات في إلغاء مشاريع مشترَكة للجامعات الإسرائيليّة مع مؤسَّسات أكاديميّة وجامعات في العالم، والضرر الماليّ الإستراتيجيّ، والإضرار بسمعة الأكاديميا الإسرائيليّة جرّاء ذلك. إذ يؤكّد تقرير نُشِر في صحيفة هآرتس،

يعتمد في معطياته على لجنة رؤساء الجامعات الإسرائيليّة، أنّ ثمّة تعاظُمًا في حالات المقاطعة الأكاديميّة ضدّ الباحثين الإسرائيليّين، وصعوباتٍ في التعاون الأكاديميّ مع المؤسَّسات الأكاديميّة حول العالم. ويشير التقرير أنّه في الفترة الواقعة بين 7 تشرين الأوّل 2023 وَ7 تشرين الأوّل 2024، جرى الإبلاغ عن 300 شكوى من حالات مقاطَعة من قِبل المؤسَّسات الأكاديميّة في إسرائيل (أودم، 2024)، وفي الفترة ما بين تشرين الأوّل 2024 حتّى شباط 2025، كان هنالك أكثر من 200 شكوى من الجامعات الإسرائيليّة بشأن حالات مشابهة (عوفـاديا-كدري، 2025).

لقد أقلق هذا السيناريو رؤساء الجامعات بشكل بالغ، وعبّروا عنه على نحوٍ دائم ومستمرّ خلال لقاءاتهم في اجتماعات رسميّة.[5] وقد يكون لقبولهم بمثل هذا القانون أن يزيد الطين بلّة وقد يزيد الضرر الذي اتّضح أنّ الجامعات بدأت تعاني منه في تلك الفترة.

يمكن ربط هذا الموقف، رفض رؤساء الجامعات بعض مقترَحات القوانين بالرغم من كونهم شركاء في الممارسات القمعيّة، مع سياسة الاحتواء والدمج التي انتهجتها المؤسَّسة الإسرائيليّة في العَقدَيْن الأخيرَيْن، وعلى وجه التحديد مع الطلبة العرب، والتي تأتي يدًا بيد مع سياسة الضبط الاقتصاديّ وتعزيز حالة من الوعي المصلحيّ المبتور بالمواطَنة الإسرائيليّة. تظهر هذه السياسات من خلال مشاريع مختلفة أقرّتها الحكومة الإسرائيليّة، وعلى رأسها رفع نسبة الطلبة العرب في مؤسَّسات التعليم العالي من خلال إطلاق مشاريع ومبادَرات عديدة عُرِفت ببرامج "تطوير مناليّة التعليم العالي للمجتمعات غير اليهوديّة". تماشت الجامعات مع هذه السياسات، وقامت بمَأْسَسة أقسام دمج ومتابعة الطلبة العرب في جميع الجامعات الإسرائيليّة، وقامت بتعيين نائبِ رئيس جامعة عربيٍّ، في جامعات حيفا وبئر السبع والقدس والتخنيون، مسؤولٍ عن قسم دمج الطلبة العرب.

تندرج هذه المشاريع تحت الخطّة الخمسيّة التي أقرّتها الحكومة الإسرائيليّة والبالغة قيمتها 15 مليار شيكل (ما يعادل 4 مليارات دولار)، والتي تهدف إلى "تطوير" المجتمع العربيّ في مجالات التعليم، والصناعة، ودعم المجالس

5. شارك الباحث، كمركّز في الهيئة الطلّابيّة المشتركة، في عددٍ من هذه الاجتماعات.

المحلّيّة والإسكان والأمن الداخليّ، واحتواء أبناء هذا المجتمع اقتصاديًّا، وهو ما يُعَدّ أسلوبًا مؤسَّساتيًّا يرمي إلى احتواء اقتصاديّ لكبح جِماح النشاط السياسيّ والوطنيّ، ولا سيّما في قِطاعات الشباب، في المجتمع الفلسطينيّ في مناطق الـ 48. (ديوان رئيس الحكومة، 2016).

الهيئة الطلّابيّة المشترَكة للكتل الطلّابيّة

تشكّلت الهيئة الطلّابيّة المشترَكة للكتل الطّلابيّة في ظلّ هذه الأجواء وحالة الحرب المستمرّة التي عانى فيها الطلبة الجامعيّون الفلسطينيّون في مناطق الـ 48 معاناة كبيرة. ومن خلال قراءة الحركات الطلّابيّة لِما هو آتٍ، منذ بداية لجان الطاعة ومقدار التحريض الهائل، جاءت المبادرة لإقامة هيئة طلّابيّة وحدويّة، تتشكّل من سبعة وعشرين حراكًا طلّابيًّا فاعلًا، وشكّلت جسمًا يشمل الحراكات الطلّابيّة كافّة، وكان الهدف المركزيّ للهيئة التعامل مع الظروف المعقَّدة التي يعيشها الطلبة الفلسطينيّون في الجامعات الإسرائيليّة. انطلقت اللجنة رسميًّا في أعقاب مبادرة الحركات الطلّابيّة الناشطة في مناطق الـ 48 إلى اجتماعٍ عُقِد في 14 تشرين الأوّل 2023 في مكاتب لجنة المتابعة العليا، وذلك ابتغاء تنظيم الطلبة ومحاولة حمايتهم ورفع صوتهم وتشكيل جسم يعمل بالتعاون مع جهات قانونيّة ودوليّة للتصدّي لهذه الحملة الواسعة التي طالت طلبة الداخل الفلسطينيّ الذين يَدرسون في الجامعات الإسرائيليّة. شمل البيان الأوّل بضعة مواضيع أهمُّها:

> بناء وتنظيم هيئات طلّابيّة محلّيّة في مختلف الجامعات، لمجْمَل الحركات الطلّابيّة لتوسيع التواصل وتوحيد الجهود كما وتشكيل ضغط على الجامعات والكلّيّات ذات الصلة، بهدف منع استمرار التواطؤ مع الحملة على الطلبة العرب وبناء شراكة مع الحركات الطلّابيّة العالميّة لمنع الاستفراد بالطلبة العرب في الجامعات الإسرائيليّة. (الهيئة الطلّابيّة المشتركة، 2023أ).

تبعت الاجتماعَ والبيانَ التأسيسيَّ اجتماعاتٌ في مختلف الجامعات والكلّيّات، وتشكيلُ لجان طلّابيّة محلّيّة في كلّ حرم جامعيّ على حِدَة. عملت هذه اللجان بالتنسيق مع لجنة المتابعة العليا والهيئة العربيّة للطوارئ التي واصلت العمل على نحوٍ مكثّف في فترة الحرب والحملة على الطلبة العرب، في محاولة

لِمَأْسَستها وإعادة الاعتبار للهيئات التمثيليّة الطلّابيّة التي فُقِدت منذ سنوات.[6]

شملت هذه الهيئة سبعًا وعشرين حركة طلّابيّة فاعلة في مختلف الجامعات، وعملت، كما جاء في البيان التأسيسيّ، في سبيل حماية الطلبة وتنسيق العمل لتشكيل شبكة أمان لهم، وأهمّ ما قامت به هو المرافَعة الدوليّة، التي كانت من خلال التواصل مع جهات دوليّة عديدة والجامعات الشريكة للجامعات الإسرائيليّة والسفراء والدبلوماسيّين، بغية وقف حملة استهداف الطلبة العرب في الجامعات الإسرائيليّة لناء على موقفٍ أو منشور في وسائل التواصل الاجتماعيّ (عرب48، 2023ث). شكّلت هذه الخطوة تحوُّلًا في العمل الطلّابيّ، الذي لطالما انحصر داخل أسوار الجامعات، ليأخذ منحًى دوليًّا، وهو ما كان تحوّلًا هامًّا إلى حدٍّ كبير وأدّى إلى كبحٍ ما لحمْلة ملاحَقة الطلبة العرب، وأهمّها إعادة الطلبة في نتانيا إلى مساكنهم بعد تعنُّت إدارة المساكن بشأن عدم السماح بعودتهم بعد الاعتداء عليهم من قِبل أقطاب اليمين الفاشيّ، وقد تغيَّرَ موقف الكلّيّة في نتانيا على إثر ضغط قانونيّ محلّيّ ودوليّ من خلال جامعات شريكة لها (عوفـاديا-كدري؛ وأبو لبن، 2023).

نجحت هذه المحاولات بسبب تخوُّف المؤسَّسات الأكاديميّة في إسرائيل من المقاطعة ووقف تعاونها العلميّ والأكاديميّ مع جامعات العالم المختلفة، وهذا ما حاولت الهيئة الطلّابيّة المشتركة استغلاله كأحد أهمّ العوامل الضاغطة الذي بدأ يُقلِق كذلك مؤسَّسات الدولة بصورة عامّة.

في كانون الأوّل 2023، أجرت الهيئة الطلّابيّة المشتركة استطلاعًا واسعًا في أوساط الطلبة شارك فيه أكثر من 800 طالب وطالبة من مختلف الجامعات والكلّيّات، عبّر فيه الطلبة بنسبة تقارب 50% عن عدم ثقتهم بالجامعات التي يَدْرسون فيها، وبنسبة أكثر من 70% أنّهم يشعرون بالملاحَقة لكونهم عربًا يَدْرسون فيها، كما أكّد أكثر من 65% من الطلبة أنّ الجامعات وإداراتها لم تكن منْصِفة في التعامل معهم، وأنّهم عانَوْا من عنصريّة واضحة، وأكّد أكثر من 90% من المستطلَعين أنّ النقابة الطلّابيّة الإسرائيليّة لا تمثّلهم رغم كونهم يُجبَرون في الكثير من الجامعات على تمويل هذه النقابة سنويًّا من خلال قسط التعليم الجامعيّ (عرب48، 2023ج).

6. كمثال على لجنة طلّابيّة محلّيّة، انظروا: مجموعة الطلّاب والطالبات العرب في جامعة حيفا [الطلّاب والطالبات العرب في جامعة حيفا]. [د.ت]. **فيسبوك**. مجموعة الطلّاب والطالبات العرب في جامعة حيفا.

بالرغم من عمل الهيئة الطلّابيّة المشترَكة المهمّ، انحصر عملها في الدفاع عن النفس ومحاولة وقف الهجمة على الطلبة العرب في الجامعات، ولكنّها لم تبادر خلال الأشهر الستّة منذ بداية الحرب على قِطاع غزّة في تشرين الأوّل 2023 إلى نشاطات سياسيّة أو وقفات أو تظاهرات كما جرت العادة سابقًا في الأحرام الجامعيّة. وهو ما قد يعكس أنّ العمل الطلّابيّ الوطنيّ، الذي كان أساسه في السنوات السابقة رفع الوعي السياسيّ وتفعيل شريحة الطلّاب سياسيًّا، قد شهد حالة انكماش وخوف وتراجع معيَّن بسبب حالة القمع الواسعة على صعيد الداخل بصورة عامّة، والتي كان فيها الطلبة الجامعيّون من بين الفئات الأكثر تضرُّرًا.

شرارة العودة

عادت شرارة التحرُّك والفعل السياسيّ إلى الحركات الطلّابيّة في التظاهرة الطلّابيّة في الجامعة العبريّة بالقدس في 14 آذار 2024، والتي بدأت كوقفة ضدّ ملاحقة الـپـروفيسورة نادرة شلهوب-كيـڤـوركيان، المحاضِرة في الجامعة العبريّة بالقدس، واعتقالها (عرب48، 2024أ). وقد تحوّلت هذه الوقفة إلى صرخة ضدّ الحرب على قِطاع غزّة، أنشد فيها الطلبة نشيد "موطني" وعبّروا عن موقفهم الرافض للحرب من داخل الحرم الجامعيّ بالقدس، وهو ما قد يصحّ اعتباره بداية عفْويّة لإحلال تغيير في قواعد اللعبة التي حاولت السلطاتُ الإسرائيليّة فرْضَها؛ إذ لم يكن متاحًا، في ذلك الوقت وبعده، أن يتظاهر الطلبة داخل الأحرام الجامعيّة. تلتْ ذلك نشاطاتٌ أخرى في جامعة تل أبيب في إحياء ذكرى النكبة (بانيت؛ وصحيفة بانوراما، 2024). ورغم كونه نشاطًا متواضعًا في ظلّ عطلة الجامعة، إلّا أنّه كان ذا أهمّيّة كبيرة في هذه الظروف وليس بديهيًّا إطلاقًا في ظلّ أجواء الخوف والترهيب وفي خضمّ الحرب المستمرّة على قِطاع غزّة. منعت الشرطة في هذا النشاط رفع الأعلام الفلسطينيّة، غير أنّ حدث إحياء النكبة في جامعة تل أبيب جرى على الرغم من التحريض ومحاولات المنع والتضييق من قِبل الشرطة.

في أيّار 2024، بادرت الهيئة الطلّابيّة المشترَكة إلى إضراب لمدّة ساعة واحدة واعتصامات جرت في غالبيّة الجامعات، منها: الجامعة العبريّة في القدس؛ جامعة تل أبيب؛ معهد الهندسة التطبيقيّة ("التخنيون"- في حيفا)؛ جامعة بِنْ چـوريون في بئر السبع، "رفضًا للإبادة والمجازر المستمرّة بحقّ أهلنا في غزّة"- كما عبّر عن ذلك بيان الهيئة الطلّابيّة المشترَكة (عرب48، 2024ب).

في هذا الوقت، انتقلت الحركة الطلّابيّة من حالة الدفاع عن النفس إلى المبادَرة. في المقابل، قوبِلَت المبادرات بحظرٍ وعدم إعطاء تصاريح لنشاطات طلّابيّة سياسيّة -سواء أكان ذاك بالعلن أَمْ بالسرّ- من قِبل الجامعات الإسرائيليّة.

حاولت الجامعات، بشكل أو بآخر، تشكيل شبكات ضغط على الطلبة بوسائل مختلفة، من خلال محاضرين أو هيئات إداريّة أو مسؤولي الأمن في الجامعات، وكثر استخدام لهجة التهديد بأنّ أيّ نشاط سياسيّ من الممكن أن يكون لإقامته ثمنٌ باهظ جدًّا، وسيُمنع بالقوّة وإن استدعى ذلك إدخال الشرطة إلى الحرم الجامعيّ (وذاك يتنافى مع النظام الداخليّ للجامعات)؛ وهو ما أدّى بالحركات الطلّابيّة إلى إعادة النظر في بعض النشاطات التي كانت قد أعلنت عنها في الأسابيع التي تلت الإضراب.[7] في المقابل، شهدت تلك الفترة تصاعدًا أيضًا في محاولات الجامعات لاحتواء الطلبة الفلسطينيّين، فكان أن أكثرت إدارات الجامعات من الدعوة إلى عَقْد لقاءات حِواريّة مع مندوبي الحركات الطلّابيّة تحاول من خلالها "احتضانهم". تأتي محاولات "الاحتضان" هذه بغيةَ تقليل الضرر على الجامعات في أعقاب حالة التخوُّف التي تعيشها إداراتها على ضوء التحرُّك الطلّابيّ الدوليّ الذي وضع الجامعات الإسرائيليّة في خانة الاتّهام والدفاع عن النفس، ومحاولةً لمنع أيّ ضرر عالميّ.

يمكن فهم السياسات التي انتهجتها المؤسَّسة الأكاديميّة الإسرائيليّة تجاه الطلبة العرب ضمن سياسة العصا والجزرة؛ فهي لا تريد لهم أن ينشطوا ويتفاعلوا مع قضايا الشعب الفلسطينيّ في الأحرام الجامعيّة الإسرائيليّة التي تحوّلت إلى ثكنات عسكريّة من خلال حمل السّلاح فيها، وبخاصّة في فترة الحرب، وفي الوقت ذاته تحاول الحفاظ عليهم كونهم يشكّلون دخلًا اقتصاديًّا هامًّا لها. يضاف إلى هذا، الخطرِ المحْدِق بمكانة الجامعات الإسرائيلية عالميًّا في ظلّ سياسات التضييق والملاحَقة للطلبة العرب على وجه الخصوص.

خاتمة

شكّلت حملة الملاحَقة الأخيرة ذروة التضييق المؤسَّساتيّ الحكوميّ والجامعيّ على النشاط والفضاء الجماعيّ الوطنيّ الطلّابيّ الفلسطينيّ في الجامعات الإسرائيليّة، سواء أكان ذاك من خلال قَوْنَنة الممارَسات الفاشيّة أَمْ من خلال

7. حصل الباحث على هذه المعلومات من خلال دَوْره كمركّز لعمل الهيئة الطلّابيّة المشترَكة.

الممارَسات الإداريّة للجامعات التي تراوحت بين سياساتِ القمع الأشبه -إلى حدّ كبير- بِدَوْر الشرطة أو المحكمة، من ناحية، ومحاوَلاتِ التدجين والتطويع، من ناحية أخرى، تماشيًا مع خطط الدمج التعليميّ وإطلاق المبادَرات الاحتوائيّة تحت شعار "دمج العرب في التعليم العالي".

تعيش الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في مناطق الـ 48 ملاحَقة واسعة ومحاولات مستمرّة لتقييد عملها أو قصره على الجانب الخدماتيّ والاجتماعيّ دون الانخراط في الجانب السياسيّ. حيث لحقتْ كلَّ نشاط سياسيّ وطنيّ لهذه الحركة، يرتبط مع العمق الفلسطينيّ، هجماتٌ تحريضيّة، واستهدافٌ للطلبة بلغ حدّ الاعتقال، وهو ما برز على نحوٍ بالغٍ منذ بدء حرب الإبادة في السابع من أكتوبر 2023 التي رافقتها حملة واسعة تستهدف الطلّاب والطالبات العرب وتحرّض عليهم وتحاول ترهيبهم. أدّى هذا، في ما أدّى، إلى انحسار وتراجع في الأداء السياسيّ المناهِض للحرب منذ بداية حرب الإبادة على قِطاع غزّة على صعيد الحركة الطلّابيّة على وجه الخصوص، وعلى صعيد الداخل الفلسطينيّ على وجه العموم. حاولت الحركات الطلّابيّة، من خلال الانكفاء عن العمل السياسيّ، أن تَخْرج من هذه الأزمة بسلام، وهو ما مثّل موقف غالبيّة الحركات الطلّابيّة، وبالتالي يمكن الادّعاء أنّ حملة الملاحَقة السياسيّة نجحت إلى حدّ كبير في كبح جماح الحركة الطلّابيّة في العام الدراسيّ (2024/2023)، حتّى بلغت الأمور حدّ عزوف عدد من الناشطين الطلّابيّين المركزيّين فيها نتيجة التهديد والخوف، وفي بعض الأحيان بضغط من أوساطهم الاجتماعيّة، وكذلك خوفًا من الملاحَقة السياسيّة ودفع الثمن العالي المتوقَّع.

من الجدير بالتأكيد أنّ هذه الحالة لم تكن مفصولة عمّا كان من حملة تحريض واستهداف للحركة الطلّابيّة في ما قبل الحرب على قِطاع غزّة؛ فقد عانت الحركة الطلّابيّة أيضًا من ملاحَقة فعليّة وتضييق على عملها واستهداف لناشطيها وتهديدات متعدّدة من حركات يمينيّة فاشيّة، بالإضافة إلى تلك التهديدات التي صدرت من قيادات إسرائيليّة على منصّات الكنيست للطلبة العرب على نحوٍ خاصّ، فضلًا عن القوانين التي استهدفت نشاطها وعملت على كبح جماحها والحدّ من قدرتها على النشاط السياسيّ والوطنيّ ومنع الرموز الفلسطينيّة كالعلم وغيره.

رغم أنّ الحراك الطلّابيّ العالميّ كان بإمكانه أن يشكِّل ملهِمًا للحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في الداخل، وأنّ ناشطيها رأَوْه ملهِمًا حقًّا ومحطَّ تَباهٍ وتفاخُرٍ به، فقد شخّص هؤلاء الناشطون -بشكلٍ ما- حالةَ المؤسَّسة الإسرائيليّة خاصّة، والمجتمع الإسرائيليّ عامّة التي تسودها دعوات إلى الانتقام والتحريض والملاحَقة لكلّ صوتٍ يرفض الجرائم الإسرائيليّة المرتكَبة ضدّ الفلسطينيّين في قِطاع غزّة، واعتقدوا أنّه إذا جرى استنساخ الحراك الطلّابيّ في الجامعات الأمريكيّة والأوروبيّة فسيكون الثمن الذي سيدفعه الطلبة الفلسطينيّون باهظًا جدًّا.

عاشت الحركة الطلّابيّة الفلسطينيّة في مناطق الـ 48 في هذه الفترة تراجعًا لافتًا يُقِرّ به العديد من الناشطين والفاعلين، وعلى وجه التحديد في الأشهر الأولى التي أعقبت بداية حرب الإبادة (الأشهر التي شهدت ذروة الملاحَقة لشريحة الطلبة). وقد تقاطَعَ هذا التراجع تقاطعًا كبيرًا مع أداء القيادة السياسيّة للمجتمع العربيّ في الداخل والأحزاب السياسيّة الفاعلة فيه. ذلك لا يمكن إغفال التأثير المباشر لهبّة أيّار 2021 والثمن الباهظ الذي دفعه عشرات الشباب الفلسطينيّ في الداخل، وسنوات السجن والأحكام القاسية التي فُرِضت عليهم والتي عملت النيابة والمؤسَّسة الإسرائيليّة حثيثًا عليها كي تكون رادعًا للشباب الفلسطينيّ في الداخل، وعدم توافر دعم مجتمعيّ سياسيّ كبير لهم ولعائلاتهم.

مع هذا، كان نشاط الحركة الطلّابيّة، في بعض الحالات، نشاطًا شجاعًا ومتحدّيًا للمؤسَّسة الإسرائيليّة ومتلاحمًا مع الشعب الفلسطينيّ والتحدّيات التي يعيشها، ومعبّرًا عن هُويّته وانتمائه لهذا الشعب؛ إذ حاول البعض إقامة نشاطات تعكس مسارًا ووعيًا وطنيًّا يعيشه الشباب الفلسطينيّون في الداخل الفلسطينيّ.

يبقى المحكّ الحقيقيّ للحركات الطلّابيّة على نحوٍ خاصّ، وربّما للعمل السياسيّ والوطنيّ الفلسطينيّ في الداخل على وجه العموم، في الفترة القادمة هو محاولة النهوض ومواصلة النشاط والمناورة وعدم الرضوخ والقبول والاستسلام حيال السقف الذي فرضته المؤسَّسة الإسرائيليّة في السنوات الأخيرة التي سبقت الحرب على قِطاع غزّة وما أعقبها، وبخاصّة على ضوء التغيير الكبير الذي يمرّ فيه المجتمع الإسرائيليّ نحو فاشيّة أكثر وعنصريّة أكثر وتصاعُد العدائيّة لكلّ ما هو عربيّ وفلسطينيّ، والذي شاركت فيه أيضًا الجامعات الإسرائيليّة من خلال حملة كَمّ الأفواه والملاحَقة والتخابُر على الطلبة والمحاضِرات/ين. نعيش اليوم

حالة من التحدّي الهائل الذي من شأنه أن يحدّد مستقبل العلاقة بين الطلبة الفلسطينيّين والحركة الطلّابيّة والأكاديميّين الفلسطينيّينفي مناطق الـ 48 من ناحية، والمؤسَّسات الأكاديمّية الإسرائيليّة من ناحية أخرى.

المراجع

أودم، يعل. (2024، 10 تشرين الثاني). منذ الـ 7 أكتوبر: أكثر من 300 حالة مقاطَعة أكاديميّة ضدّ باحثين إسرائيليّين. **ماكو**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/yjjjpz5t

اتّحاد النقابات الطلّابيّة الإسرائيليّة [התאחדות הסטודנטים והסטודנטיות הארצית]. (2023، 11 تشرين الأوّل). داعمو الإرهاب لن يكونوا جزءًا من الأكاديميا. **فيسبوك**. [بالعبريّة]
https://shorturl.at/HBjyG

بانيت؛ وصحيفة بانوراما. (2022، 01 حزيران). الجبهة الطلابية: "نستنكر تمرير قانون منع رفع العلم الفلسطيني بالقراءة التمهيدية". **بانيت**.
https://tinyurl.com/58szfy8m

بانيت؛ وصحيفة بانوراما. (2024، 15 أيّار). الجبهة الطلّابيّة في جامعة تل أبيب تُحْيي ذكرى النكبة. **بانيت**.
https://tinyurl.com/kx79xkz5

بدوي، عبد القادر. (2023، 2 أيّار). "إمْ تِرْنْسُو: إمّا الصهيونيّة وإمّا الفناء": أشدّ جمعيّات اليمين الصهيونيّ تطرُّفًا وعنصريّة. **المشهد الإسرائيليّ، مدار- المركز الفلسطينيّ للدراسات الإسرائيليّة**.
https://shorturl.at/9Lcz6

براينر، يهوشوع (جوش). (2023، 08 كانون الثاني). بتوجيه بن چـڤـير، مفوَّض الشرطة شبتاي أمر ببدء العمل على منع رفع العلم الفلسطينيّ. **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/yvcdchmd

بويرات، أمير علي. (2023أ، 28 تشرين الأوّل). طلّاب عرب يتعرّضون لاعتداء من مجموعة متطرّفة وهتافات "الموت للعرب" في نتانيا. **عرب48**.
https://tinyurl.com/3tfner6x

بويرات، أمير علي. (2023ب، 15 تشرين الثاني). الجامعات الإسرائيليّة تستدعي 160 طالبًا عربيًّا خلال الحرب على غزّة: اعتقال طلبة بعد أسابيع من ذلك. **عرب48**.
https://tinyurl.com/5dwnsaxk

الجرمق الإخباريّ. (2023، 20 تمّوز). المصادقة على مشروع قانون لحظر حركات طلّابيّة فلسطينيّة. وجفرا: مستمرّون بعملنا الطلّابيّ. **الجرمق الإخباريّ**.
https://tinyurl.com/44trw9mw

حاج يحيى، ضياء. (2023، 09 تشرين الأول). طلّاب من جامعة حيفا لموقع عرب48: ما يحدث هو انتقام من الطلّاب العرب. **عرب48**.
https://tinyurl.com/28dmtp4u

دائرة الإحصاء المركزيّة. (2023، 28 كانون الأوّل). التعليم العالي في إسرائيل- معطيات منتقاة للسنة التعليميّة (2022/ 2023) لافتتاح سنة التعليم الأكاديميّة. **دائرة الإحصاء المركزيّة**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/5n87acxe

دلّاشة، عمر. (2023، 15 أيّار). إحياء ذكرى النكبة في جامعة تل أبيب. **عرب48**.
https://tinyurl.com/2p9jfhmy

ديتيل، ليئور. (2024، 17 حزيران). لجنة رؤساء الجامعات: اتّحاد الطلّاب يقدّم "إسكات أفواه المحاضرين". **دي ماركر**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/mr3tjua4

ديوان رئيس الحكومة الإسرائيليّ. (2016، 26 تمّوز). الحكومة تقرّ خطّة الوسط العربيّ: تكلفة الخطّة نحو 15 مليار شيكل. **ديوان رئيس الحكومة الإسرائيليّ**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/yh9686rk

زرحياه، تْسْـفِـي. (2024، 10 تمّوز). المصادقة بالقراءة الأولى على مقترح قانون يُلزِم بإقالة عضو هيئة تدريس محرِّض على الإرهاب. **كَلْكَلِسْت**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/4f4awhjs

شاليـف، طال. (2022، 01 حزيران). القانون الذي قسم الائتلاف الحكوميّ: منع رفع الأعلام الفلسطينيّة بالقراءة التمهيديّة. **والا**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/bdd6jren

عدالة. (2024، 14 تشرين الثاني). تسجيل الكتلة الطلّابيّة جفرا في جامعة بار إيلان. **رسالة مركز عدالة القانونيّ لإدارة جامعة بار إيلان**. (محفوظة لدى الباحث). [بالعبريّة]

عرب48. (2022أ، 15 أيّار). "جامعة تل أبيب: اعتقال طلّاب عرب ومشاركة واسعة بمراسيم النكبة". **عرب48**.
https://tinyurl.com/yck7h2hu

عرب48. (2022ب، 17 أيّار). تمديد اعتقال الطالب في جامعة تل أبيب أحمد جبارين ليوم واحد. **عرب48**.
https://tinyurl.com/7md2w7au

عرب48. (2022ت، 02 حزيران). الكنيست يصادق على قانونَيْن يستهدفان وجود الشعب الفلسطينيّ وعَلَمه. **عرب48**.
https://tinyurl.com/yckxw4ua

عرب48. (2023أ، 15 شباط). جامعة تل أبيب تردّ طلب حركة "إمْ تِرْتْسُو" بحظر كتلة جفرا- التجمّع الطلّابيّ. **عرب48**.
https://tinyurl.com/ym2pu22r

عرب48. (2023ب، 09 آذار). جامعة بئر السبع تلغي الإجراءات ضدّ طالبة استخدمت كلمة شهداء. **عرب48**.
https://tinyurl.com/y5dhwtc7

عرب48. (2023ت، 19 آذار). جامعة تل أبيب تمنع حركة جفرا من تنظيم معرض كتاب للطلّاب العرب. **عرب48**.
https://tinyurl.com/3ax2n3my

عرب48. (2023ث، 29 تشرين الأوّل). الهيئة المشترَكة تدوّل قضيّة ملاحَقة الطلّاب العرب في المعاهد والجامعات. **عرب48**.
https://tinyurl.com/m4vmxdts

عرب48. (2023ج، 27 كانون الأوّل). استطلاع: 76% من الطلّاب العرب لا يثقون بإدارة الجامعة أو الكلّيّة. **عرب48**.
https://tinyurl.com/jdfe2dcz

عرب48، (2024أ، 14 آذار). وقفة احتجاجية ضد إيقاف بروفيسور نادرة شلهوب كيفوركيان عن العمل بالجامعة العبرية. **عرب48**.
https://tinyurl.com/3ub5ufkc

عرب48. (2024ب، 27 أيّار). الهيئة الطلّابيّة المشترَكة تدعو إلى إضراب طلّابيّ ردًّا على المجازر في غزّة. **عرب48**.
https://tinyurl.com/47awa9h9

عوفـاديا-كدري، شيرا؛ وأبو لبن، نادين. (2023، 30 تشرين الثاني). إدارة مساكن الطلّاب في كلّيّة نتانيا بدأت بإعادة الطلّاب العرب الذين أُخرِجوا بضغط من البلديّة. **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/yc49jdy4

عوفـاديا-كدري، شيرا. (2025، 25 شباط). الجامعات تبلّغ عن مئات حالات المقاطَعة الأكاديميّة وصعوبات في التعاونات في العالم. **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/anbz94ee

غسّان، ديمة. (2018، 08 نيسان). الحركة الطلّابيّة في الداخل الفلسطينيّ المحتلّ ومعركة الوجود والصمود. **نون پـوست**.
https://tinyurl.com/4ukhxyey

قناة الكنيست. (2022أ، 16 أيّار). جلسة الهيئة العامّة للكنيست- قسم ج. **قناة الكنيست**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/ydpfry49

قناة الكنيست. (2022ب، 23 أيّار). جلسة الهيئة العامّة في الكنيست- قسم ج. **قناة الكنيست**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/bdh8mz9e

قناة الكنيست. (2024أ، 02 تمّوز). جلسة لجنة التعليم، الثقافة والرياضة- قسم أ. **قناة الكنيست**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/5n7vtsmr

قناة الكنيست. (2024ب، 10 تمّوز). الهيئة العامّة للكنيست- قسم أ. **قناة الكنيست**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/yc424sy2

الكنيست. (2024، 24 حزيران). مشروع قانون مجلس التعليم العالي (تعديل- فصل أعضاء هيئة التدريس بسبب التحريض على الإرهاب أو دعمه وخفض الميزانيّة)، 2024. **الكنيست**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/mpmywyke

لجنة المتابعة والتوثيق في الهيئة الطلابية المشتركة. (2024، كانون الثاني). عمل الهيئة الطلّابيّة المشترَكة والهيئة العربيّة للطوارئ. **الهيئة الطلّابيّة المشترَكة**. (محفوظ لدى الباحث).

مجلس التعليم العالي. (2023، 28 كانون الأوّل). افتتاح سنة التعليم الأكاديميّة 2024/2023. **مجلس التعليم العالي**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/nhcfzsx5

مصطفى، مهنّد. (2002). **الحركة الطلّابيّة العربيّة الفلسطينيّة: دراسة نظريّة وتاريخيّة في جدليّة الجامعة والسياسة**. أمّ الفحم: مركز الدراسات المعاصرة.

مصطفى، مهنّد. (2011). **الحركة الطلّابيّة العربيّة في الجامعات الإسرائيليّة**. اقرأ، الجمعيّة العربيّة لدعم التعليم في المجتمع العربيّ.

هآرتس. (2024، 09 حزيران). عارٌ على الطلّاب الجامعيّين. **هآرتس**.
https://tinyurl.com/59vwyv32

الهيئة الطلّابيّة المشتركة. (2023أ، 14 تشرين الأوّل). بيان تأسيسيّ. **الهيئة الطلّابيّة المشترَكة**. (محفوظ لدى الباحث).

وزير التربية والتعليم. (2023، 12 تشرين الأوّل). التعامل مع حالات التحريض على الإرهاب لطلّاب وعاملين في المؤسَّسات الأكاديميّة. **رسالة وزير التعليم لرؤساء الجامعات والكلّيّات**. (محفوظة لدى الباحث). [بالعبريّة]

الباب الثالث
دراسـات

فلسطينيّو الـ48 وصفقة التبادل بعد السابع من أكتوبر 2023: بين مواطَنة العدوّ والمواطَنة العارية

محمّد عوّاد

مقدّمة

شكّل السابع من أكتوبر 2023 حدثًا مؤسِّسًا في فَهْم النظام الإسرائيليّ لذاته، وفي فَهْم علاقته مع الفلسطينيّين في جميع أماكن وجودهم، وعلى وجه التحديد مع فلسطينيّي الـ48 حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة.

إبّان حرب الإبادة على غزّة، مارست إسرائيل ممارسات قمعيّة ضدّ الفلسطينيّين الذين فيها. فقد قامت باعتقالات على خلفيّة ممارسات تعبّر عن تضامن مع شعبنا في غزّة أو تندّد وترفض العدوان الدمويّ على غزّة، وبتجريم الخطاب السياسيّ وإعادة ضبطه من الداخل ضمن ما يتلاءم مع سيادة النظام الإسرائيليّ. كلّ هذه الممارسات تَحْدو بنا إلى إعادة التفكير في جوهر المواطَنة الإسرائيليّة التي مُنِحت للفلسطينيّين في إسرائيل، وإعادة مَفْهَمتها معرفيًّا وبناء إطار تحليليّ معرفيّ يفهم المواطَنة الإسرائيليّة ضمن الحدث المؤسِّس الجديد في السياسة الإسرائيليّة: السابع من أكتوبر 2023.

ذروة الممارسات الاستثنائيّة تمثّلت في عَقْد حكومة إسرائيل صفقة مع حركة حماس، المعرَّفة حسب القانون الإسرائيليّ بأنّها حركة إرهابيّة، بموجِبها أُفرِج عن معتقَلات فلسطينيّات يحملن المواطَنة الإسرائيليّة كنّ قد اعتُقِلن على خلفيّة ما يسمّى التحريض على الإرهاب، والتماثل من منظَّمة إرهابيّة، ودعم الإرهاب، وذلك

مقابل الإفراج عن مخطوفين يحملون المواطَنة الإسرائيليّة، جرى اختطافهم في 7 أكتوبر 2023. (القدس العربي، 2024).

تطرح الورقة التساؤلات التالية: ما هي طبيعة هذه المواطَنة التي تسمح باعتقال "مواطن" مارَسَ حقّه في التعبير، من خلال استخدام قانون مكافحة الإرهاب، أي مَوْضَعته في خانة العدوّ؟ وماذا يعني أن تتفاوض دولة، مع العدو، من أجل إطلاق سراح مواطنين خطفوا وأُسِروا، في غزّة، مقابل الإفراج عن مواطنين اعتُقِلوا في السجون الإسرائيليّة؟ ذاك يفرض طرح السؤال: كيف شكّلت المواطَنة في الحالة الأولى عبئًا على صاحبها، وفي الحالة الثانية طوق نجاة؟ سأحاول الحفر في طابع المواطَنة الإسرائيليّة التي مُنِحها الفلسطينيُّ في إسرائيل؛ ما هي حدودها وما هو جوهر علاقتها بالنظام الإسرائيليّ؟

سأحاول في الجزء الأوّل من الورقة، واعتمادًا على نظريّة كارل شميت بشأن مفهوم السياسيّ، التوضيحَ أنّ اعتقال الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة لم يكن مسألة قانونيّة، بل مسألة سياسيّة بوصفها تجذيرًا وتكريسًا للتمييز بين الصديق والعدوّ في النظام الاسرائيليّ، منذ عام 1948، وأنّ السابع من أكتوبر 2023 أعاد استحداث ما حصل في عام 1948 من وجهة نظر إسرائيل اتجاه المواطنين الفلسطينيين.

الفصل الثاني يحاول أن يجادل بأنّ إدراج فلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة ضمن صفقة التبادل، في سبيل الإفراج عن مواطنين مختطفين في غزّة، يؤكّد أنّ المواطن الفلسطينيّ عبارة عن "إنسان مستباح" بحسب أجـامبين. والإنسان المستباح بحسب أجـامبين[1] هو الذي اختُزِل وجوده إلى "الحياة العارية" وجُرِّدَ من كلّ حقّ؛ أي إنّ فلسطينيّي الـ48 جرى تضمينهم واستبعادهم في الوقت نفسه. ضُمِّنت حياتهم العارية داخل النظام السياسيّ، واستُبعِدت حياتهم المؤهَّلة الشرعيّة والمعترَف بها والتي من خلالها يمارَس فعل سياسيّ اجتماعيّ. فقد جاء تضمينهم تعبيرًا عن كونهم موضوعًا لممارَسة سيادة النظام الإسرائيليّ، وجاء استبعادهم بوقوع حالة الاستثناء.

1. يستقي أجـامبين المصطلح والشخصيّة من القانون الرومانيّ القديم، حيث الهوموساكر هو الفرد الذي قد يُقتل بيد أيّ شخص دون إدانة الأخير بجريمة القتل، وذلك لكون الأوّل مستبعَدًا في المجتمع.

معنى هذا أنّ مواطَنة الفلسطينيّ في إسرائيل عارية، وبالتالي يستحيل أن يكون محميًّا بواسطة القانون، بل هو مطرود من حمايته، وكلّ هذا ابتغاءَ تأبيد هَيْمَنة سيادة النظام الاسرائيليّ.

مواطَنة العدوّ وتجذير السياسيّ

يتناول هذا الجزء من الورقة مفهوم السياسيّ لدى كارل شميت المتضمَّن في مفهوم الدولة والسابق والمؤسِّس لها، والذي بناء عليه تقوم الدولة على مبادئ تأسيسيّة سابقة لها، تصوغ النظام القانونيّ الذي يميّز بين العدوّ والمجرم كمكانات قانونيّة مختلفة ويحدّد الفجوة بالتعامل معهما. أستخدم هذه المفاهيم لأُسقطها على المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل ما بعد السابع من أكتوبر 2023 بوصفهم أعداءً بحسب النظام القانونيّ الإسرائيليّ.

هذا التأطير سيساعدنا في فَهْم فعل الاعتقالات التي طالت الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة في ظلّ رفضهم حرب الإبادة على غزّة، وفي فَهْم طبيعة التهم المنسوبة لهم، على العكس من التهم المنسوبة للمواطنين اليهود ضمن حراكهم وفعلهم السياسيّ الـمُطالِب بوقف الحرب وعَقْد صفقة التبادل على نحوٍ فوريّ.

في مفهوم السياسيّ لدى كارل شميت

يستهلّ كارل شميت كتابه "مفهوم السياسيّ" بمقولته التأسيسيّة "يَفترض مفهومُ الدولة مفهومَ السياسيّ" (شميت، 2017، ص. 67)؛ أي إنّ السياسيّ يسبق الدولة، بل إنّ مفهوم السياسيّ مؤسِّس لجميع المفاهيم في الدولة- القانونيّ منها والأخلاقيّ والاقتصاديّ.

يحاول كارل شميت أن يزعزع المفاهيم الكلاسيكيّة التي ترسّخت بشأن مفهوم الدولة وبنْيتها، باعتراضه على محاولة حصر تعريف الدولة في أنّها تعبير عن وضعيّة سياسيّة لشعب منظَّم على أرض موحَّدة، مشيرًا إلى أنّ هذا التعريف مجرَّد تعيين أوّليّ للدولة وليس تعريفًا لها (شميت،2017). فبحسب طرحه، ما دمنا بصدد محاولة الإجابة عن ماهيّة السياسيّ، فإنّنا لسنا بحاجة إلى تناول سؤال تعريف وبنْية الدولة (شميت، 2017).

ويضيف كارل شميت أنّ التمييز النوعيّ للسياسيّ، الذي يمكن أن تُعْزى إليه الأفعال والبواعث السياسيّة كافّة، هو التمييز بين الصديق والعدوّ (شميت، 2017، ص. 75). يشير شميت إلى أنّ هذا التمييز مستقلّ بذاته، له منطقه وأدواته المعرفيّة الخاصّة به، وغير خاضع لأيّ معيار آخر، ولا يمكن اشتقاقه من أيّ معيار آخر. هذا الاصطفاف بين الصديق والعدوّ أنطولوجيّ وجوديّ ومتأصّل في بنْية الدولة، بل سابق لها. في هذا الصدد، تصبح الدولة مجرّد أداة لتأبيد الاصطفاف الثنائيّ بين الصديق والعدوّ.

حول مدى تأصُّل هذا المفهوم في جوهر الجماعات السياسيّة، ومدى محوريّته في السياسة، يشير كارل شميت إلى أنّه "طالما وُجِد شعب ما في الحيّز السياسيّ فلا بدّ له أن يميّز بنفسه عدوّه عن صديقه، وفي هذا تحديدًا يكمن الوجود السياسيّ لأيّ شعب. وحالَمَا تتبدّد قدرته أو إرادته لإنجاز هذا التمييز، يتوقّف عن كونه سياسيًّا" (شميت، 2017، ص. 102).

من هو العدوّ، إذًا، بحسب شميت؟ يشير شميت إلى أنّ العدوّ هو جماعة من الناس تحمل بالضرورة إمكانيّة القتال الواقعيّة في مقابل جماعة أخرى حالها كذلك (شميت، 2017، ص. 87).

كيف يمايز شميت الجماعات السياسيّة؟ وما الذي يجعل الجماعة السياسيّة موحَّدة بحسب طرحه؟ الحقّ في الموت هو أحد مميّزات الجماعة السياسيّة الموحَّدة؛ إذ إنّ الإشارة إلى إمكانيّة القتل الواقعيّة، هذه الإشارة وحدها تمنح مفهومَ "التمييز بين الصديق والعدوّ" والصراعَ معناهما المتينَ (شميت، 2017، ص. 83). التضحية وإمكانيّة القتل والموت في سبيل الجماعة السياسيّة الموحَّدة، كاحتماليّة واقعيّة، هما ركن أساسيّ يقعان في صُلب السياسيّ بحسب شميت، وما يوحّد الجماعةَ السياسيّةَ الإمكانيّةُ الواقعيّةُ للقتل. بالتالي، ما يضمن للفرد عضويّةً داخل الجماعة السياسيّة -بحسب شميت-، أي تحصيل حقوق، هو الإمكانيّة الواقعيّة للقتل من أجل الجماعة السياسيّة. هذه الفكرة تتعارض تعارضًا مطلقًا مع فكرة المواطَنة الديمقراطيّة المتساوية، كأساسٍ مشروعٍ لمنح الأفراد الحقوقَ على قَدم المساواة.

لذا، بحكم هذا التعريف، تتباين الجماعة السياسيّة الموحَّدة وتتمايز عن عدوّها السياسيّ؛ فأعضاؤها يعبّرون عن رغبتهم بالتضحية من أجل حماية الهُويّة السياسيّة وروح الجماعة ورؤيتها وتاريخها السياسيّ. المقصود أنّ الجماعة

السياسيّة ليست بحاجة إلى قاعدة قانونيّة، أو إطار قانونيّ، لتعريفها وقَوْنَنتها، لأنّه بدون الجماعة السياسيّة يفقد القانون والدستور مبرّرات وجودهما؛ فهما يجسّدان مفهوم السياسيّ، ويسعيان إلى تأصيل التمييز بين الصديق والعدوّ للحفاظ على هُويّةِ وتاريخِ الجماعة السياسيّة الموحَّدة. من هذا المنطلق، الدستور يصبح نتيجة الإمكانيّة الواقعيّة للقتل والتضحية من قِبل أعضاء الجماعة السياسيّة الموحَّدة؛ أي إنّ الجماعة السياسيّة تسبق الدستور، وهي التي تخلقه لا العكس. هذه الإمكانيّة الواقعيّة للقتل تسمح للجماعة أن توجَد بوصفها وحدة سياسيّة في مواجهة جماعات سياسيّة أخرى موحَّدة ومستقلّة بدَوْرها، ولهذا السبب لا يمكن أن يقنَّن فعل السيادة بأيّ قانون، أو يُرتهن بأيّ معيار عدا المعيار الأوّل المؤسِّس للجماعة: الحقّ في أن تُقتل في سبيل الجماعة السياسيّة.

لهذا ينشأ وضع يتضمّن فجوة لا يمكن جَسْرها بين المواطَنة والجماعة السياسيّة الموحَّدة. المواطَنة تعبير عن وضعيّة قانونيّة بين الفرد والدولة، لكنّها لا تكفل حتمًا عضويّة الفرد في الجماعة السياسيّة الموحَّدة. لا يضمن ذلك إلّا الإمكانيّةُ الواقعيّةُ للقتل. بسبب هذه الفجوة، سينتج وضع يمكن أن يكون فيه المواطن عدوًّا، أي العدوّ الداخليّ.

العدوّ الداخليّ لدى شميت

لا ينبع ممّا قيل أعلاه أنّ الصراعات الداخليّة ضمن حدود الجماعة السياسيّة الموحَّدة تُعَدّ حربًا طرفُها الأعداء، فالصراع الداخليّ دوافعه حيازة الشرعيّة، أمّا حرب الأعداء فمحورها في حيازة السيادة. بالتالي، تنشأ داخل حدود جماعة الأصدقاء صراعاتٌ وخلافات قد تؤدّي إلى خرق القانون. الفرد الذي يخرق القانون يجري تجريمه ومعاقَبته على فعله الفرديّ؛ أي إنّه داخل المجموعة الواحدة ثمّة مجرمون، وجرمهم لا يستبعد الفرد، المواطن، ولا يحرمه من عضويّته في الجماعة السياسيّة.

على ضوء ما قيل أعلاه، تُطرح الأسئلة التالية: ما العلاقة بين المجرم والعدوّ ضمن ثنائيّة الصديق والعدوّ بحسب شميت؟ ما هي الأدوات التي يملكها النظام السياسيّ في تعامله مع المجرم مقارَنةً بالعدوّ؟ كيف ينظر النظام السياسيّ للمجرم، مقارَنةً بالعدوّ؟ هل العدوّ فرد أم جماعة؟ هل يعترف النظام السياسيّ بالمجرم ويمنحه مكانة قانونيّة؟ ما هي الطموحات السياسيّة لدى المجرم

مقارَنةً بالعدوّ؟ ما هي ردّة فعل النظام السياسيّ تجاه المجرم وفعله الذي خرق القانون مقارَنةً بمجرّد وجود العدوّ دون الالتفات إلى السؤال بشأن ما قام به، وما هو الإطار المفاهيميّ للعقاب أو الانتقام ضدّ المجرم والعدوّ؟

المجرم هو فرد (Kahn, 2011, 2013, Pp. 199- 202)، ارتكب جرمه بشكل فرديّ على العكس من العدوّ الذي يَنظر إليه النظام السياسيّ على أنّه جماعةٌ تستهدف الجماعةَ الأخرى كاملة، فيصبح الانتقام منها باسْم الجماعة. بالإضافة إلى ذلك، يكون الردّ على المجرم ضمن مبدأ سلطة القانون وبواسطة القانون. أمّا العدوّ، فالردّ عليه باسْم سيادة الجماعة السياسيّة الموحَّدة، أي باسْم القدرة على القتل، أي تلك التي لا تخضع لسلطة القانون بل هي التي تؤسّس لمفهوم سلطة القانون؛ إذ إنّ السيادة بالتعريف -كما حاولت أن أشير سابقًا- هي ما لا يُعْلى عليه، فلا يمكن أن تُصاغ (أو تُحدَّد) بالقوانين والعقود، بل هي التي تضمن سَرَيانَ ما تنصّ عليه التشريعات والالتزامات بين الأفراد داخل المجتمع (Kahn, 2011, 2013).

سأحاول ضمن هذه الفكرة التعريج على الفجوة بين تعامُل إسرائيل مع المواطنين الإسرائيليّين الذين يمكن اعتبارهم -على سبيل المقارنة فحسب- "الأصدقاء" على حدّ تعبير شميت، وتعامُلها مع المواطنين الفلسطينيّين "الأعداء" (على حدّ تعبير شميت كذلك). كان لدى المواطنين الإسرائيليّين حراك شعبيّ يطالب الحكومة بعَقْد صفقة تبادل على نحوٍ فوريّ. قام الحراك باحتجاج شعبيّ شمل إغلاق شوارع ومَرافق مُهِمّة في الدولة (عمّوري، 2025). ادّعائي أنّ المواطن الإسرائيليّ بحسب النظام الاسرائيلي، بخرقه للقانون يبقى مجرمًا، ولن يكون بأيّ حالة عدوًّا أي خارج حدود الجماعة السياسيّة؛ إذ إنّ الصراعات بين المواطنين الإسرائيليّين تبقى ضمن الجماعة السياسيّة. أمّا الفلسطينيّ، دونما التفات إلى مسألة مكانته القانونيّة والمكان الجغرافيّ، فيبقى عدوًّا. والعدوّ جماعة؛ أي إنّ العضو الفرد في جماعة الأعداء يمكن تحميله ما قامت به جماعته السياسيّة وما ستقوم به.

تجلّت هذه الأطروحة من خلال معاينة التهم المنسوبة للمواطنين الإسرائيليّين من خلال احتجاجهم ضدّ الحكومة الإسرائيليّة، في مقابل المواطنين الفلسطينيّين الذين قُمع نشاطهم السلميّ ووُضع في خانة العدوّ، من خلال استخدام قانون مكافحة الإرهاب. نذكر في هذا الصدد -على سبيل المثال- اعتقال المحامي أحمد خليفة والناشط محمّد جبارين (بويرات، 2023ب). على الرغم من أنّ حراك المواطنين الإسرائيليّين كان عنيفًا أكثر، ويحمل في طيّاته تحدّيًا ومحاوَلةً لزعزعة

الحيّز العامّ من خلال إغلاق شوارع ومَرافق هامّة في الدولة، وشمل اشتباكًا مع قوّات الشرطة الإسرائيليّة، لم يحاكَم أيّ مواطن إسرائيليّ بتهمة دعم الإرهاب، أو التماثل مع الإرهاب، أو التحريض على الإرهاب.[2]

من قَبيل المفارقة، صدر شعار كولام تمورات كولام- عِسكاه عَخشاف "الكلّ مقابل الكلّ- صفقة الآن من داخل المجموعة الإسرائيليّة الداخليّة (كمپينسكي، 2023)، على الرغم من أنّه يتبنّى موقفًا سياسيًّا يمكن وصفه بالثوريّ ويعبّر عن مصلحة فلسطينيّة عُليا من وجهة نظر "الأعداء". لكن لا يمكن إلّا لمن ينتمي للمجموعة السياسيّة أن يمارس حقّه الدستوريّ في التعبير عن الرأي؛ وذلك لأنّ كلّ هذه الحقوق الدستوريّة هي في الأساس مسخَّرة من أجل صيانة وتعزيز روح الجماعة السياسيّة، وبالتالي لم يجرِ التفكير أصلًا في تجريم أو معاقبة الإسرائيليّ بوصفه عدوًّا حين طرح هذا الشعار.

في 2023/10/19، نظّمت اللجنة الشعبيّة في أمّ الفحم مسيرة سلميّة تنديدًا بالعدوان على غزّة (بويرات، 2023أ). قمعت الشرطة الإسرائيليّة المسيرة واعتقلت اثنَيْ عشَر شخصًا، واعتدت على آخرين من بينهم نساء وأطفال بالقنابل والرصاص المغلَّف بالمطّاط (بويرات، 2023أ). خلال المسيرة، اعتُقِل خليفة وجبارين ومُدِّد الاعتقال حتّى نهاية الإجراءات القانونيّة،[3] وهذا الأمر يشكّل سابقة قانونيّة؛ إذ لأوّل مرّة يُعتقَل أشخاص حتى نهاية الإجراءات القانونية بحجّة المشارَكة في مظاهرة احتجاجيّة سلميّة.

جاء في تعليق مركز عدالة على اعتقال خليفة وجبارين وتقديم لائحة اتّهام ضدّهما:

> إنّ تقديم لائحة اتّهام بحقّ الشابَّيْن محمّد جبارين وأحمد خليفة هي حالة استثنائيّة وغير مسبوقة إذ عادةً ما تنتهي قضايا المظاهرات بفترة اعتقال قصيرة جدًّا لا غير. هذه هي الحالة الأولى المعروفة لنا والتي تقوم بها

2. صحيح أنه تم تقديم لوائح اتهام ضد ناشطين تستند على قانون مكافحة الإرهاب، على سبيل المثال: قضية رمي قنابل إنارة قرب مقر إقامة رئيس حكومة إسرائيل. لكن لم يتم تقديم أي لائحة اتهام ضد مواطنين يهود تستند على قانون مكافحة الإرهاب على خلفية المشاركة في مظاهرة أو خلفية التعبير عن الرأي. (پيلج، 2024). أشير إلى أن الناشط "يسرائيل بري" اعتقل على خلفية نشره تغريدات على منصة اكس, بادعاء "التحريض على الإرهاب"، لكن تم الإفراج عنه، وحتى نهاية أيلول 2025 لم تقدم ضده لائحة اتهام. (براينر، 2025).

3. كتبت هذه الورقة أثناء المصادقة على أمر اعتقال خليفة وجبارين حتى نهاية الإجراءات القانونية. تم الافراج عن المحامي أحمد خليفة في كانون الثاني 2024 والناشط محمد جبارين في حزيران 2024، ضمن شروط تقييدية، بعد اعتقال دام عدة أشهر على خلفية حرية التعبير عن الرأي، الأمر الذي يعد سابقة قانونية.

النيابة بتقديم لائحة اتّهام على المشارَكة بمظاهرة لم يكن بها أيّ أعمال يمكن أن تعتبرها الشرطة عنيفة أو مُخِلّة بالأمن العامّ، وعليه فإنّ لائحة الاتّهام هذه ما هي إلّا محاكمة للخطاب السياسيّ الفلسطينيّ في الداخل. (عدالة، 2023ت).

قصارى القول أنّ "صاحب السيادة هو من يعلن حالة الاستثناء" (شميت، 2018، ص. 23). هذا الموقف الذي اتّخذه شميت إزاء السيادة هو الذي جعله يعادي تصوُّر النزعة الوضعيّة، التي تربط السيادة بالقانون، وتشترط في كلّ قرار سياسيّ أن يحترم المعايير القانونيّة وإلّا اعتُبِر قرارًا غير شرعيّ وخارج القانون (أقارقش، 2022). فما يميّز الاستثناءَ هو أساسًا السلطةُ غير المحدودة، وهو ما يعني تعليق النظام القائم بأكمله.

هذا التوجُّه يفكّك وينسف مفهوم المواطَنة كإطار قانونيّ يحمي الفرد من تعسُّف الدولة. وذلك أنّه إذا كان العدوّ "مواطنًا" يصبح كلّ شيء متاحًا في سبيل الحفاظ على الجماعة السياسيّة. وفي حالتنا، يصبح كلّ شيء متاحًا إذا كان الأمر متعلّقًا بـِ"المواطن الفلسطينيّ".

المبادئ التأسيسيّة

يميّز كارل شميت بين المبادئِ الدستوريّة التأسيسيّة التي يجري إنشاؤها خلال فترة "خلق السيادة"، والقانونِ الدستوريّ المنصوص المكتوب. حسب هذا التمييز، تعكس المبادئُ الدستوريّة التأسيسيّة روحَ الجماعة السياسيّة وهُويّتها وتاريخها وطموحها ورؤيتها السياسيّة. وكما أشرت آنفًا، الشرط الأساسيّ لتشكيل هذه المبادئ هو الاستعداد للقتل والتضحية من أجل الجماعة السياسيّة. لا تسري هذه المبادئ الدستوريّة إلّا على من يعبّر عن استعداده للموت في سبيل الجماعة السياسيّة.

هذه المبادئ الدستوريّة التأسيسيّة تتغلّب على القانون الدستوريّ المنصوص والمكتوب، وإنْ لم تكن منصوصة ومُقَوْنَنة في النظام القانونيّ على نحوٍ واضح وصريح. وهنا تكمن مفارقة السيادة؛ فهذه المبادئ التأسيسيّة موجودة داخل النظام القانونيّ وخارجه في آن واحد. المقصود بهذا أنّها مغروسة في داخل روح النظام القانونيّ، وإن لم تكن منصوصة على نحوٍ واضح، أي هي التي تسهم في

تشكيل وصياغة مبادئ وأحكام النظام القانونيّ. ولكن في الوقت نفسه، تقف هذه المبادئ خارج النظام القانونيّ، حيث الأخير خاضع لها ولا يحقّ له قَوْنَنة أيّ قيمة تتعارض معها أو تمسّ بها. المبادئ الدستوريّة التأسيسيّة يكمن في جوهرها المفهومُ الأصيل للسياسيّ: "التمييز بين الصديق والعدوّ". يتكثّف مفهوم السياسيّ عند الإعلان عن حالة الاستثناء، حيث تتجلّى هذه المبادئ وتظهر لنا على نحوٍ عارٍ.

أحد الأمثلة الجليّة على تجلّي هذه المبادئ الدستوريّة التأسيسيّة التي تكشف لنا السياسيّ في إسرائيل، الذي يتغلّب على مبدأ سلطة القانون، نجده في قضيّة ياردور (محكمة العدل العليا الإسرائيلية، 1964)، حيث يقول رئيس المحكمة العليا القاضي چـرانات حين كان رئيسًا للمحكمة العليا في إسرائيل في قراره القضائيّ ما يلي:

"تأسّست [إسرائيل] كدولة يهوديّة في "إيرِتْسْ يِسرائيل" (أرض إسرائيل) لأنّ فعل التأسيس تحقَّقَ -أوّلًا وقبل كلّ شيء- بحكم الحقّ الطبيعيّ والتاريخيّ للشعب اليهوديّ في العيش كشعب قائم بحدّ ذاته، كسائر الشعوب في دولته السياديّة، ويجسّد فعلُ التأسيس هذا تحقيقًا لطموح أجيال في خلاص إسرائيل" (محكمة العدل العليا الإسرائيلية، 1964).

اعتمادًا على هذه البديهيّة الدستوريّة، وبالكلمات المقتبَسة في ما يلي حسم القاضي چـرانات، عام 1965، النقاشَ الدستوريَّ بشأن قانونيّة خطوة لجنة الانتخابات بمنع القائمة الاشتراكيّة من المشاركة في انتخابات الكنيست على خلفيّة كونها "منظّمة غير مشروعة، كون المبادرين إليها لا يعترفون بوحدة أراضي دولة إسرائيل ووجودها" (محكمة العدل العليا الإسرائيلية، 1964).

ذاك كان على العكس من القاضي كوهن الذي أبدى (عام 1965) ولاءه لمبدأ سيادة القانون، والذي قضى بأنّ لجنة الانتخابات المركزيّة تفتقر لأيّة صلاحيَة قانونيّة تُمَكِّنها من شطب وحرمان قوائم انتخابيّة من المشاركة في الانتخابات (محكمة العدل العليا الإسرائيلية، 1964)؛ إذ باعتقاده ليس ثمّة أيّ نصّ صريح يمنح لجنة الانتخابات صلاحيَة بشطب أيّ قائمة انتخابيّة "لا تجري مصادرة أيّ حقّ -ولو كان ذاك من المجرم الأكثر خطورة- إلّا بناء على سلطة القانون".

هذا التعارض الظاهر في قرار القاضي چـرانات، يبيّن القِيَم الدستوريّة التأسيسيّة، ومبدأ سلطة القانون يكشف لنا طابع وجوهر الدولة: ففي هذه الحالة الدولة

تستمرّ في حين يتراجع القانون (أچـامبين، 2015)، والدولة تبرهن أنّه لا حاجة إلى الاستناد إلى القانون من أجل صناعة القانون (أچـامبين، 2015)؛ وذلك أنّه حتّى في غياب نصّ قانونيّ واضح يتيح للجنة الانتخابات شطْبَ قائمة انتخابيّة، تصبح ممارستها سارية المفعول ما دامت تتماهى مع القِيَم الدستوريّة التأسيسيّة. بعودة إلى اقتباس چـرانات يُستنتَج أنّ أيّة سلطة من سلطات الدولة لا يمكنها ممارسة صلاحيَة من صلاحيَاتها على نحوٍ يتنكّر لاستمراريّة إسرائيل وخلودها (المصري، 2015). هذا حقيقة دستوريّة لا حاجة إلى قَوْنَنتها أو نصّها بقانون صريح. هي مقدّسة، لا يمكن أن تُزعزَع حتّى بذريعة غياب صلاحيَة قانونيّة.

معنى هذا أنّ مبدأ سلطة القانون خاضع لقِيَم دستوريّة عليا يتأسّس عليها النظام برمّته، ولذا لا يمثّل حكْم ياردور مسًّا بمبدأ سلطة القانون، بل هو تعبير واضح عن جوهر القانون وسيادته بصورته العارية. معنى ذلك أنّ هذه القِيَم الدستوريّة التأسيسيّة تتجلّى على نحوٍ واضح في حالة الاستثناء.

في الفصل التالي، أسعى إلى تشريح وتفكيك مواطَنة العدوّ التي مُنِحت في عام 1948، وفي السابع من أكتوبر 2023 أُعيدَ استحداثها بطريقة عارية. سيناقش الفصلُ الدافعَ لاعتقال الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة، وكيف أنّ مواطَنة العدوّ توفّر جميع الأدوات والأساليب غير المشروطة والمطلَقة من أجل تأبيد مفهوم السياسيّ.

السابع من أكتوبر 2023 والمواطن العدوّ

"فلا أحد يعرف على وجه الدقّة ما نقول إنّه أو ما نسمّيه بأنّه "الحادي عشر من سـپـتمبر". "الحادي عشر من سـپـتمبر" هذه التسمية تؤكّد على الجانب غير القابل للوصف، عندما نقرّ بأنّنا لا نستطيع التعرُّف: بل إنّنا لا نعرف ولا ندري بعد كيف نصف، لا ندري ما الذي نتكلّم عنه" (دريدا، 2001).

"السابع من أكتوبر 2023، كحدث استثنائيّ ومؤسِّس، فيه لأوّل مرّة يشعر العضو الفرد في الجماعة الإسرائيليّة بعدم الأمان داخل حدود الجماعة السياسيّة، وهذا الأمر يُعتبر خارج حدود مخيّلته السياسيّة، وبالتالي على العدوّ أن يدفع الثمن" (العربي تيوب، 2024). ولا حاجة إلى تعريف من هو العدوّ بحسب شميت؛ إذ يكفي تعريف حدود مجموعة الأصدقاء، وكلّ من ليس صديقًا هو العدوّ بحسبه.

إذ كلّ عضو في مجموعة الأصدقاء تقع على كاهله مَهَمّة تحويل حياته إلى ساحة مواجَهة مع العدوّ- في الشارع؛ في المدرسة؛ في الجامعة؛ في المستشفى؛ في السِّجن...

سأحاول أن أتناول موضوع الأسرى الفلسطينيّين في السجون الإسرائيليّة، وقراءة المعامَلات الوحشيّة ضدّهم ضمن "التمييز بين الصديق والعدوّ".

ما بين الصديق والعدوّ، والعقاب والانتقام

تُعَدّ مرحلة ما بعد "السابع من أكتوبر 2023"، وَفْق تقرير صادر عن مؤسَّسات الأسرى، الأشدَّ والأقسى في تاريخ الأسرى الفلسطينيّين في السجون الإسرائيليّة، من حيث مستوى كثافة التعذيب والتنكيل والإجراءات الانتقاميّة المفروضة على الأسرى داخل السجون، والتي تمسّ بمصير الآلاف منهم، حيث جرى تجاوز عدد الأسرى في السجون الإسرائيليّة أكثر من أحد عشر ألفًا وخمسمئة أسير دون شمل الأسرى الذين من غزّة (أبو رشيد، 2024)، (عرب48، 2024ت). والأسرى الفلسطينيّون مصنَّفون على أنّهم "أسرى أمنيّون"، ويمكن المحاججة بأنّ هذا التوصيف ليس قانونيًّا بقدر ما هو سياسيّ، أي يستند إلى الاصطفاف المتأصّل في جوهر الدولة بحسب شميت؛ التمييز بين الصديق والعدو. كثرت التقارير التي ترصد انتهاكات إسرائيل القمعيّة والوحشيّة تجاه الأسرى الفلسطينيّين في السجون الإسرائيليّة، من تعذيب وضرب وتنكيل (عرب48، 2024ب)، ومصادرة الأغراض الشخصيّة، ومنع اللقاءات مع المحامين (عرب48/ وفا، 2024)، وحرمان من التواصل مع الأهالي على نحوٍ جارف، وحرمان من الطعام والمقوِّمات الأساسيّة للحياة (عرب48، 2024أ). لكن بالإضافة إلى جميع هذه الانتهاكات، يشير المحامون إلى ظاهرة جديدة تتعدّى التعذيب الجسديّ، تتمثّل في إجبار الأسرى على احترام الرموز السياديّة القوميّة الخاصّة بإسرائيل، نحو: إجبارهم على الْتقاط صوَر لهم وخلفهم العلَمُ الوطنيّ الإسرائيليّ؛ تشغيل النشيد الوطنيّ الإسرائيليّ "هتكـفـا" خلال عمليّة إخضاعهم وإذلالهم... (عواودة، 2024).

تبيِّنُ هذه الممارَسات الفَرْق بين المجرم والعدوّ من وجهة النظر الإسرائيليّة؛ فالأسير الفلسطينيّ لا يمكن التعامل معه على أساس أنّه فرد، بل هو جماعة. لذا، كلّ فعلٍ لجماعة يُنسَب للفرد، وبالتالي كلّ فلسطينيّ بوصفه فلسطينيًّا قام بمحاولة زعزعة السيادة الإسرائيليّة، دون الالتفات إلى مسألة المكانة القانونيّة

أو مسألة جرمه من ناحية قانونيّة، ولذلك الردُّ عليه والانتقام منه يكون باسْم هذه السيادة غير الخاضعة لأيّ عُرْف قانونيّ أو قانون أو مبدأ سلطة القانون. ذاك يعني أنّ الفلسطينيّ يخضع للمعيار السياسيّ، بمن في ذلك المواطنُ الفلسطينيّ في إسرائيل، بينما يخضع المواطن اليهوديّ الإسرائيليّ للمعيار القانونيّ.

ضمن هذه الرؤية المنطلقة من السياسيّ ومن تمييزه بين الصديق والعدوّ، يمكن التمييز بين ردَّيْ فعل مختلفَيْن لأيّ سلوك؛ إذ يتلقّى المجرم العقاب بينما يكون العدوّ عرضة للانتقام. وبينما يستحضر كلّ من الانتقام والعقاب الماضيَ وينطلقان منه كأساس لمشروعيّتهما، يبقى الانتقام عالقًا في الماضي، في حين أنّ العقاب يَستحضر الماضيَ لينطلق منه إلى المستقبل، ولذلك يدعو العقاب إلى إعادة تأهيل السجين لدمجه مستقبَلًا في المجتمع. الاختلاف الجوهريّ في مفهوم العدالة وآليّة تطبيقها يكمن في أنّ مفهوم الانتقام هو مطْلَق ولا عقلانيّ (دايتش، 2022)، تتمثّل لاعقلانيّته في محاولته إلغاءَ الماضي من خلال الانتقام (دايتش، 2022)، وهذا تجاوُزٌ للقدرات الإنسانيّة والحسّ الإنسانيّ (دايتش، 2022)، ولذا هو يكون مفْرِطًا لأنّه مهووس بتدمير الماضي. ضمن هذا الإطار المفاهيميّ، علينا أن نفهم الممارَسات الانتقاميّة ضدّ المعتقَلين والأسرى الفلسطينيّين في السجون الإسرائيليّة: أي تدمير الماضي ونسفه، لكن محاولة التدمير تطول كلَّ فرد بوصفه الجماعة كاملة.

الفلسطينيّ: جوهر واحد

شكّل "السابع من أكتوبر 2023" حدثًا مؤسِّسًا في فهم النظام الإسرائيليّ لذاته، وفي فَهْم علاقته مع الفلسطينيّين في جميع أماكن وجودهم، وعلى وجه التحديد مع فلسطينيّي الـ48، حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة. سخّرت إسرائيل جميع سلطاتها وأذرعها وكلّ أدوات العنف بغْيةَ قمع الفلسطينيّ بوصفه فلسطينيًّا. بهذا المعنى، هي علّقت الحدودَ الجغرافيّة المختلفة التي تفصل مركّبات الشعب الفلسطينيّ في جميع أماكن وجوده، والتي تعبّر عن وضعيّات قانونيّة مختلفة.[4]

4. يشير د. حسن جبارين في مقالته إلى أنّ النظام الإسرائيليّ بجوهره يستند إلى السياسيّ في تعامله مع الفلسطينيّين في جميع أماكن وجودهم. يلفت الانتباهَ إلى التشابه في أوامر إطلاق النار ضدّ المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل خلال هبّة القدس والأقصى (عام 2000) وأوامر إطلاق النار ضدّ المشاركين في مسيرة العودة في غزّة (عام 2018)، ويشير إلى أنّ منظومة الدفاع القانونيّة جرى تعليقها لصالح السياسيّ، وينتقد محاولة الفصل بين الداخل والخارج، إذ إنّ هذه الحدود تتلاشى لصالح السياسيّ. (جبارين، 2020).

يعبّر الفلسطينيّ، بنظر إسرائيل، عن جوهر واحد بمعزل عن مسألة مكانته القانونيّة: العدوّ. هذا الجوهر ساري المفعول على جميع الفلسطينيّين في جميع أماكن وجودهم. تُكتَب هذه الكلمات وسط أبشع وأفظع حرب في التاريخ الحديث على قِطاع غزّة، ضمن إبادة ممنهَجة من المحو والإزالة المادّيّة والرمزيّة تستهدف الإنسانَ والحيّز والتاريخ والمستقبل. تعرَّضَ الفلسطينيّون في الضفّة الغربيّة كذلك لعنف الدولة السياديّ الذي تمثَّلَ بحملات عسكريّة منظَّمة من قِبل الجيش، فضلًا عن خلق حيّز من "الفوضى" من خلاله يتغطّى العنف السياديّ بغطاء مدنيّ؛ إذ تحوَّلَ الآلاف ممّن يُعتبرون "المدنيّين" إلى جنود غير رسميّين، يجوبون الشوارع بأسلحتهم ويحرضون على قتل العرب (عدالة، 2023أ). وقد تعرّض الفلسطينيّون في إسرائيل لحمْلة شاملة تعزّزت فيها سياسات كَمّ الأفواه والترهيب التي تُمارَس ضدّهم، في محاولة لإسكات أيّ صوت مُعارِض للحرب وجرائم الحرب والجرائم ضدّ الإنسانيّة التي تُرتكب في غزّة والضفّة الغربيّة. سأحاول التركيز في هذا المقال على تعامل إسرائيل مع المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل.

هذه الفروق القانونيّة بين الجغرافيّات الفلسطينيّة المختلفة جرى تعليقها لصالح مفهوم السياسيّ. الفلسطينيّ بوصفه فلسطينيًّا هو عدوٌّ، يستهدفه النظام الإسرائيليّ. الفلسطينيّ في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة بحسب المكانة الجغرافيّة يُعَدّ من الخارج، أي خارج حدود النظام الإسرائيليّ، في الوقت الذي من المفترَض أن يسري على الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة القانونُ الدوليّ الإنسانيّ، وقوانين الاحتلال، وقوانين الحرب والأعراف الدوليّة. المقصود أنّه تسري على "الخارج" مجموعة من أنظمة الدفاع القانونيّة المنصوص عليها في القانون الدوليّ، في مقابل "الداخل" أي النظام الذي يتأسّس على سلطة المواطنين. هذا التمييز فاقد لأيّ معنى ودون جدوى؛ وذلك لأنّ مفهوم السياسيّ يطغى على علاقة الفلسطينيّين مع إسرائيل. بعبارة أخرى، الفرْق بين "الداخل والخارج" تلاشى لصالح مفهوم السياسيّ بوصفه القيمة العليا المؤسِّسة في طبيعة إسرائيل كدولة ذات سيادة.

مواطَنة العدوّ الممنوحة للفلسطينيّين في إسرائيل

سيتركّز هذا الجزء من المقالة على جوهر ومفهوم المواطَنة الإسرائيليّة التي مُنِح إيّاها الفلسطينيّ في إسرائيل. بعد أن استعرضتُ أهمّيّة قراءة إسرائيل من خلال نظريّة شميت، سأحاول الآن فَهْم معنى هذه المواطَنة من خلال هذا الإطار لفَهْم الصورة الكبرى لِما وراء الاعتقال بوصفها تعبيرًا عن التجلّي الحقيقيّ والأصليّ لسيادة النظام الإسرائيليّ في ممارسته لمواطَنة العدوّ التي مُنِحَها عام 1948، وبعد السابع من أكتوبر 2023 بوصفه حدثًا استثنائيًّا أعاد استحداث مواطَنة العدوّ بشكل مكثّف وعارٍ. المقصود أنّ عمليّة الاعتقال جرت في ظلّ مواطَنة العدوّ وكاشتقاق منها، أي مواطَنة العدوّ الشرط الضروريّ لعمليّة الاعتقال. بعبارة أخرى، "مواطَنة العدوّ" التي مُنِح إيّاها الفلسطينيّ تشكّل الإطارَ النظريّ المعياريّ لفَهْم اعتقال فلسطينيّات من حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة على خلفيّة قانونيّة مختلفة: "التحريض على الإرهاب" وَ/ أو "دعم منظَّمات إرهابيّة"، ذاك الاعتقال الذي أدّى إلى إدراج المواطِنات الفلسطينيّات ضمن صفقة التبادل لاحقًا.

الاعتقالات

وَفقًا لتقرير أصدره مركز "عدالة" رصدًا وتوثيقًا لحالات الاعتقال، حتّى تاريخ 2023/11/13 بلغ عدد المعتقَلين 251 حالة اعتقال (لا يشمل ذلك لواء القدس) (عدالة، 2023ب). وبحسب بيان النيابة العامّة، عدد لوائح الاتّهام التي قُدِّمت حتّى نهاية شهر كانون الأوّل 2023 بلغ 132 (كورتس، 2024). وَفقًا للتقرير، في معظم الحالات ظهرت تهمة الدعم أو التماهي مع منظَّمة تُعرَّف وَفْق القانون الإسرائيليّ بأنّها منظَّمة إرهابيّة وَفْق المادّة 24 (أ) من قانون مكافحة الإرهاب، أو التحريض على الإرهاب وَفْق المادّة 24 (ب) من القانون نفسه. يشير التقرير إلى ما يلي: تتّهم السلطات كلّ من يعبّر عن رأيه، سواء فعل ذلك عبْر منصّات التواصل الاجتماعيّ أَمْ عن طريق وقفات احتجاجيّة، بدعم تنظيمات معرَّفة بأنّها إرهابيّة وَفْق القانون الإسرائيليّ، وبالتحريض على الإرهاب. يجدر بالإشارة أنّ المنشورات والتفاعلات والاحتجاجات التي تستهدفها الإجراءات القانونيّة المغطّاة في التقرير يقع معظمها في إطار حرّيّة التعبير عن الرأي، نحو: معارضة استهداف الهجمات الإسرائيليّة للمدنيّين الأبرياء؛ التعبير عن التعاطف مع أبناء الشعب الفلسطينيّ

في غزّة؛ الحديث عن العقوبات الجماعيّة وجرائم الحرب؛ تَناقُل الأخبار بشأن ما يَحْدث في غزّة (كورتس، 2024).

تُفهم الاعتقالات التي مارستها إسرائيل بوحشيّة ضدّ الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة، على خلفيّة رفضهم العدوان على غزّة، على أنّها تعبير عن تجذُّر السياسيّ في النظام الإسرائيليّ، وبوصفه قيمة تأسيسيّة عُلْيا في النظام الحاليّ. المقصود أنّ الاعتقال مشتقّ من مفهوم العدوّ بصرف النظر عن كونه مواطنًا. معنى هذا أنّه لن تسعفنا الأدوات القانونيّة والخطاب القانونيّ لفَهْم جوهر الاعتقالات بوصفها استعمالًا غير مبرَّر لصلاحيَة الشرطة، وبالتالي يفتقر الاعتقال إلى أيّ أساس قانونيّ. هذا الإطار الجافّ يَفترض أنّ أطراف العلاقة متساوون أو متكافئون؛ دولة مقابل مواطنين تنظّموا في إطار كيان سياسيّ موحَّد، أي إنّ مجموعة المواطنين متجانسة والضابط لها هو المواطَنة المتساوية المتحدّدة ضمن الإقليم الموحّد. الفلسطينيّون في إسرائيل يحملون المواطَنة الإسرائيليّة، لكنّهم ليسوا جزءًا من الجماعة السياسيّة المؤسِّسة للدولة. يعيد السابع من أكتوبر 2023، من وجهة نظر إسرائيل حول علاقتها مع المواطنين الفلسطينيين، إنتاج ما تأسّس في 1948/5/15 كمشروع سياسيّ لجماعة سياسيّة ألغت جماعةً سياسيّة أخرى ضمن اصطفاف "الصديق والعدوّ" من أجل تأسيس نظام سياسيّ سياديّ إقصائيّ، من أجل ترسيخ هذا النظام السياديّ، وفي الوقت ذاته، تعيد إنتاج وممارسة قانون الطوارئ، أي الحالة الاستثنائيّة، الذي أُعلن عنه ساريَ المفعول مع تأسيس دولة إسرائيل (معجم الكنيست، [د. ت])، والذي يثبِت ويؤسّس هو وحده السيادة الإسرائيليّة حسب نظريّة شميت. وإن كان ما يرمي إليه شميت من وراء هذه النظريّة تقويض الادّعاء الليبراليّ الذي يَعتبر القانون (الوضعيّ) أساسًا لسيادة لدولة، ليضع مكانه حالة الاستثناء، أي قوانين الطوارئ التي تلغي القانون الوضعيّ، بوصفها الأساس الأنطولوجيّ للدولة، بما هي دولة، فإنّ كلًّا من هذا التحليل والقرائن التي تصاحبه يُثبِت هشاشةَ الأساس الليبراليّ للسيادة الإسرائيليّة من وجهة نظر مفهوم السيادة العامّ كما يطرحه شميت.

إذًا، هذه الاعتقالات فعل سياسيّ سياديّ بامتياز، وتقع في الحين ذاته ضمن اصطفاف العدوّ والصديق. فالسياسيّ يسبق القانونيّ. الفلسطينيّ -كما أشرت سابقًا- عدوّ بوصفه فلسطينيًّا، دون صلة لذلك بالمكانة الجغرافيّة أو الوضعيّة القانونيّة أو التبريرات القانونيّة المختلفة. عمليّة إقصائه وإلغائه ولّدت السيادة

الإسرائيليّة، أي إنّ العنف والإقصاء والإلغاء ضدّ الفلسطينيّ، بوصفه فلسطينيًّا، متأصّلة في كينونة النظام الإسرائيليّ وتُشكِّل شروطًا ضروريّة لديمومته. لذلك تعيد إسرائيل إنتاج أدوات إنتاج القمع ضدّ الفلسطينيّين في جميع أماكن وجودهم، وعلى وجه التحديد أولئك الذين يحملون المواطَنة الاسرائيليّة.

في 1948/5/15 تبلورت مبادئُ تأسيسيّةٌ عُلْيا، هذه المبادئ التأسيسيّة تتغلّب على مبدأ سلطة القانون والقانون الدستوريّ، بل هي التي تصوغ المبادئ المنصوصة.. أعاد السابع من أكتوبر 2023 استحداث هذه المبادئ على الفلسطينيّين بشكل عامّ أينما تواجدوا، ولا سيّما الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة. هذا لا يعني أنّهم قُمِعوا أكثر من سواهم من أبناء شعبهم، لكنّه يؤكّد أكثر أنّهم ليسوا جزءًا من الجماعة الحصريّة.

في عام 1948، طُرِد الفلسطينيّ بوصفه فلسطينيًّا، سعيًا إلى "إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل هي "دولة إسرائيل"" (الكنيست، [د. ت]). أمّا في أعقاب السابع من أكتوبر 2023، فقد جاءت تهديدات قائد الشرطة العامّ بطرد الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة إلى غزّة لمجرّد أن يعلنوا تضامنهم مع غزّة (شرطة إسرائيل، 2023). عام 1948، لم يكن هناك أيّ مبرّر لطرد الفلسطينيّ. أمّا اليوم، فعمليّة الطرد مرهونة بمحاولة التعبير عن الانتماء إلى الجماعة السياسيّة الأخرى. الجوهر واحد هو الطرد، والقِيَم التأسيسيّة واحدة، والعدوّ واحد. في عام 1948، الهُويّة الإسرائيليّة لم تحمِ الفلسطينيّين داخل إسرائيل من الطرد (محكمة العدل العليا الإسرائيلية، 1953)؛ فقد أشارت المحكمة إلى أنّ "بطاقة الهُويّة ليست وسيلة لمنع الترحيل من البلاد [...] وهي لا تمنح الشخص المسجَّل بموجِبها أيَّ حقوق خاصّة، باستثناء الحقّ في الحصول على بطاقة هُويّة" (محكمة العدل العليا الإسرائيلية، 1953)، تمامًا كحال المواطَنة التي مُنِحها الفلسطينيّ في إسرائيل، إذ قد لا تسعفه في الحماية من الطرد؛ فالسياسيّ يسبق القانونيّ.

السابع من أكتوبر 2023

يكشف السابع من أكتوبر 2023، بوصفه حدثًا استثنائيًّا، يكشف لنا طبيعة القاعدة. يشير شميت إلى أنّ الاستثناء هو ما يحدّد ماهيّة نفوذ الدولة، "لأنّ

الحالة العاديّة لا تثبت شيئًا. الاستثناء يثبت كلّ شيء. إنّه لا يقتصر على تأكيد القاعدة: في الحقيقة القاعدة لا تعيش إلّا بالاستثناء" (أجـامبين، 1998، ص. 32).

"نحن في حالة حرب [...] وسيدفع العدوّ ثمنًا باهظًا غير مسبوق" (IsraeliPM, 2023). بهذه الكلمات المختصرة الصريحة والدقيقة افتتح رئيس الوزراء الإسرائيليّ، بنيامين نتنياهو، صباح السابع من أكتوبر 2023. لم يحدّد رئيس الوزراء من هو "العدوّ" بطبيعة الحال، ولم يحاول أن يؤطّره بين الداخل والخارج، بل اكتفى بلفظ "العدوّ" بوصفه عدوًّا. حديث رئيس الوزراء يعتمد على الثنائيّة القطبيّة التي لا يمكن بأيّ من الأحوال تجاوزها، الصديق والعدوّ، ثنائيّة "نحن-هُمْ".

في أوّل إشارة منه إلى الفلسطينيّين في الداخل حول الحرب ووضعهم في خانة العدوّ، "نحن أمام أربع جبهات: الجبهة الجنوبيّة؛ الجبهة الشماليّة؛ الضفّة الغربيّة؛ الجبهة الداخليّة" (العربي تيوب، 2024)، لم يُشِر رئيس الوزراء الإسرائيليّ إلى الفلسطينيّين على نحوٍ واضح وصريح بأنّهم عدوّ، إذ لا حاجة إلى ذلك؛ لأنّ كلّ من لا ينتمي إلى مجموعة الأصدقاء هو عدوّ بالضرورة.

تكثَّفَ شعار الحرب: ياحد ننتسيح "معًا ننتصر" في جميع المؤسَّسات الرسميّة. غزا هذا الشعار الحيّزَ العامّ والحيّزَ الرقْميّ. اختتم كلَّ بيان من وزير الحرب أو رئيس الوزراء أو أيّ شخصيّة تتبوّأ منصبًا رسميًّا. لكن لم يُشَرْ إلى مَن سينتصر ضدّ مَن، ومن أجل مَن؟ الجماعة السياسيّة تسعى كلّ الوقت إلى تأبيد تبايُنها وحدودها عن سائر الجماعات السياسيّة من خلال التشديد على من ينتمي إليها، إذ كلّ مَن خارج حدودها هو بمنزلة العدوّ.

تسلسل الأحداث إسرائيليًّا

في صباح السابع من أكتوبر 2023، الساعة الثامنة صباحًا، أعلن وزير الدفاع الإسرائيليّ عن "وضع خاصّ" في الجنوب في ما يخصّ المنطقة المحيطة بقِطاع غزّة (كوهين ولقي، 2023). في الساعة التاسعة مساءً، وسّع وزير الدفاع إعلانه إذ عمّم الوضعَ الخاصّ على الجبهة الداخليّة على كامل أراضي البلاد (كوهين ولقي، 2023)، مشيرًا أنّ أمر حالة الطوارئ ساري المفعول لمدّة 48 ساعة (سكرتير الحكومة الإسرائيلية، 2023أ). في 2023/10/8 قرّرت الحكومة، حسب

القرار حامل الرقم 941، تمديد سَرَيان إعلان وزير الدفاع عن الوضع الخاصّ في الجبهة الداخليّة، وقرّرتْ في 2023/10/18 بحسب القرار رقم 968 تمديد إعلان الوضع الخاصّ على الجبهة الداخليّة في عموم البلاد حتّى 2023/12/19 (سكرتير الحكومة الإسرائيلية، 2023ب). قبل نهاية سَرَيان مفعول الإعلان بيومَيْن، مدّدت الحكومة في القرار رقم 1150 إعلانَ الوضع الخاصّ للجبهة الداخليّة في عموم البلاد حتّى 2024/1/19 (سكرتير الحكومة الإسرائيلية، 2024). على المنوال نفسه جرى تمديد إعلان حالة الطوارئ في عموم البلاد بقرار الحكومة رقم 1257 حتّى 2024/2/9... وهكذا دوالَيْك.

هذه الحالة تنطبق مع تصوُّر أچـامبين في ما يخصّ حالة الاستثناء التي تطرح نفسها كنموذج مهَيْمِن في الحكم في السياسة المعاصرة، وما يجري طرحه على أنّه استثناء يصبح القاعدة.

كون الاستثناء غير منصوص عليه في النظام القانونيّ القائم يمْكن، في أحسن أحواله، وصفه بأنّه حالة مهلكة شديدة أو إنّه يشكّل خطرًا على وجود الدولة، أي لا يمكن تحديده فعليًّا أو جعله يتوافق مع قانون مُعَدّ مسبقًا (شميت، 2018، ص. 24). يصف أچـامبين هذه الحالة بأنّها تعبير عن "حالة قانونيّة لِما لا يمكن أن يكون قانونيًّا"- وهذا هو الوجه الخفيّ من القانون.

تدعم حالة الاستثناء هذه تصوُّر شميت للسياسة التي تنتقل من مجالٍ ساكنٍ خاضع لقوانين ثابتة، وتُوجِّهه فكرة الغائيّة (غاية السياسة ضمان الحقوق الأساسيّة)، إلى كيفيّة للفعل. وذلك أنّ حالة الاستثناء لا يمكن أن تُفْهَم من منظور السياسة كمجال خاضع لقوانين ثابتة، بل تُدرَك حين نعتبرها فعلًا سياسيًّا يعبّر عن قدرة خاصّة على الفعل والتحرُّر والمواجَهة. هذه الديناميّة لحالة الاستثناء وإتاحة الـمِساحة للحركة والفعل لصاحب السيادة هي في صُلْب فكر شميت؛ فدكتاتوريّة صاحب السيادة تجيز تعليق الدستور وإعلان حالة الطوارئ لا من أجل الحفاظ على الدستور والعودة إليه، بل في سبيل خلق نظام قانونيّ آخَر مختلف تَضمن له حرّيّة الحركة بواسطة القانون وبغياب القانون في آن. لذا، الاستثناء حالةٌ داخلَ النظام القانونيّ لا خارجَها، وحالة الاستثناء لا تعمل بدون سيادة القانون، وهذا شرط أساسيّ لعملها. وذلك أنّه ثمّة تداخُل بين حالة الاستثناء والقانون؛ فالأولى تستمدّ شرعيّتها من الأخير لتعطي نفسها الحقّ في تعليقه لمواجهة واقع غير مُقَوْنَن. هيّأت ظروفُ حالةِ الطوارئِ الأرضيّةَ القانونيّةَ للنظام

الإسرائيليّ ليمارس سيادته بدون ضوابط وحدود قانونيّة، أي قامت بتأسيس حرب أهليّة بواسطة القانون، أو -على حدّ تعبير أچامبين في سياق مماثل- من خلال العودة إلى "حالة الطبيعة" عبْر القانون. الشرطة بوصفها الجهاز الذي يحتكر أدوات العنف الشرعيّة، كيف كان سلوكها في ظلّ السابع من أكتوبر 2023 مع الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة؟

من الجدير بالإشارة أنّه قبل السابع من أكتوبر 2023، كان الوضع القانونيّ في كل ما يتعلّق بصلاحيَة الشرطة الإسرائيليّة بفتح تحقيق ضدّ مواطنين على خلفيّة تُهَمٍ كالتحريض على الإرهاب والعنصريّة والعنف -على سبيل المثال- يستوجب تصديقًا من النيابة العامّة. هذا المبنى القانونيّ يعبّر عن مدى خطورة فتح تحقيق في مثل هذه المخالفات. بعد السابع من أكتوبر 2023، ألغت النيابة العامة هذه الضمانات القانونيّة، وبالتالي منحت الشرطةَ الصلاحيَةَ القانونيّة لفتح تحقيق ضدّ أيّ مواطن دون اللجوء إلى النيابة العامّة، أي أعطتها الضوء الأخضر لمداهمة واقتحام بيوت المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل دونما رادع (معانيت، 2024).

وَفقًا للناطق باسم الشرطة الاسرائيليّة، بحث فريق عمل بقيادة وزير الأمن القوميّ إيتمار بِنْ چـڤـير، جرى تشكيله بغية مكافحة ما يسمّى "التحريض على الإرهاب" على منصّات وسائل التواصل الاجتماعيّ، في مئة وثمانين حالة تتعلّق بما يزعم أنّه تحريض (عدالة، [د. ت]). في ثلاث وتسعين من هذه الحالات (عدالة، [د. ت])، صدّق مكتب المدّعي العام للدولة على الشروع في إجراء تحقيقات جنائيّة، وجرى اعتقال ثلاثة وستّين شخصًا (عدالة، [د. ت]). وذكر المتحدّث باسم الشرطة هذه الإحصائيّات في مقابلة إذاعيّة أدلى خلالها بتصريحات تحريضيّة ضدّ المواطنين الفلسطينيّين، منها على سبيل المثال:

> كلّ من يتجرّأ وتسوّل له نفسه تقديم طلب تصريح لتنظيم مظاهرة دعمًا لغزّة [...] سنصل إلى المكان ولن نسمح له بالقيام بذلك. وإذا جَرُؤَ أحد على الاحتجاج دون تصريح فسنصل إلى المظاهرة وسنتعامل معها بكلّ الوسائل [...] وكلّ من يجرؤ على التصريح والنطق وإنْ بكلمة واحدة تُشِيد بغزّة سيجد نفسه وراء القضبان. (فتحي وزمري بعام، 2023).

نشرت الشرطة الإسرائيليّة، في 2023/10/17، مقطع ڤـيديو على ثلاث منصّات للتواصل الاجتماعيّ تديرها باللغة العربيّة (الـڤـيديو على فيسبوك وتويتر وتيك توك). في هذا الـڤـيديو، يقول مفوَّض الشرطة يعقوڤ شبتاي:

> نحن في حالة حرب. بالنسبة لنا، التعليمات واضحة؛ لا تسامُح مطلقًا مع أيّ حادث. لا تحريض، لا من قِبل الممرّضة، ولا من قِبل الطبيب، ولا من قِبل المغنّي. لا تصريح للقيام بالاحتجاجات. وقد أثبتت المنطقة هنا أنّها تقوم بالأمر بيد من حديد. نحن لسنا في وضع يسمح لنا بالسماح لجميع أنواع الأشخاص بالقدوم والعبث معنا. وبعبارة أخرى، مستوى التعامل مع مسألة عدم التسامح مُطْلَقًا هو على أعلى مستوى. كذلك أعطيت تعليمات بمهاجمة كلّ مَن يُقبَض عليه متلبّسًا، ومن يُقبَض عليه فسنقوم بتفعيل جميع المكاتب الحكوميّة على نحوِ ما نقوم بتفعيلها ضدّ المجرمين. كلّ مَن يريد أن يصبح مواطنًا في دولة إسرائيل أهلًا وسهلًا به. كلّ مَن يريد التضامن مع غزّة مرحَّب به؛ سأضعه الآن في الحافلات المتّجهة إلى هناك، وسأساعده في الوصول إلى هناك (شرطة إسرائيل، 2023).

وتقول طالي جوتليڤ، عضو الكنيست الليكودية: "العرب الإسرائيليّون الذين يعبّرون علنًا عن دعمهم لمنظَّمة إرهابيّة وحشيّة وقاتلة مثلهم، ويساعدون العدوّ في أوقات الحرب، عقوبتهم هي: السَّجن المؤبَّد مدى الحياة- هذا هو القانون. ولن أنسى بعد الحرب". (جوتليڤ، 2023).

الاقتباسان أعلاه يعبّران عن القانون في حالة الاستثناء، أي محاولة لإدراج القانونيّ في السياسيّ، أي تحويل مبدأ تطبيق سلطة القانون إلى تطبيق السياسيّ بشكل نقيّ.

المواطَنة العارية

حاولت في الجزء السابق أن أبيّن السياق السياسيّ الأوسع لحالة الاعتقالات التي طالت الفلسطينيّين في إسرائيل بعد السابع من أكتوبر 2023، بوصفه فعلًا سياديًّا أصيلًا يتأسّس على اصطفاف "العدوّ والصديق" كما يصفه كارل شميت. هذا الجزء سيحاول أن يناقش قرار إدراج معتقَلات فلسطينيّات يحملن المواطَنة الإسرائيليّة ضمْن صفقة التبادل التي عُقِدت بين إسرائيل وحركة حماس، أي مع العدو، والتي من خلالها أُفرِجَ عن مخطوفين يحملون المواطَنة الإسرائيليّة خُطِفوا إلى غزّة

مقابل الإفراج عن مواطِنات فلسطينيّات اعتُقِلنَ في السجون الإسرائيليّة على خلفيّة رفضهنّ العدوان على غزّة.[5] سأحاول هنا التطرُّق إلى السؤال: ماذا يعني أن تتفاوض دولة، مع العدو، من أجل إطلاق مواطنين في مقابل الإفراج عن مواطنين؟ ما هي طبيعة المواطَنة التي تسمح بالمفاضلة بين رعاياها؟ وكيف شكّلت المواطَنة الإسرائيليّة طوق نجاة ومَخرجًا للإسرائيليّ، وعبئًا للفلسطينيّ؟ ادّعائي الأساسيّ في هذا الجزء أنّ الفلسطينيّ في إسرائيل يُعَدّ إنسانًا مستباحًا،[6] وأنّ مواطَنته "عارية" (على حدّ تعبير أجـامبين)؛ إذ إنّ المواطَنة الممنوحة للفلسطينيّ في إسرائيل تنطبق في عدم انطباقها، تعبّر عن ذاتها في فعل اللاشيء. ليس الفلسطينيّ خارج النظام الإسرائيليّ، ولكنّه متضمَّن فيه من خلال استبعاده منه.

سأعتمد على الفيلسوف الإيطاليّ أجـامبين ونظريّته في السيادة وحالة الاستثناء التي من خلالها يجري تشكيل أو تكوين "الإنسان المستباح"، الكائن المجرّد من ذاتيّته السياسيّة، وحياتُه العارية متضمَّنةٌ في النظام السياسيّ، بينما حياته المؤهّلة يجري استبعادها منه (أجـامبين، 2017). أي أن علاقة الاستثناء بالقاعدة، لا تستبعد المستثنى منها، بل تحتويه وتتضمّنه لكن تحديدًا عن طريق عدم الانطباق عليه، وبالتالي تنشأ "حالة الطرد السياديّ" أمام الفلسطينيّين في إسرائيل لأنّ القانون في حالة الاستثناء فَقَدَ دلالته؛ فَقَدَ قدرته على الفعل- هجرَنا وتركَنا.

الحياة العارية بين فوكو وأجـامبين

بحسب فوكو، مرّ الغرب بتحوُّل عميق في ما يتعلّق بالسلطة وتقنيّاتها. لقد استُبدِلت السلطة السياديّة العنيفة بنمط السلطة الجديد الذي يسمّيه فوكو "البيوسلطة". النمط الأوّل الذي ميّز العصور الكلاسيكيّة، بحسب فوكو، هو

5. كاتب هذه الأسطر مدرك أنه خلال الصفقة أيضًا تم الإفراج عن مخطوفين عرب تم خطفهم إلى قطاع غزة في السابع من أكتوبر 2023. مع ذلك، هذه الحقيقة لا يمكن أن تدحض الادعاء المركزي حول مواطنة الفلسطيني العارية. الورقة تتركز بالأساس حول المعطى، بأن إسرائيل استبدلت مواطنين اعتقلتهم ضمن صفقة تم عقدها مع تنظيم مصنف أنه إرهابي، أي مع العدو.

6. الإنسان المستباح حسب أجـامبين هو ذاك الذي "تمّ استبعاده من المجتمع الدينيّ ومن كلّ الحياة السياسيّة، لا يمكن أن يشارك في طقوس قبيلته [...] ولا يمكنه القيام بأيّ عمل صالح من الناحية القانونيّة. ما هو أكثر من ذلك أن يتمّ اختزال وجوده أكمله إلى الحياة العارية وتجريده من كلّ حق، بحكم أنّ أيّ شخص يمكنه قتله دون محاسبته على ارتكاب القتل، ولا يمكن أن ينقذ نفسه إلّا في رحلة دافئة أو أرض أجنبيّة". (أجـامبين، 2017، ص. 183).

السلطة السياديّة على الحياة والموت، أي إنّ السلطة السياديّة تمارَس في المقام الأوّل كوسيلة اقتطاع (فوكو، 2013، ص.ص. 242 - 243)، والمقصود بهذا أنّ السلطة السياديّة اتّخذت بعدًا عقابيًّا عنيفًا سلبيًّا تجاه الفرد. يشير فوكو إلى أنّ "السلطة قد كانت فيه قبل كلّ شيء حقًّا للقبض: على الأشياء، الزمان، الأجساد، وفي النهاية على الحياة، ولعلّها كانت تبلغ ذروتها في امتياز الاستيلاء على هذه الحياة لإلغائها كلّيًّا" (فوكو، 2013، ص. 112).

اكتسبت السلطة عند فوكو بعدًا جديدًا، مبتعدة عن إرثها الكلاسيكيّ متّخِذة تقنيّة جديدة تتمثّل بكونها علاقة وفاعليّة وممارسة تاركة قطبها الاقتطاعيّ السياديّ، ومن ثَمّ أصبحت تتّبع آليّات الإحياء من خلال الحدّ من تشريع العقاب والقتل، لتتّجه إلى تحسين الحياة وإنمائها والحفاظ عليها -من خلال تقنيّات تمارَس على الجسد مباشرة-. آليّات إنماء الحياة تتأتّى من خلال الحدّ من تشريع العقاب والقتل، أي الاقتطاع، لتتّجه إلى تحسين الحياة والحفاظ عليها، ابتغاءَ إخضاعها ومراقَبتها والحفاظ عليها. هذا التحوُّل في السلطة يعبّر عن انقطاعٍ تاريخيّ بحسب فوكو، انقطاعٍ بين نمطِ سلطة يعبّر عن نفسه من خلال ممارسة تأثير سلبيّ، ونمطٍ آخَر حديثٍ يمارس نفسه من خلال ممارسة إيجابيّة على الفرد. "إنّها (أي السلطة) تمارس تأثيرًا موجبًا على الحياة، إذ تسعى لإدارتها وإنمائها" (فوكو، 2013، ص. 137).

يرى أچـامبين أنّ هذه المقارنة "تبدو عديمة الأهمّيّة تمامًا" (أچـامبين، 2017، ص. 87)؛ إذ يترابط ويتّحد نمطا السلطة من خلال "إنتاج الحياة العارية"، حيث إنّ الفعل الأصيل للسيادة هو إنتاج الحياة العارية. من أجل إثبات هذه المقولة، يعود أچـامبين إلى تقاليد "المدينة- الـپـوليس" وأرسطو وتمييزه بين Zios و Bios. حياة الزيوس هي الحياة التي يعيشها الفرد لمجرّد وجودها، لمجرّد كونه على قيد الحياة، الحياة غير المؤهَّلة قانونيًّا، الحياة في شكلها المحض. بينما النوع الثاني هو حياة البيوس، أي الحياة المؤهَّلة سياسيًّا، الحياة الكاملة، التي يكون صاحبها كامل الحقوق معترَفًا به، له كامل الشرعيّة والاعتراف الكامل.

لذا، حين يقول أرسطو إنّ "الإنسان حيوان سياسيّ"، فهو يقصد بذلك الإنسان الذي يعيش في "البيوس"؛ أي الإنسان المعترَف به بكونه جزءًا من الجماعة السياسيّة، له كامل الاعتراف والحقوق، فقد قال أچـامبين: "وُلِدت المدينة من أجل البقاء لكنّها توجَد أساسًا من أجل جودة الحياة" (أچـامبين، 2017، ص. 18). صحيح أنّ

أرسطو استبعد بالفعل الزيوس من الجماعة السياسيّة، ولكن هذا الاستبعاد ليس مطْلَقًا، وإنّما هو احتوائيّ وتضمينيّ في الوقت نفسه (أوجاكونوس، 2019، ص. 16). ويقول أچـامبين: "تتمتّع الحياة العارية في السياسة الغربيّة بهذا الامتياز الغريب: أنّ استبعادها هو الذي يؤسّس الجماعة السياسيّة" (أچـامبين، 2017، ص. 7). يقصد بهذا أنّ استبعاد الحياة العارية هو الذي يؤسّس الجماعة السياسيّة لمجموعةٍ ما محدَّدة.

ووَفقًا لأچـامبين، هذا التمييز بين نوعَيِ الحياة كان بمثابة الأساسيّ للتقاليد الغربيّة للفلسفة السياسيّة المتجذّرة حتّى يومنا هذا، إذ تميّزت السياسة عن المؤسَّسات الخاصّة بأنّها تتعلّق بشيء أكثر من إدامة الحياة البيولوجيّة.

تقوم السيادة عند هذا الفيلسوف على قاعدة الاستثناء، لأنّها تشكّل الجسم السياسيّ عبْر تحديد من يُسمح لهم بالاندماج فيه (عمري، 2024، ص. 48). ويستند هذا الوضع إلى استبعاد أساسيّ لمن سيبقى في الخارج. السيادة تقتضي إنتاج جسم سياسيّ على قاعدة تقسيم للحياة يعود إلى إرث يونانيّ قديم يميّز بين دلالتَيْن للحياة: زيوس Zios؛ بيوس Bios.

إنّ الانخراط في المجتمع السياسيّ يرتبط بهذا الفصل الذي يسمح باستعمال بعض البشر وإقامة مِساحات حظر محرومة من حماية القانون (عمري، 2024). وهذه وظيفة السيادة التي تقتضي تكوين مجتمع سياسيّ يُستبعَد فيه الأفراد الذين لا يصلح أن يكونوا مؤهّلين من الناحية القانونيّة. ومن ثَمّ يصبح الإنسان المستباح هو النموذج النظريّ للأفراد المستبعَدين من الدولة (شطارة ونصّار، 2022)، على اعتبار أنّهم غير صالحين ليكونوا رعايا قانونيّين، فيصبحون مستباحي الدم، خاضعين لاحتماليّة قتلهم ولكنّهم لا يُقتلون، بل يحدَّدون ضمن إطار الكائن الحيّ المجرّد.

في ضوء ذلك، الانخراط في المجتمع السياسيّ لا يبدو ممكنًا إلّا باستبعاد بعض البشر الذين لن يُسمح لهم بأن يصبحوا رعايا قانونيّين بالكامل (أبو رحمة، 2018، ص. 7). في هذا الصدد، يشير أچـامبين إلى أنّ "العلاقات السياسيّة والقضائية والقانونيّة هي، في الأصل، علاقات حظر" (أچـامبين، 2017، ص. 181).

وفي هذا السياق، يعود أچـامبين إلى القانون الرومانيّ القديم موظِّفًا شخصيّة "الإنسان المستباح"، الذي "يتمّ اختزال وجوده بأكمله في الحياة العارية وتجريده من كلّ حقّ بحكم أنّ أيّ شخص يمكنه قتله من دون محاربته على جريمته"

(أچـامبين، 2017، ص. 183)؛ فالإنسان المستباح أُدرِجت حياته العارية داخل النسق السياسيّ، واستُبعِدت حياته المؤهَّلة من أيّ ممارسة سياسيّة واجتماعيّة (عمري، 2024، ص.ص. 48 - 49). الإنسان المستباح لا يخرج عن القانون، بل هو نِتاج القانون الذي يشرّع حالة الاستثناء التي تقوم بدَوْرها بتعليق القانون، ومن ثَمّ خلق إنسان مستباح مستبعَد من التشريع القانونيّ ومن حقّه في نَيْل حماية الدستور.[7]

يرى أچـامبين أنّ حالة الاستثناء التي ألقت بالحياة العارية في النظام السياسيّ تمثّل الأساس الخفيّ لهذا النظام (أچـامبين، 2017، ص. 121). وما يُستبعَد في الاستثناء يبقى قائمًا في ما يتعلّق بالقاعدة في تعليقها، أي تنطبق القاعدة على الاستثناء بانسحابها (أچـامبين،2017، ص. 34). الاستثناء حسب أچـامبين يحمل هو نفسه مفارقة؛ فهو إقصاء من المعيار لكن ما يقصيه مرتبط به ("ينطبق المعيار على الاستثناء بعدم انطباقه عليه وبانسحابه منه")، وما يطلق عليه أچـامبين علاقة الاستثناء هو العلاقة التي تتضمّن الأشياء باستبعادها، فتكون علاقة الاستثناء هي علاقة نفي، لكن ليس المنفيّ خارج القانون ولا هو داخله، بل هو مهمَل من قِبله (علاء الدين، 2019، ص. 10). تُنتَج الحياة العارية من خلال حالة الاستثناء التي جعلت مواطنيها كائنات مستباحة ومجرَّدة من ذواتها السياسيّة ومن حقوقها الطبيعيّة والمدنيّة.

لا يُدْرَج هذا الشخص في النظام القانونيّ إلّا من خلال استبعاده، أي إنّه يجري إدراج شخص يعرف بأنّه مستبعَد، ومن ثَمّ هو انعكاس السيادة، من حيث إنّه ضمن القانون فردًا وخارجه. في هذا يقول أچـامبين: "ما هو في الخارج يتمّ تضمينه ليس عن طريق الحظر أو الدفن فحسب، بل عن طريق تعليق صلاحيَة النظام القانونيّ" (چـامبين، 2017، ص. 16)؛ إذ يعرَّف طابع الاستثناء عند أچـامبين بوصفه الإقصاء الذي يحافظ على علاقة مع القاعدة العامّة في شكل تعليق العمل بالقاعدة.[8] وهو

7. هو إنسان ضُمِّن واستُبعِد في الوقت نفسه؛ جرى تضمين حياته العارية داخل النسق السياسيّ، واستُبعِدت حياته المؤهَّلة لممارسة أدوار سياسية اجتماعية، فجرى تضمينه كموضوع لممارسة السلطة، واستبعاده بوقوعه تحت حالة الاستثناء. (علاء الدين، 2019، ص. 5).

8. يستخدم أچـامبين مصطلح "الاستبعاد الاحتوائيّ"، بالتالي يجب ألّا نطابق بين الاستثناء والاستبعاد من حيث دلالة المصطلح. استبعاد شيءٍ ما يعني أنّه قد صار خارج الشيء الذي استُبعِد منه، أي إنّه لم تَعُدْ ثمّة علاقة بينهما. أمّا الاستثناء من قاعدةٍ ما، فلا يعني أنّ هذا الشيء المستثنى قد استُبعِد على نحوٍ كلّيّ ومطلق عن القاعدة وصار منقطع الصلة عنها، أي لم تعد ثمّة علاقة بينهما. إنّ القاعدة تحافظ على علاقتها بالاستثناء عن طريق عدم انطباقها عليه، عن طريق تخلّيها عنه، هجرها له، انسحابها منه؛ أي إنّ القاعدة لا تستبعد المستثنى منها، وإنّما تحتويه وتتضمّنه لكن على وجه التحديد عن طريق عدم الانطباق عليه.

ما يعني أنّ القاعدة فقدت مضمونها، أي صارت مجرّد مبدأ فارغ، شكل فارغ من العلاقة، أيْ علاقة في شكل لا علاقة (أوجاكونوس، 2019، ص. 21). في هذا يقول فوكو: "يكون القانون إذن، ساري المفعول ولكن من دون أيّ مدلول" (فوكو، 2013، ص. 51)، وبالتالي يستحيل أن نكون محميّين بواسطة القانون، بل نكون مطرودين من حمايته، "أي أنّه هجرنا وتخلّى عنّا" (فوكو، 2013). أي إنّ القانون في تلك الحالة ساري المفعول على الحياة ويتضمّنها بداخله فقط عن طريق إبعادها عنه.

المواطَنة العارية والفلسطينيّ المستباح

عَقدت حكومة إسرائيل صفقة مع حركة حماس، المصنّفة من قبلها كحركة إرهابية، أُفرِج من خلالها عن مئتين وأربعين من المعتقلين والأسرى المحكومين والمحكومات في السجون الإسرائيليّة، امتدّت على مدار سبع دفعات، في الفترة الواقعة بين 2023/11/24 و2023/11/30، لقاءَ الإفراج عن مئة من المخطوفين الإسرائيليّين في قِطاع غزّة (Gupta, 2023). عُقِدت صفقة التبادل ضمن إعلان هدنة إنسانيّة جرى بموجِبها وقف إطلاق النار. جاء في قرار الحكومة رقم 1077 ما يلي: "إطلاق سراح السجناء لأسباب تتعلّق بإدارة علاقات البلاد الخارجيّة وأمنها" (سكرتير الحكومة الإسرائيلية، 2023ت)، ولاحقًا جاء قرار الحكومة رقم 1084 مُراكِمًا على القرار السابق بتأكيده أهمّيّة عَقْد الصفقة ومدى إستراتيجيّتها من أجل تحقيق أهداف الحرب التي أقرّها مجلس الحرب في 2023/10/16. (سكرتير الحكومة الإسرائيلية، 2023ث).

قرار الحكومة يعتمد على قانون الحكومة: المادّة 8 التي بموجبها:

> يجوز للحكومة أن تقرّر إطلاق سراح السجين من السِّجن وأن تجعل إطلاق سراحه مشروطًا، وَفقًا لأحكام هذا القسم، إذا رأت أنّ إطلاق سراح السجين مطلوب لأسباب تتعلّق بإدارة علاقات البلاد الخارجيّة وأمنها، على أن يكون الإفراج ضمن أحد الإجراءات التالية:
>
> 1) إطلاق سراح الأسرى أو المختطَفين من المواطنين الإسرائيليّين أو المقيمين في إسرائيل، بما في ذلك إعادة جثامينهم أو تلقّي معلومات بشأن الأسرى أو المختطَفين أو المفقودين من المواطنين الإسرائيليّين أو المقيمين في إسرائيل. (نيڤو، 2025).

وبمجرّد انتهاء وقف إطلاق النار اللازم لتنفيذ هذا القرار، "فسوف يستمرّ القتال في قِطاع غزّة حتّى تدمير القوّات العسكريّة والبنْية التحتيّة لتهيئة الظروف لعودة جميع المختطَفين"، هكذا يشير نصّ قرار الحكومة (سكرتير الحكومة الإسرائيلية، 2023ت).

وبحسب وجهة نظر مستشاري الأمن القوميّ، يجب المضيّ في صفقة التبادل والهدنة الإنسانيّة؛ وذلك أنّه "ثمّة ما هو مهمّ وملحّ في تنفيذ المخطَّط في الوقت الحاضر، فضلًا عن أنّ المخطَّط سيعزّز إدارة علاقات إسرائيل الخارجيّة، بما في ذلك جوانب الشرعيّة الدوليّة" (سكرتير الحكومة الإسرائيلية، 2023ت).

بعض دفعات الصفقة تضمّنت فلسطينيّات يحملن المواطَنة الإسرائيليّة في صفقة التبادل مع حركة حماس ضمن إطار الإفراج عنهنّ من السجون الإسرائيليّة، مقابل الإفراج عن مخطوفين إسرائيليّين في قِطاع غزّة (القدس العربي، 2024).

ماذا يعني أن تتفاوض دولة، مع العدو، من أجل إطلاق سراح مخطوفين من مواطنيها أُسِروا لدى العدوّ، في مقابل الإفراج عن مواطنين آخرين هم رسميًّا مواطنوها -وهم معتقَلون داخل سجوهنا- على خلفية التعبير عن الرأي- أي داخل سجون دولتهم؟ كيف تستوي المواطَنة في الحالة الأولى مع الثانية؟ على أيّ أساس تكون المفاضَلة في المواطَنة؟ أليست المواطَنةُ الإطارَ العامَّ الأعلى الذي يربط الفرد بالدولة؟

يقول المحامي في مكتب المدعي العام شلومي أبرامزون:

"بفضل مشروع جرائم التحريض، تَمكّنّا من إعادة 7 مختطَفين إلى الوطن، وهو ما يثير اهتمامي أكثر من أيّ شيء آخر". ثمّ يتابع قائلًا:

> في صفقة التبادل الأولى [الدفعة الأولى]، كان 19 من الذين طالبتْ حماس بالإفراج عنهم مقابل إطلاق سراح المختطَفات هم عرب إسرائيليّون متّهَمون بقضايا التحريض، وجرى إيقافهم حتّى انتهاء الإجراءات القضائيّة. لذلك في نسبة مختطَف واحد مقابل ثلاثة سجناء، يمكنك القول إنّها أعادت إلى الوطن ما يقرب من 7 مختطَفين، وهذا أغلى بالنسبة لي من أيّ اعتقال أو سَجن. (كورتس، 2024).

هذه الكلام الصادر من أبرامزون يكشف الآصِرَة المستترة بين السلطة السياديّة والبيوسلطة، من خلال إدراج حياة الفلسطينيّ داخل النظام الإسرائيليّ وإبعادها في آن؛ إذ إنّ الفلسطينيّ في إطار الدولة اليهوديّة ضُمّنتْ حياتُه العارية داخل النسق السياسيّ، واستُبعِدت حياته المؤهّلة لممارسة أدوار سياسيّة، فجرى تضمينه كموضوع لممارسة السلطة، واستبعاده بوقوعه تحت حالة الاستثناء. بالنسبة للنظام الإسرائيليّ، حياة الفلسطينيّ عارية؛ أي إنّ السيادة الإسرائيليّة قائمة على تكوين مجتمع سياسيّ يجري استثناء الفلسطينيّين حمَلة المواطَنة الإسرائيليّة منه، الذين لا يصلح أن يكونوا مؤهَّلين قانونيًّا ولن يُسمح لهم بأن يصبحوا رعايا قانونيّين بالكامل.

هكذا يشير أبرامزون، وهو المسؤول عن جميع القضايا التي فُتِحت على خلفيّة ملفّات التحريض، والذي أمر بتشديد سياسة تطبيق القانون واتّباع نهج صارم "بعدم التسامح" يشمل الاعتقالَ والمحاكمة- وإن كان ذلك بفعل منشور واحد. يضيف أبرامزون كذلك: "لقد بدأنا فورًا، في صباح اليوم التالي لاندلاع الحرب، بالتعاون مع الشاباك والشرطة. حدّدنا مئات حالات "التحريض" في وقت مبْكِر جدًّا على الوسائل التالية: تويتر؛ واتساپ؛ فيسبوك؛ إنستـچـرام؛ تيليـچـرام؛ سناپ تشات؛ يوتيوب" (كورتس، 2024).

المقصود بذلك أنّ التمييز بين الحياة العارية والحياة المؤهَّلة قانونيًّا والمعترَف بها والممنوحة كامل الشرعيّة، يمثّل أساس وجوهر النظام الإسرائيليّ في إسرائيل؛[9] بين حياة الفلسطينيّ (الذي أُعطِيَ المواطَنة الإسرائيليّة) وحياة اليهوديّ الإسرائيليّ. حياة الفلسطينيّ (الذي أُعطِيَ المواطَنة الإسرائيليّة) العارية متأصّلة في النظام الإسرائيليّ، أمّا حياته المؤهَّلة قانونيًّا فطُرِدتْ وأُقصِيَتْ، وذلك على العكس من اليهوديّ، الذي جرى استبعاد حياته العارية وإدراج حياته المؤهَّلة قانونيًّا. هذا الاستبعاد وهذا التضمين هو ما يؤسّس النظام السياسيّ الإسرائيليّ. **بحسب أچـامبين، المواطن بما هو مواطن في الدولة الديمقراطيّة الغربيّة عبارة عن حياة عارية في حالة الإمكانيّة التي قد تخرج في كلّ لحظة إلى الفعل؛ إلى حال الفعل. وفي إسرائيل كحالة خاصّة، تظلّ الحياة العارية التي يمكن أن ننسبها**

9. كاتب هذه السطور مدرك أنّ نظريّة أچـامبين حول الإنسان المستباح والحياة العارية كُتِبت في سياق وإطار تعرية ونقد الدولة الليبراليّة. على الرغم من ذلك، مع القفز عن إطار النظريّة المفاهيميّ، يمكن توظيفها في سياق المقالة مع مراعاة الظروف التاريخيّة والسياسيّة للنظريّة ودون القفز عنها.

للمواطن اليهوديّ في حالة الإمكانيّة بدون أن تخرج إلى الفعل. أمّا الفلسطينيّ المواطن في دولة إسرائيل، فتدخل حياته العارية في ضوء هذه التطوُّرات إلى طور الفعل. لذا، القرار القاضي بإدراج أسماء معتقَلات فلسطينيّات يحملن المواطَنة الإسرائيليّة، في إطار صفقة التبادل من أجل الإفراج عن المخطوفين، هذا القرار يُظهِر العلاقة المستترة الكائنة بين الحياة العارية والنظام السياسيّ في الحالة الإسرائيليّة.

بالإضافة إلى ذلك، ثمّة مثال آخَر[10] يجسّد مفهومَ وتجلِّيَ المواطَنة العارية هو "قرية غير معترَف بها"؛ المصطلح المستخدَم فقط في إسرائيل من بين جميع دول العالم. القرية غير المعترَف بها هي عبارة عن تجمُّع بشريّ دون أيّ خدمات أساسيّة تقدّمها الدولة للسكّان، فضلًا عن تخييم شبح التهجير الملازم للسكّان.

على سبيل المثال لا الحصر، في السنوات الأخيرة خاض أهالي سكّان قرية راس جرابة المنزوعة الاعتراف نضالًا قانونيًّا، عن طريق مركز عدالة القانونيّ لحقوق الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل (عدالة، 2024)، ضدّ أوامر الهدم والإخلاء التي طالت بيوتهم من قِبل دائرة أراضي إسرائيل بحجّة كونهم "غزاة ومتسلّلين" إلى الأراضي. في 2024/6/3، رفضت المحكمة المركزيّة في بئر السبع استئناف أهالي القرية ضدّ قرار تهجيرهم واقتلاعهم من أراضيهم التي عاشوا فيها منذ خمسينيّات القرن الماضي على نحوٍ متواصل. من قراءة قرار المحكمة المركزيّة يتكشّف على نحوٍ صريح أنّ هناك اعترافًا من المحكمة بوجود تصريح ضمنيّ لسَكَن الأهالي في القرية، وأنّهم عاشوا فيها منذ عام 1978 على الأقلّ. على الرغم من ذلك، أمرتهم -وهم أكثر من خمسمئة نسمة- بهدم منازلهم والإخلاء بحلول نهاية عام 2024 لإفساح المجال أمام التوسُّع اليهوديّ لمدينة ديمونا المجاورة لحدود قرية راس جرابة (عدالة، 2024).

لم يكن هذا القرار القضائي الأول القاضي بالتهجير، ولن يكون الأخير. لكن الإضافة النوعيّة الكامنة فيه، بموازاة شرعنة التهجير وتأبيد الحياة العارية للسكّان البدو في القرى غير المعترَف بها والتي تقع في صلب سيادة النظام الإسرائيلي، هي أنه لم يكتف بإقرار كون حياة السكان البدو عارية، بل جاء ليضيف أنه رغم

10. مثال آخر يجسد المواطنة العارية الممنوحة للفلسطيني في إسرائيل: احتجاز جثامين مواطنين كأوراق تفاوضية مستقبلية في أي صفقة محتملة. لأول مرة بعد السابع من أكتوبر 2023، تم احتجاز جثامين مواطنين بهدف التفاوض. انظروا: (عدالة، 2025).

كونها "عارية" إلا أنها قد تكون فائضة عن الحاجة في حالة شكلت عبئًا على حياة المواطن اليهودي المؤهلة شرعيًا. أي أن الحياة العارية للفلسطينيّ، إن كانت تمسّ أو تهدّد حياة اليهوديّ المعترَف بها، فيجب إلغاؤها؛ إذ لا يكفي أنّ حياةَ الفلسطينيّ المؤهَّلة شرعيًّا والمعترَف بها لممارسة حياةٍ سياسيّةٍ مستثناةٌ، وأنّها بلا قيمة، بل يمكن إلغاؤها إذا كانت تمسّ حياة اليهوديّ.

نعود إلى صفقة التبادل وإدراج المعتقَلات ضمنها، فنشير أنّ الفلسطينيّ بوصفه "الإنسان المستباح" أُدرِجت حياته العارية داخل النسق السياسيّ، واستُبعِدت حياته المؤهَّلة من أيّ ممارَسة سياسيّة واجتماعيّة. لذلك اقتصرت حياته العارية على ممارسة نفسها من خلال الاعتقال من أجل إجراء صفقة تبادل، في إطار الإفراج عن المخطوفين. أي أن حياة الفلسطيني المتأصلة في النظام الإسرائيلي، عارية.

ذاك ما يفسّر سبب غياب أيّ آليّةِ معاقَبةٍ لمن قام باحتجاز المعتقَلات الفلسطينيّات من أجل إدراجهم في صفقة التبادل. فالفلسطينيّ شخص يمكن قتله من دون محاكمةِ مَن قَتَلَهُ على جريمته بتهمة القتل.

لذا، يُطرَح السؤال بشأن طبيعة هذه المواطَنة التي مُنحها الفلسطينيّ في إسرائيل: ما طبيعة هذه المواطَنة التي تسمح بالمفاضلة بين أفرادها الذين مُنِحوا إياها؟ إدراج معتقَلات فلسطينيّات يحملن المواطَنة الإسرائيليّة على الصفقة يكشف لنا جوهر المواطَنة التي مُنِحها الفلسطينيّ في أنقى تجلّياتها.

المواطَنة الممنوحة للفلسطينيّ في إسرائيل تنطبق في عدم انطباقها، تعبّر عن ذاتها في فعل اللاشيء. ليس الفلسطينيّ خارج النظام الإسرائيليّ، ولكنّه متضمَّن فيه من خلال استبعاده منه. على العكس من المواطن الألمانيّ، على سبيل المثال، هو خارج النظام الإسرائيليّ ولا تربطه أيّ علاقة به، أمّا الفلسطينيّ في إسرائيل فهو متضمَّن به من خلال استبعاده منه. إنّ المواطَنة المعطاة للفلسطينيّ تحافظ على علاقتها به عن طريق عدم انطباقها عليه، عن طريق تخلّيها عنه، هجْرها له، انسحابها منه. وهو ما يعني أنّ المواطَنة فقدت صلاحيَتها (المؤقَّتة أصلًا)، وبالتالي يستحيل أن نكون محميّين بواسطتها، بل نكون مطرودين من حمايتها.

هذا الإطار النظريّ لا يقتصر على قرار إدراج معتقَلات فلسطينيّات في صفقة التبادل من أجل الإفراج عن المختطفين، بل هو مظلّة عامّة وإطار عامّ يشمل

جميع ممارسات إسرائيل ضدّ فلسطينيّي الـ48 في إسرائيل بعد السابع من أكتوبر 2023، لا بوصفه حدثًا استثنائيًّا ومؤسِّسًا فحسب، بل بكونه يعيد تأسيس اللحظة التأسيسيّة لدولة إسرائيل من الجهة التاريخيّة ومن الجهة الجوهريّة.

إضافة إلى مؤسَّسات تنفيذ القانون الرسميّة في إسرائيل، يُسْهِم كذلك الممثّلون غير الرسميّين للدولة -ولا سيّما المؤسَّسات الأكاديميّة التي من المفترَض أنّها تحمي الفكر النقديّ غير المؤسَّساتيّ- في حماية النظام وتكريس المواطَنة العارية والمستباحة للفلسطينيّ. فقد سارع معهد "التخنيون" للعلوم التطبيقيّة والهندسة إلى التلويح بفصل طالبة فلسطينيّة تَدْرس في المعهد وحَظْر إرجاعها إلى مقاعد الدراسة إنْ أُفرِج عنها في الصفقة (دڤير، 2023). تلك الطالبة اعتُقِلت في 2023/11/13 على خلفيّة ما يسمّى "التحريض"، ونُشِر اسمها ضمن قائمة الأسماء التي صدّقت عليها الحكومة لعَقْد صفقة التبادل في 2023/11/28، علمًا بأنّه لم تُقدَّم لائحة اتّهام ضدّها، أي إنّها لم تكن أصلًا متّهَمة، بل كانت مشتبَهًا بها فقط وموقوفة على ذمّة التحقيق. لم يأبه "التخنيون" إلى أنّ قرار الحكومة بإدراج اسم الطالبة ضمن المفْرَج عنهم لا يخضع لقرار الطالبة، ولا لمحامي الدفاع عنها، ولا لأيّ جهة أخرى. معهد "التخنيون" مدرك تمامًا لحيثيّات قرار الحكومة، لكنّه جاء ليذكّر النظام الإسرائيليّ أنّ حياة الفلسطينيّ العارية استوفت نفسها، ومارست ذاتها عند اعتقالها والإفراج عنها مقابل عودة المختطَفين، وهنا يجب أن تنتهي الحكاية؛ أي إنّه جاء ليذكّر بضرورة تأبيد حياته العارية، واستبعاد ونفي حياته المؤهَّلة. في هذه الحالة، تأتي الوصاية على السياسيّ من قِبل المؤسَّسات غير الرسميّة للدولة والتي تعلن في حالة الاستثناء ولاءَها للمبادئ الدستوريّة وبالتالي انحيازَها لأصحاب الحياة المؤهَّلة، وإقصاءَها لغير مستحقّيها.

خاتمة

تحاول هذه الورقة أن تبيّن أنّ مواطَنة الفلسطينيّ في إسرائيل مزيج من مواطَنة العدوّ والمواطَنة العارية. في هذا المقام، لا يلزمنا أن نحسم في السؤال بشأن ما إذا كانت المواطَنة الممنوحة للفلسطينيّ في إسرائيل مواطَنة عدوّ أَم مواطَنة عارية. على العكس من ذلك، يمكن لهذَيْن الإطارَيْن النظريَّيْن، بتقارُبهما، أن يمنحانا تصوُّرات تُعمِّق فَهْمنا للقمع الإسرائيليّ؛ وذلك أنّ إسرائيل تسخّر سيادتها لصالح هَيْمَنة نظام التفوُّق العرقيّ، وإقصاء الفلسطينيّ، وإلغائه مادّيًّا ورمزيًّا؛

بحيث يكون الفلسطينيّ داخل إسرائيل هو العدوّ، بالإمكان قتله دون أيّ تفعيل لأيّة آليّة محاسَبة ومعاقَبة ضدّ قتله، تمامًا كمثل حال الإنسان المستباح.

من جهة نظريّة شميت، تصلح مفاهيم السيادة والسياسيّ، ومعهما مفهومَا الصديق والعدوّ، لفهم الأسس الأنطولوجيّة للدولة بما هي دولة. ومن جهة نظريّة أچـامبين، يصلح مفهوم الحياة العارية للتطبيق على كلِّ مَن "اكتملت" مواطَنتهم في الدولة بما هي دولة. ومن هنا، ممارسة السيادة (بحسب كلتا النظريّتَيْن) الإسرائيليّة تجاه مواطنيها الفلسطينيّين ليست حالةً استثنائيّة، بل هي حالة خاصّة. تتلخّص هذه الحالة الإسرائيليّة الخاصّة بهشاشة الأسس الديمقراطيّة الليبراليّة في دولة إسرائيل بناءً على أُسُس الفوقيّة الإثنيّة العنصريّة الممنوحة للمواطنين اليهود، وهو ما يمكّن من اعتبار الفلسطينيّين مواطني دولة إسرائيل عدوًّا، على حدّ تعبير شميت، وَ/ أو مواطنين خرجت حياتهم العارية من طور الإمكان إلى طور الفعل- على نحوٍ ما تفسّر نظريّة أچـامبين.

المراجع

أبو رحمة، أماني. (2018، 8 تشرين الثاني). السلطة الحياتيّة وسياسات الموت بين فوكو وأجـامبين. **ألباب**، 12.
https://did.li/dPTIw

أبو رشيد، سليمان. (2024، 20 نيسان). حوار | الأسرى يمرون بظروف غير مسبوقة والسجون تحولت إلى معسكرات تعذيب. **عرب48**.
https://short.arab48.com/short/hBHb

أجـامبين، جورجيو. (2015). **حالة الاستثناء– الإنسان الحرام**. (ترجمة إسماعيل، ناصر). القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.

أجـامبين، جورجيو. (2017). **المنبوذ: السلطة السياديّة والحياة العارية**. (الطبعة الأولى، ترجمة العيادي، عبد العزيز). بغداد/ كولونيا: منشورات الجمل.

أقارقش، يوسف. (2022). السيادة ومعضلة الديمقراطيّة الحديثة في فلسفة كارل شميت. **دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية**، 17. ص.ص. 131- 154.

أوجاكونوس، ميكا. (2019، 14 حزيران). **حِوار مستحيل حول البيوسلطة: أجـامبين وفوكو**. (ترجمة عثمان، طارق). نماء للبحوث والدراسات.
https://nama-center.com/articles/details/41041

براينر، يهوشوع (جوش). (2025، 10 تموز). اعتقال الصحفي إسرائيل پري، الذي عبر عن فرحه بموت جنود، تم تمديده حتى يوم الأحد. **هآرتس**. [بالعبرية]
https://tinyurl.com/559fwvwz

بويرات، أمير علي. (2023أ، 19 تشرين الأول). أم الفحم: اعتقالات وإصابات بقمع مسيرة تنديدًا بالعدوان على غزة. **عرب48**.
https://tinyurl.com/mryv46e5

بويرات، أمير علي. (2023ب، 06 تشرين الثاني). اتهام محمد جبارين وأحمد خليفة بـ"التماثل والتحريض على الإرهاب". **عرب48**.
https://tinyurl.com/4wcrnxb5

پيلج، بار. (2024، 2 كانون الأول). الأربعة الذين أطلقوا الألعاب النارية البحرية باتجاه منزل نتنياهو اتهموا بمخالفات ذات دوافع إرهابية. **هآرتس**. [بالعبرية]
https://tinyurl.com/2zt8r35e

جبارين، حسن. (2020). نقد الدراسات القانونية الإسرائيلية، مركزية "السياسي" الغائب عنها، خاتمة مجلة الدراسات القانونية. **عيوني مشپات**، (2). ص.ص. 505- 527. [بالعبرية]
https://tinyurl.com/2r6xwndu

جوتليف، طالي [טלי גוטליב @TallyGotliv]. (2023، 15 تشرين الأول). عرب إسرائيل الصامتون الآن ولا يعبرون عن امتعاضهم من اغتصاب بناتنا وإبادة شعبنا من قتل متوحش، من حرق الأطفال، قطع الرؤوس واقتلاع العيون، هذا ضررٌ بالولاء لهذه الدولة. عرب إسرائيل الذين ينشرون دعمهم لتنظيم إرهابي متوحش قاتل مثلهم، أمثال مقدمي الدعم للعدو في ساعة حرب وحكمهم السجن المؤبد، هكذا القانون. بعد الحرب لن أنسى. **إكس**. [بالعبرية]
https://x.com/TallyGotliv/status/1713560170704277626

دايتش، فيفيانا. (2022، 01 كانون الأول). إعدام الإرهابيين: عقاب أم انتقام؟. **كان11**.
https://www.kan.org.il/content/kan/podcasts/p-8175/21339

دريدا، جاك. (2001). **ما الذي حدث في حدث 11 سبتمبر؟**. (ترجمة فتحي، صفاء). القاهرة: المجلس الأعلى- المشروع القومي للترجمة.

دفير، نوعام (دبول). (2023، 28 تشرين الثاني). التخنيون لن يقبل الطالبة التي اتهمت بالتماهي مع حماس. **إسرائيل اليوم**. [بالعبرية]
https://www.israelhayom.co.il/news/defense/article/14878198

سكرتير الحكومة الإسرائيلية. (2023أ، 08 تشرين الأول). قرار حكومة رقم 941 من يوم 08/10/2023. **سكرتير الحكومة الإسرائيلية**. [بالعبرية]
https://tinyurl.com/mv2a5e4p

سكرتير الحكومة الإسرائيلية. (2023ب، 18 تشرين الأول). قرار حكومة رقم 968 من يوم 18/10/2023. **سكرتير الحكومة الإسرائيلية**. [بالعبرية]
https://www.gov.il/he/pages/dec968-2023

سكرتير الحكومة الإسرائيلية. (2023ت، 21 تشرين الثاني). إطلاق سراح أسرى من أجل إدارة علاقات الدولة الخارجية وأمنها. **سكرتير الحكومة الإسرائيلية**. [بالعبرية]
https://www.gov.il/he/pages/dec1077-2023

سكرتير الحكومة الإسرائيلية. (2023ث، 27 تشرين الثاني). إطلاق سراح أسرى من أجل إدارة علاقات الدولة الخارجية وأمنها- تعديل قرار الحكومة. **سكرتير الحكومة الإسرائيلية**. [بالعبرية]
https://www.gov.il/he/pages/dec1077-2023

سكرتير الحكومة الإسرائيلية. (2024، 24 كانون الثاني). تمديد إعلان حالة الطوارئ في الجبهة الداخلية. **سكرتير الحكومة الإسرائيلية**. [بالعبرية]
https://www.gov.il/he/pages/dec1150-2023

شرطة اسرائيل [شرطة اسرائيل- משטרת ישראל]. (2023، 17 تشرين الأول). المفوض العام للشرطة، المفتش يعقوب شبتاي: من يرغب بالتضامن وتأييد غزة، مدعو للصعود الآن الى الحافلات المتجهة لهناك. **تيكتوك**.
https://tinyurl.com/mrxea2wb

شطارة، عامر؛ ونصّار، دعاء. (2022). مفهوم السياسات الحيويّة بين ميشيل فوكو وجورجيو أجـامبين. **تَبَيُّن**، 40 (10). ص.ص. 93- 114.

شميت، كارل. (2017). **مفهوم السياسيّ**. (ترجمة محمود، سومر المير). القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.

شميت، كارل. (2018). **اللاهوت السياسيّ**. (ترجمة الساحلي، رانية؛ والصاروط، ياسر). الدوحة/ بيروت: المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات.

عدالة. [د. ت]. حملات قمع ممنهجة لحرية التعبير في المجتمع الفلسطيني في إسرائيل. **عدالة**.
https://www.adalah.org/ar/content/view/10942

عدالة. (2023أ، أيار). عامان على هبة الكرامة (أيار 2021)- سياسات القمع والفصل العنصري. **عدالة**.
https://www.adalah.org/uploads/uploads/May_2021_23_report_AR.pdf

عدالة. (2023ب، 13 تشرين الثاني). حول التحقيقات، الاعتقالات ولوائح الاتهام لفلسطيني الداخل. **عدالة**.
https://www.adalah.org/uploads/uploads/ar_1311_detentions_report.pdf

عدالة. (2023ت، 28 كانون الأول). المُطالبة بالعدالة للمُعتقلين محمّد جبارين وأحمد خليفة في أعقاب مُشاركتهما بمُظاهرة بأُم الفحم. **عدالة**.
https://www.adalah.org/ar/content/view/11002

عدالة. (2024، 28 أيار). رأس جرابة: فصل من فصول النكبة المستمرة في النقب. **عدالة**.
https://www.adalah.org/ar/content/view/11125

عدالة. (2025، 27 تشرين الأول). التحولات في السياسات الإسرائيلية باحتجاز جثامين الفلسطينيين. **عدالة**.
https://www.adalah.org/uploads/uploads/Bodies.pdf

عرب48. (2024أ، 20 آب). الهيئة: الأسرى الفلسطينيون يفقدون من أوزانهم الكثير جراء سياسة التجويع. **عرب48**.
https://short.arab48.com/short/i4Jr

عرب48. (2024ب، 5 تشرين الأول). تقرير: إفادات عن استخدام إصابات المعتقلين كأداة تعذيب. **عرب48**.
https://short.arab48.com/short/TcfH

عرب48. (2024ت، 31 تشرين الأول). نادي الأسير بعد إفراج الاحتلال عن أسرى من الضفة: "تعرضوا لجرائم ممنهجة". **عرب48**.
https://short.arab48.com/short/wSUZ

عرب48/ وفا. (2024، 05 تشرين الأول). سجون الاحتلال الإسرائيلي: شهادات مروعة من داخل معازل الموت والتعذيب. **عرب48**.
https://short.arab48.com/short/ekkP

العربي تيوب [العربي تيوب - AlarabyTube]. (2024، 17 أيّار). نكبة فلسطين من منظور فلسطيني الداخل | بودكاست هامش جاد. **يوتيوب**.
https://www.youtube.com/watch?v=iUiqyevCK8M

علاء الدين، إيمان. (2019، 16 آذار). قراءة وعرض لكتاب المنبوذ: السلطة السياديّة والحياة العارية. **مركز نماء للبحوث والدراسات**.
https://tinyurl.com/bdhba7a4

عمري، محمّد الهادي. (2024). حالة الاستثناء والانسان المستباح عند جورجيو أچامبين. **تَبَيُّن**، 48 (12). ص.ص. 43- 58.

عمّوري، سعيد. (2025، 23 آب). عشرات آلاف الإسرائيليين يتظاهرون ويغلقون طرقًا للمطالبة بصفقة تبادل. **وكالة الأناضول**.
https://tinyurl.com/2kyxnbtz

عواودة، وديع. (2024، 20 شباط). شهادات مروعة لمنظمة حقوقية: ضرب الأسرى بالعصي وإجبارهم على التبول على بعضهم وتقبيل العلم الإسرائيلي. **القدس**.
https://tinyurl.com/yey52fm6

فتحي وزمري بعام. (2023، 19 تشرين الأول). المتحدث باسم الشرطة مثل ما لم تسمعوه من قبل: "من يريد دعم غزة نحن سنرتب له باصًا لقطاع غزة". **راديو أمواج إسرائيل**. [بالعبرية]
https://www.gly.co.il/item?id=30113

فوكو، ميشيل. (2013). **تاريخ الجنسانية 1– إرادة العرفان**. (ترجمة هاشم، محمّد). المغرب: أفريقيا للنشر.

القدس العربي. (2024، 31 كانون الثاني). هآرتس: في اتهام بالتحريض.. ريتا مراد: لو نشره يهودي لقالوا "خطوة احترازية". **القدس العربي**.
https://tinyurl.com/muzyndyw

كمپينسكي، يوني. (2023، 28 تشرين الأول). العائلات بعد لقاء مع رئيس الوزراء: الذهاب إلى صفقة الكل مقابل الكل. **القناة السابعة**. [بالعبرية]
https://www.inn.co.il/news/618204

الكنيست. [د. ت]. وثيقة الاستقلال. **الكنيست**. [بالعبرية]
https://main.knesset.gov.il/about/occasion/pages/declaration.aspx

كورتس، عمير. (2024، 13 أيار). قدمنا أشخاصًا عاديين للمحاكمة. **كالكايست**. [بالعبرية]
https://www.calcalist.co.il/local_news/article/ryzhcr0g0#google_vignette

كوهين، عميحي؛ ولڤي، ميريت. (2023، 10 تشرين الأول). حرب "السيوف الحديدية": حالات خاصة وحالات الطوارئ. **المعهد الإسرائيلي للديمقراطية**. [بالعبرية]
https://www.idi.org.il/articles/51062

محكمة العدل العليا الإسرائيلية. (1953، 9 آذار). قضية رقم (/53 155) سالم أحمد كيوان ضد وزير الأمن. **المحكمة العليا الإسرائيلية**. [بالعبرية]

محكمة العدل العليا الإسرائيلية. (1964، 23 تشرين الأول). قضية رقم (/65 1) يعكوف يردور ضد لجنة الانتخابات المركزية. **المحكمة العليا الإسرائيلية**. [بالعبرية]

المصري، مازن. (2015). "محدوديّات السياسة (اللعبة الانتخابيّة): المادّة 7 أ من قانون الأساس: الكنيست". لدى: روحانا، نديم؛ وصبّاغ-خوري، أريج (محرّران). **الفلسطينيون في إسرائيل قراءات في التاريخ، والسياسة، والمجتمع**. حيفا: مدى الكرمل. ص.ص. 275- 283.

معانيت، حن. (2024، 21 أيّار). تخويل الشرطة بالتحقيق على التحريض من دون موافقة النيابة العامة بقي على حاله منذ بداية الحرب. **هآرتس**. [بالعبرية]
https://tinyurl.com/5n8xkdd7

معجم الكنيست. [د. ت]. الإعلان عن حالة الطوارئ. **الكنيست**. [بالعبرية]
https://tinyurl.com/4cyjbycp

نيڤو. (2025، 14 أيار). قانون الحكومة- 2001. **نيڤو**. [بالعبرية]
https://tinyurl.com/fuawa4wh

Agamben, Giorgio. (1998). **Homo Sacer: Sovereign Power and Bare Life**. Stanford, CA: Stanford University Press.

Gupta, Et. Al. (2023, December 2). Freed Palestinians Were Mostly Young and Not Convicted of Crimes. **New York Times**.
https://tinyurl.com/zc7dkjd8

IsraeliPM [IsraeliPM]. (2023, October 7). Statement by Prime Minister Benjamin Netanyahu. **YouTube**.
https://www.youtube.com/watch?v=eNbtl_0Q6Rg

Kahn, Paul. (2011). Criminal and the Enemy in the Political Imagination. **Yale Law Review**, 99 (1). Pp. 148- 167.

Kahn, Paul. (2013). Imagining Warfare. **European Journal of International law (EJIL)**, 24 (1). Pp. 199- 202.

الالتحام والانفصال في علاقة الداخل مع لحظة غزّة: عن أيّ تَوقٍ وعن أيّ طَوقٍ نكشف؟

حنين زعبي

مقدّمة

تحمل هذه الورقة هواجس التجربة المريرة والمتعثّرة لعلاقة الداخل مع شعبه، ولموقع الداخل في صراعه الوجوديّ مع الحركة الصهيونيّة. كذلك تحمل إشكاليّة تجسّد هذا الصراع في وعيه وفي خطابه وفي تعريفه لذاته السياسيّة. تقترح الورقة التعامل مع لحظة غزّة كلحظة كاشفة، كلحظة كسر معرفيّ كبير، نطلّ منها على حقيقة ذواتنا وواقعنا التي كثيرًا ما أعلنّا عنها تحت طبقات سميكة من البنْية الـمُحْكَمة للقوّة، فماذا يظهر منّا الآن عبْر الثغرة التي فُتِحت فجأة على سيناريوهات لم تكن متخيَّلة؟ كيف مَفْهَمَ الداخل هذه اللحظة؟ كيف تفاعل معها؟ وماذا يقول ذلك عن ذواتنا السياسيّة التي تكشف عنها إجابات لأسئلة غير مسبوقة وصعبة الوضوح؟ ما هو هذا الفَهم المغاير الذي قد تمنحه اللحظة المعرفيّة النادرة، وكيف تعيد الذواتُ السياسيّةُ تَمَوْقُعَها ضمن جغرافيا الصراع في لحظة تكشف فيها الذاتُ السياسيّة عن رهاناتها العميقة؟

ينسب الفيلسوف الفرنسيّ آلان باديو (Badiou, 2005) للّحظات التاريخيّة الاستثنائيّة النادرة، تلك التي تكسر استمراريّة الوضع القائم وتفتح إمكانيّات جديدة، صفاتٍ أنطولوجيّةً مميّزة لا تتمتّع بها سلسلة الأحداث اللانهائيّة والمتشابهة التي تتكوّن منها حياتنا الرتيبة، الأمر الذي يؤهّلها لأن تُنتج حدثًا

انقلابيًّا أو تحوُّليًّا يختلف عن كلّ ما يأتي بعدها. بَيْدَ أنّ باديو لا يكتفي بهذا، بل يرفع الحدث إلى مستوى الحقيقة Truth؛ فهذا الحدث الاستثنائيّ -رغم أنّه لم ينطلق من قوانين الواقع اليوميّة التي نعرفها- لا ينشأ في الفضاء، ولا ينطلق من الفراغ، بل على العكس من ذلك إنّه المنطق العميق والكامن للأحداث اليوميّة، وبالتالي يجسّد الحدثُ -وَفق باديو- حقيقةً TRUTH.

يتيح تفجُّر الحدث-الحقيقة، كانكسار في الوعي التاريخيّ الجمعيّ، إمكانيّة لكي تعيد الذات تَمَوْقُعَها في التاريخ وفي الواقع وفي عالَم مدلولاتها المعنويّة والرمزيّة إذا اختارت التحامًا مع اللحظة واستجابةً لها. وفي حين لا تفترض إعادةُ التمَوْقُع هذه أيَّ أشكال صداميّة بالضرورة، فإنّ حسابات التضحيات والإخلاص هي جزء من عمليّة الكشف الاستثنائيّة عن إدراك الذوات لموقعها التاريخيّ والسياسيّ، إن لم نقل لجدارتها الإنسانيّة. بالتالي، الإخلاص للحقيقة التي يجسّدها الحدث والوفاء لها هما شرطا تشكُّل ذات سياسيّة جديدة قادرة على إدراك المرحلة الجديدة، وعلى تشكيلها من جديد، وعلى التشكُّل عبْرها من جديد. وصّف باديو هذا الإخلاص بالوفاء Fidelity. الوفاء إذًا، وَفْق باديو، هو الوفاء للحقائق الكبرى -وهو ما يتيح للذوات السياسيّة أن تتشكّل في التاريخ.

الوفاء للحدث-الحقيقة يتجسّد عمليًّا عبْر قرار الذات الالتحام أو الانفصال عن اللحظة، وهو قرار لا تستطيع أكثر طبقات القمع والترهيب سماكةً أن تغطّيه. الحدث the EVENT يكشف إذًا حقيقة الذوات، يفضح توقها وطوقها.

وأخيرًا، تحمل هذه الورقة كابوس الضحايا والدمار وشعور الخلع في الروح العاجزة عن إيقاف الكارثة، والعاجزة حتّى عن فَهم معنى أن تكون شاهدة وفيّة فيه. تبدو المعرفة الملِحّة هنا متعدّيةً التفسيرات بكثير، تتعدّى خطاب "لماذا نخاف"، وتتعدّى تفسيرات "الصدمة المستمرّة من النكبة"، وتتعدّى خطاب "النكبة المستمرّة". هي لحظة تبدو فيها المعرفة المتاحة لنا مجرَّد تكرار انفعاليّ دون معنى، مؤكّدة على الحاجة إلى المعنى؛ الحاجة إلى اجتراح تمايزات جديدة في اللغة، وفي وضوح علاقة الإنسان مع عالمه. الوضوح هنا (الوفاء للحقيقة- وَفق تعبير باديو) يتحوّل إلى ممارسة وجوديّة تضع قوانين الآتي.

من هنا، فإنّ ما نبحث عنه في سرديّات الداخل حول السابع من أكتوبر، هو أوسع بكثير من نقاط التقاطع أو الاختلافات حول الحدث بأوجهه العمليّاتيّة أو

العسكريّة أو حتّى السياسيّة الآنيّة. إنّ ما نبحث عنه هو -وَفق باديو- سرديّات تعلن عن قدرة الذوات على الالتحام باللحظة التحوُّليّة، التي فيها **تعبِّر أكثر الذوات هشاشةً عن رهاناتها الوجوديّة**.

إنّها لحظة مرعبة. إنّها لحظة اختبار.

سؤال البحث

لا يتطرّق باديو إلى الحقيقة كقيمة أو كمجال تأويل، بل يؤكّد طبيعتها كبنْية قائمة في الوجود المادّيّ. مع ذلك، تَعتبر هذه الدراسة الخطاب كأحد التدخُّلات Interventions الرئيسيّة والحاسمة للذوات في الحدث-الحقيقة. وَفْق باديو، التدخُّل هو الفعل الأوّل الذي يسمّي الحدث ويعترف به، وهو -وَفْق هذه الدراسة- تدخُّل ممتدّ، هو فضاء التأويل الضروريّ لتعبير وتشكُّل انخراط الذات في مسار الحقيقة الذي فتحه الحدث.

من هنا تسعى الدراسة إلى فحص تحقُّق فرضيّة باديو في تجسُّدها عبْر تحوُّلات الخطاب السياسيّ المتعلّق بالحدث -الحقيقة، فتسأل: كيف بَنَت الخطابات المختلفة علاقتها بالحدث؟ هل تعاملت مع اللحظة كلحظة تحوُّليّة تكشف وتجسّد، وبمفهوم باديو تحمي حقائقَ ما؟ هل تعاملت هذه الخطابات معها كلحظة مرشّحة لتحوُّلات تجسّد معانيَ كانت تائهة؟ ما هي البِنى الذهنيّة والعاطفيّة للذات السياسيّة التي كشفت عن نفسها عبْر الخطاب؟ وماذا تقول هذه البِنى عن علاقة الذوات السياسيّة بواقعها، بتعريفاتها للصراعات التي تشكّل وجودها؟ ماذا تقول هذه البِنى العميقة عن توق الذات الجمعيّة، وعن صراع هذا التوق مع الطوق الذي يحاول طمسها؟ وماذا قد يقول ذلك عن عوائق وإعاقات التحوُّلات السياسيّة للداخل؟

مقارَبات نظريّة

الحدث الفريد- والتحوُّلات

تطوّرت نظريّات التحوُّلات السياسيّة الناتجة عن أحداث مفصليّة في سياق جدل فلسفيّ واجتماعيّ واسع حول العلاقة بين الحدث ونظام القوّة وإمكانيّات الفعل. وضمن جدل فلسفيّ آخر بين بنْية القوّة وشروط الواقع وشروط الفعل الإنسانيّ، برز مفهوم "القَطْع في الزمن الرتيب"، كعمليّة قَطْع في التاريخ لا تُفهم عبْر قوانين ظاهرة بل عبْر الإمكانيّات الخارجة عن الفَهم والتوقُّع الإنسانيَّيْن. هذا القَطْع له قدرة كامنة على زعزعة البنْية عبْر خلق ذوات سياسيّة جديدة. يركّز فالتر بنيامين على اللحظات المفصليّة التي تخرج عن سياق الأحداث الرتيبة وتشكّل قَطعًا خلاصيًّا للتاريخ (بنيامين، 2010)، كما اعتبرت حنة أرندت[1] (أرندت، 2015) أنّ السياسة تكمن في القدرة البشريّة على البدء من جديد وعلى كسر الاستمرار والتكرار، الأمر الذي يجعل الحرّيّة ممكنة أصلًا رغم شروط الواقع المادّيّ من جانبه. وإن كنّا عن الاستعمار نتحدّث، فإنّ فانون يقدّم تصوُّره الخاصّ القائم على أنّ القدرة على الفعل تُستعاد من خلال كسر العلاقة العنيفة مع المستعمِر. ويقدّم باديو في التسعينيّات مفهومه الخاصّ للكسر في التاريخ، بشكل مغاير للفَهْم التقليديّ حول العلاقة بين البنْية والفعل، ذلك الفَهْم الذي يَعتبر أنّ البنْية تُنتِج شروطَ الفعل وأنّ الفاعل يتصرّف داخلها.

وببعد أقلّ تنظيرًا وأكثر التصاقًا بالتجارب المعاشة للحركات الاجتماعيّة، فإنّ أحد الادّعاءات المركزيّة لمنظِّري الحركات الاجتماعيّة تشارلز تيلي ودوغ ماكادم (McAdam; Tarrow; & Tilly, 2001) يتمثّل في أنّ الأحداث المفصليّة–الانعطافيّة هي تلك التي تنفتح على "فرص سياسيّة" لم تكن متاحة من قَبل، فتفتح بدَوْرها أفقًا سياسيًّا جديدًا.[2]

يستند هذا البحث إلى مقاربة آلان باديو لمفهوم "الحدث" EVENT. هذا الحدث، لم يخرج وَفْق باديو من تفاعلات كانت ظاهرة لنا أو من المساحات التي كنّا نعتقد أنّها الممكنة، ولا من قواعد العالم الذي نعيشه يوميًّا. إنّه حدث لا يمتّ بِصِلة

1. نقول هذا رغم أنّها لم تكن من أولئك الذين نظّروا لعمليّة البتر مع الماضي، أو الذين لجأوا إلى تأطيرات ثوريّة للسياسة.

2. يختلف ذلك عن باديو الذي يرى أنّ الحدث هو الفرصة، فلا يفصل بينهما.

لعالَم "الأحداث اليوميّة" الذي يسمّيه باديو عالَم التشابه (Sameness Badiou, 2005). مع ذلك، هو ليس حدثًا ينشأ في الفضاء، أو ينبع من الفراغ، بل إنّه المنطق العميق الكامن للأحداث اليوميّة، الذي لا يتجسّد لنا في المعتاد بوضوح. هذا الفَهم لتفاعلات الواقع-الذات-الممكن يكسر أنماط التفكير التقليديّ بالسياسة وبالواقع وبالذوات، الأمر الذي يمنحه إمكانيّة "الإمساك" المعرفيّ باللحظة.

اختيار باديو في هذه الدراسة لا ينبع من طبيعة الحدث الخارق 7 أكتوبر/ الإبادة فحسب، بل كذلك من حيث هو كما قلنا يجسّد حقيقة TRUTH يميل واقعُ التشابه اليوميّ الذي تنتجه بنْية القوّة إلى طمسها، وتميل كذلك الذات السياسيّة إلى عدم مواجهتها. الحقيقة وَفق باديو هي ليست تأويلًا، أي ليست عمليّة إدراكيّة. هي ليست قيمة أخلاقيّة أو سياسيّة، بل هي بنْية تتحدّد داخل الوجود ذاته (Badiou, 2005). ينصبّ اهتمام باديو الأساسيّ إذًا على المنطق البنيويّ للحقيقة، لا على محتواها القِيَميّ أو الأيديولوجيّ. هذا المعنى هو الذي يجعل باديو يطابق بين الحدث والحقيقة، وهذه المطابقة هي ما يجعل الحدث حدثًا، أي بترًا وقطيعة في التاريخ. انتقال الحقيقة من الممكن إلى التحقُّق هو ما يطلق التاريخ أيضًا، وليس استثنائيّته "المشهديّة" الصادمة؛ فالأخيرة قد تعيد خلق الماضي، وعندئذٍ يكون القَطع مع الماضي عمليّة نكوصيّة وليست ثوريّة. إذًا، الحدث الذي يجسّد حقيقة TRUTH هو أساس السياسة، وبِذا يبتعد باديو عن تعريف السياسة كإدارة للصراع أو للشؤون العامّة أو كمسألة بقاء، الأمر الذي يبدو بالغ الصلة ضمن السياقات الاستعماريّة والغبن المتواصل التي يغري فيها واقع القهر والضعف البشريّ إلى تحويل السياسة إلى عمليّة إدارة يوميّة للظلم.

يضع باديو شرطًا بالغ الأهمّيّة كي لا تكون عمليّة القَطْع مع التاريخ نكوصيّة بل تكون ثوريّة، وهو الوفاء Fidelity. هذا الإخلاص أو الوفاء هو ليس وفاء للحدث بصفته العمليّاتيّة أو العسكريّة، بل بصفته تجسيدًا لحقائق مطموسة، يخنق طمسُها إمكانيّةَ السياسة الحقيقيّة. لكن لكي يشكّل الحدث EVENT قوّة دافعة تدفع التاريخ في الاتّجاه الذي يجسّده، **تحتاج تلك الحقائق إلى وفاء الذوات السياسيّة.**

الحدث الصادم الذي يغيّر مجرى التاريخ والذي يجسّد حقيقة تاريخيّة مؤسّسة لكن مطموسة، والذي يحتاج إلى وفاء الذات السياسيّة، هو ما يجعل باديو مرجعيّة مهمّة لمقارَبة الحدث.

الذات السياسيّة إذًا لا تسبق الحدث، بل تُولَد منه (Calcagno, 2008). من يلتقط الحدث، من يلتقط فرصة الاختلال المادّيّ والرمزيّ والمعنويّ للوضع القائم، ويظلّ وفيًّا للّحظة التي كشفها الحدث، يصبح -وَفْق باديو- فاعلًا سياسيّا بالمعنى العميق. التحوُّل الذي يتحدّث عنه باديو، إذًا، هو ليس تحوُّلًا في الواقع فحسب، بل إنّه في الأساس تحوُّل في الذوات نفسها. لكنّنا لا نعرف مسبقًا من سيشارك في اكتمال الحدث؛ وذلك أنّ الذات -وفق باديو- غير ثابتة، مليئة بتناقضات داخليّة بالإضافة إلى تناقضات الواقع التي تنعكس عليها.

أهمّيّة قراءة الذات في هذه اللحظة تنبع من كوننا نستطيع فيها أن نقرأ توقَها في لحظة "خارج البنْية" لا انخراطَها فقط أو حتّى تحدّيها لمفاعيل القمع الواقعة عليها. فإذا كانت "حقيقة" الذوات مقموعة في لحظات التطبيع وَ"الاستقرار"، فلحظة الكسر "خارج البنْية" تتيح لنا قراءة "حقيقتها".

العواطف: مصدر إدراكيّ، وطاقة سياسيّة في الفاعليّة والسيطرة

يقتضي تحليل العواطف في الخطاب السياسيّ تمييزًا دقيقًا بين المفاهيم التي تُستخدم في المعتاد على نحوٍ مترادف، مثل الانفعال، والإحساس، والشعور والعاطفة، إذ إنّ هذا التمييز ليس لُغويًّا فحسب، بل هو نظريّ ومعرفيّ أيضًا (Shouse, 2005). لقد أُهملت العواطف في التنظيرات السياسيّة، واعتُبِر الحقل السياسيّ حقلًا عقلانيًّا يدار بالمصالح وبالحقوق وبالصراعات وبالبنى الاقتصاديّة وببِنى القوّة، وهمّشت كلّ هذه التنظيرات حول العاطفة باعتبارها شعورًا فرديًّا نفسيًّا لا يهمّ بحدّ ذاته لفهم نشوء الجماعات أو القوّة، حتّى لو كانت فاعلًا فيها، وبالتالي فإنّها لا تحتاج إلى تنظيرات مستقلّة كونها لا تملك كمجال بحثيّ قيمةً علميّة مستقلّة أو قائمة بذاتها لا تُفسَّر بغيرها.

تملك العواطف، وَفْق المقارَبات المرجعيّة التي اختارها البحث، منطقَها الخاصّ لتكوين علاقة ذات معنى مع الوجود عندما تتهاوى الأُطُر المعرفيّة التي اعتدنا عليها، وحين يعجز التفكير المجرَّد لكونه لم يولّد بعدُ مفاهيمَ تَرِثُ المفاهيمَ السابقة التي تهاوت. السابع من أكتوبر هو حدث من نوع الأحداث التقويضيّة معرفيًّا، وبالتالي فإنّ الكثير من التنظيرات تدخل هنا لترشّح العاطفة لأن تقوم بدَوْرَيْن مركزيَّيْن في السياسة: دَوْرٍ إدراكيّ فرديّ، ودَوْرٍ إدراكيّ سياسيّ يدخل في مجال صناعة القوّة وحدود الجماعات.

تنبع أهمّيّة الدَّوْر الإدراكيّ في هذه الدراسة من طبيعة اللحظة التي تتزعزع فيها المعاني التي تربطنا بالعالَم، حيث تبرز الحاجة إلى بنْية إدراكيّة تعيد تنظيم علاقتنا به؛ فالعواطف وَفْق هذه المقاربة ليست مجرَّد انفعالات بل مصدر إدراك.

العواطف، وَفْق هاتشستون، هي "مادّة الحياة" (Hutchsto, 2016)، لكنّها كذلك لا بصفتها الانفعاليّة، بل بصفتها الإدراكيّة والسياسيّة.

بناء على قناعة هذه الدراسة بأهمّيّة التنظيرات التي تحرّك العاطفة إلى مركز السياسة لتوليد فَهم أعمق -وربّما مختلف- للكيفيّة التي تعمل وتنشأ فيها الذوات والقوّة والهيمنة، اختارت ثلاثَ مقارَبات نظريّة للعاطفة تَقْطع نقديًّا مع المقارَبات البيولوجيّة والنفسيّة الكلاسيكيّة. الأولى هي مقارَبة إدراكيّة تحرُّريّة نستطيع أن نقول وَفْقها إنّ العاطفة هنا تنشلنا من أزمة انسداد إدراكيّ؛ فهي طريقة من طرق الذات لفَهْم العالَم ولاتّخاذ موقف منه. وَفْق هذا التوجُّه، العواطف ليست مجرّد انفعالات نفسيّة، بل مشاعر تجسّد معرفة، أو -بعبارة أدقّ- هي تجربة معرفيّة تنشأ حين يسقط الوعي في نمط مختلف من التجربة. بهذا المعنى تعرف العواطف في كلاسيكيّات المنظور الظاهراتيّ -لدى سارتر على سبيل المثال- كوعي يملك القدرة على تغيير علاقتنا بالعالم، حيث إنّها ليست شيئًا نعيشه داخليًّا فقط (Emerick, 1999)، بل هي وعي يحدّد علاقتنا ومنظورنا للعالم، هي ما يشكّل علاقتنا به. فيما بعد، طوّرت نظريّات الصدمة أهمّيّة العواطف في إنتاج معنى ضمن تجربة تحمل انهيارات المعنى.

المقارَبة الثانية هي مقارَبة تاريخيّة ثقافيّة، تتمحور حول مفهوم "بنْية الشعور" Structures of Feeling لرايموند ويليام (McGuigan & Moran, 2014)، ومفهوم الجماعات العاطفيّة لروزنواين (Rosenwein, 2002). يلتقط ويليام المشاعر الجمعيّة كبنْية شعور تنشأ في لحظة تاريخيّة معيّنة. يجادل ويليام بأنّ ما يميّز عصرًا أو مرحلةً تاريخيّة معيَّنة هو ليس أيديولوجيا معلَنة أو نظامًا فكريًّا ما فقط، بل حسّاسيّة وبنْية شعوريّة لا تُختزل كأيديولوجيا أو كوعي صريح، وهي تسبقها. بهذا المعنى يؤمن ويليام بالعلاقة الجدليّة بين البنْية الاجتماعيّة والتجربة الحسّيّة التي تتبلور داخلها بحيث لا تكون مجرّد انعكاس لها. بنْية الشعور هذه تسبق تَجَسُّد التحوُّلات الاجتماعيّة والسياسيّة الكبرى. تملأ بنْية الشعور هذه، إذًا، الفراغ بين التجربةِ الجديدة والصادمة، والتحوُّلاتِ السياسيّة

الاجتماعيّة البطيئة في أعقابها، عندما لا تكون الأيديولوجيا والأفكار مَصُوغة جيّدًا بعد، فتملأ حاجة الإنسان للمعنى، وتسمح بتحليلِ ما هو في طور التكوين أو الزوال في الحسّ الجمعيّ (Duan, 2013). لهذا السبب هي تُعتبر من أهمّ أدوات التحليل الثقافيّ والسياسيّ والاجتماعيّ لفَهْم فترات الانتقال، واللا-يقين، والنزاعات الشعوريّة داخل المجتمعات (Duan, 2013)، الأمر الذي يجعلها شديدة الصلة مع اللحظة التي تَدرسها الورقة الحاليّة. روزنواين من جهتها تؤمن أنّ الفترات التاريخيّة تحتمل أكثر من بنْية شعور، تسمّيها "الجماعات العاطفيّة"، لا تلغي الفروق العاطفيّة هذه -وَفْق روزنواين- بنْية الشعور العامّة، لكنّها تجزّئها على نحوٍ متناقض أحيانًا في بعض جوانبه. تعتمد الجماعات العاطفيّة المتشكّلة ضمن سياقاتها الاجتماعيّة وَفْق روزنواين على معايير وأنماط وتعريفات شعوريّة مختلفة، وكذلك على إستراتيجيّات لتعلُّم وفرض تلك المعايير.

أمّا المقارَبة الثالثة، فهي مقارَبة سياسيّة، تشدّد على الآليّات والتوظيفات السياسيّة لعمليّة هندسة الشعور والعواطف. تضع سارة أحمد، بوصفها من أهمّ منظّرات ومنظّري سياسات العواطف، العواطفَ في مركز صناعة السياسة وأدواتها، أي إنّها تراها كقوّة سياسيّة بالأساس، من حيث هي منظومة روابط، وطاقات وتحرّكات بين الأجساد والحيّز العامّ، تُنتِج أشكالًا مختلفة من الإدراك الجمعيّ، الذي يُنتِج بدوره أشكالًا مختلفة من الحياة السياسيّة والاجتماعيّة. العواطف هنا تعمل كآليّات لإنتاج القوّة والسيطرة وتشكيل الهُويّات. بالتالي تربط أحمد، وبشكل عامّ في تنظير سياسات العاطفة، بين الشعور والفاعليّة السياسيّة مباشرة.

سُمِّي هذا التركيز على دراسة العواطف في علم الاجتماع في منتصف التسعينيّات "التحوُّل العاطفيّ"- "Affective Turn"، وأصبح هذا المصطلح (الذي يرى البعض أنّه جسّد تحوُّلًا بارادايميًّا في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة) يُستخدَم لوصف اتّجاه فكريّ في العلوم الاجتماعيّة، وفيه تحتلّ العاطفة والجسد والشعور والانفعال مكانًا مركزيًّا، وقد كانت للدراسات النسويّة دَوْر مركزيّ فيه (Bakko & Merz, 2015).

تنطلق سارة أحمد من نقد الخطاب والسلطة، وتحلّل العاطفة كمادّة بناء الذات السياسيّة، وكمادّة تشكِّل إمكانات الفاعليّة المتخيَّلة، وتشكّل وتعيد رسم الهُويّة والانتماءات. تؤكّد بذلك أحمد أنّ التجارب الإنسانيّة، بما فيها العاطفيّة،

غير معزولة أو سابقة عن الهياكل الثقافيّة والسياسيّة التي تُشكِّل ما نشعر به، وكيف نشعر، ومتى نشعر، إذ إنّه "الخوف لا يكشف عمّا نخافه فحسب، بل يصنع موضوع الخوف ذاته". (Ahmed, 2004).

يبرز الغضب في سياسات العواطف كإحدى أهمّ العواطف في السياسة. وَفق ليمان، الغضب هو "ردّ على انعدام العدالة" (Holmes, 2004). يصبّ هذا في اتّجاه استنتاج منطقيّ مُفادُهُ أنّ الغضب هو شعور سياسيّ من المفروض أن يرعاه ويستثمره الخطاب السياسيّ الساعي إلى العدالة. وفعلًا، ينسب ليمان للغضب بعدًا "ثوريًّا"، كشكل من أشكال المقاومة؛ الأمر الذي جعل ليمان يعتبره من أهمّ العواطف السياسيّة.[3] من هنا، يصبح تفكيك بنْيةِ الخطاب السياسيّ الشعوريّةِ مدخلًا أساسيًّا لفَهْم العلاقة بالحدث.

أمّا سيّد المشاعر في سياسات العاطفة، فهو الخوف؛ إذ يُعتبَر في الأدبيّات أداةً مركزيّة لتشكيل المواقف الجماعيّة التي تعزِّز وقد تَرْسم حدود الهُويّات والجماعات، والتي تدفع ثانيًا إلى الفعل أو تثبّط الفعل. الخوف، وَفق ما ترى سارة أحمد، هو دافع مركزيّ لسلوكيّات مركزيّة في السياسة تتعلّق بالطاعة والخضوع والتحيُّز والتضامن (Ahmed, 2004) (Hutchston, 2016). وهو (الخوف) يفعل ذلك -وَفق أحمد- عن طريق روابط تُمَوْضِع الأجساد في الفضاء الاجتماعيّ والسياسيّ.

البنْية الخطابيّة: تدخُّل الذات في الحدث، وبنْية عاطفيّة-سياسيّة

تؤسِّس أحمد لفَهْم العاطفة لا كحالة نفسيّة داخليّة، وإنّما كبنْية تداوُليّة وخطابيّة تُنتِج عبْر حركتها بين الأجساد والرموز أنماطًا من الإدراك والهَيْمَنة. يتقاطع هذا الفَهْم مع منهجيّة تحليل الخطاب الذي اختارته هذه الدراسة، كما يتقاطع مع هذه المنهجيّة مفهوم باديو للحدث. من حيث الخطاب، هو أحد تدخّلات الذات في الحدث واختيار الالتحام به أو الانفصال عنه.

يحيلنا هذا التوجُّه إلى لاكوف الذي يرى أنّ المعنى لا يُنتَج من خلال الكلمات فقط،

3. تلتقي هذه المقارَبة السياسيّة مع التحليل التحرُّريّ-الوجوديّ لفانون المرتبط ببنْية الاستعمار النفسيّ، حيث يوضّح فانون أهمّيّة الغضب كقوّة ثوريّة في مسار التحرُّر واستعادة الإنسانيّة المصادَرة من قِبل المستعمِر؛ إذ إنّ عنف المستعمِر لا يدمِّر جسد المستعمَر فحسب، بل يسعى كذلك إلى تفريغه من غضبه (فانون، 2004).

بل كذلك من خلال بنْية النصّ التي تُضمِر تصوُّرات وبِنًى معرفيّة مسبقة، وتحدّد ما هو مهمّ أو هامشيّ في النقاش السياسيّ (Lakoff, 2004). يُبرز هذا الطرح أنّ قدرة الفاعلين السياسيّين على التأثير لا تتوقّف على الحدث، بل على قرار الذات السياسيّة المتعلّق بكيفيّة تأطيره.

يقدّم تحليل الخطاب النقديّ Critical Discourse Analysis عند فيركلــوف (Fairclough, 2001)[4] الذي يَدْرس اللغة بوصفها ممارسة اجتماعيّة، لا نظامًا لُغويًّا فقط، أي إنّه يرى في الخطاب ممارسة اجتماعيّة سياسيّة من الدرجة الأولى. يتيح هذا المنهج فحص ما لا يقال أيضًا عبْر الخطاب، وفحص كيفيّة قيام الخطاب بتقديم بعض التمثيلات كتمثيلات "طبيعيّة" أو "بديهيّة"، بينما هي في الحقيقة خيار أيديولوجيّ.

مع ذلك، الخطاب لدى فيركلوف ليس ممارسة مغلقة، بل هو ممارسة ديناميّة؛ إذ هو يُنتج ويعاد إنتاجه كممارسة اجتماعيّة أي كفاعليّة سياسيّة. من هذا المنطلق، يمكننا من خلال تحليل الخطاب تتبُّع الفاعليّة السياسيّة التي تمارَس عبْره، لتعيد تشكيل الذوات والهُويّات، كما يمكننا رصد التحوُّلات الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة كما تنعكس في أنظمة الخطاب، ورصد الحدود "الجديدة" التي ترسمها الذوات السياسيّة للممكن السياسيّ.

لكن أين نجد "الخطاب"؟ وَفْق باركر، نحن أبدًا لا نجد خطابًا كاملًا متكاملًا، نحن فقط نجد قَطعًا من الخطاب (Parker, 1992)، حيث لا يحضر الخطاب كوحدة مكتملة ومتماسكة، بل كمجموعة شظايا وممارسات لُغويّة موزّعة. بهذا المعنى، الخطاب غير موجود كوحدة أنطولوجيّة تتجلّى في نصّ واحد، بل هو عبارة عن منظومة دلاليّة متشعّبة، تتطلّب من الباحث "تجميعها" تحت تصنيفات مقنعة ومنطقيّة تحافظ على منطق بناء النصّ وسياقه، لإنتاج فَهْم متماسك.

المنهجيّة

التحليل النقديّ الثيماتيّ للخطاب

تقوم الدراسة الحاليّة بتحليل مجموعة من النصوص المكتوبة أو المسموعة أو المرئيّة لناشطين سياسيّين واجتماعيّين وأكاديميّين فلسطينيّين من داخل الخطّ

4. انظر أيضًا: (Gölbaşı, 2017).

الأخضر، وذلك في الفترة الواقعة بين 7 تشرين الأول 2023 و30 حزيران 2024. ظهرت هذه النصوص في وسائل الإعلام، والمواقع الإلكترونيّة، وصفحات التواصل الاجتماعيّ، أو قيلت خلال أيّام دراسيّة وندوات نُظِّمت في تلك الفترة، وبيانات الأحزاب وَ"لجنة المتابعة العليا لقضايا الجماهير العربيّة"، لتغطيات إعلاميّة لنشاطات سياسيّة.

تسعى الدراسة عبْر تحليل الثيمات الرئيسيّة المتكرّرة في النصوص، والإستراتيجيّات الخطابيّة المستعملة، إلى الكشف عن الـمَفْهَمات والخيارات السياسيّة التي يطرحها الداخل على نفسه، أي ما يمكن أن نعتبره "إجابات" الداخل المختلفة للأسئلة الصعبة التي تطرحها اللحظة. من شأن هذا التحليل أن يكشف عن الصراع الداخليّ على المعنى وعلى الأفق السياسيّ، وهو صراع قد يجسّد الفاعليّة السياسيّة الأهمّ في لحظات التحوُّل الغامضة. هذه الفاعليّة لا تكشف عنها المنهجيّات المعتمِدة على تحليل بنْية القمع، أو بنْية الفلسطينيّين الاجتماعيّة والسياسيّة، أو تلك المنهجيّات التي تقوم على تحليل الرؤى والتصوُّرات السياسيّة أو أنماط التصويت أو أشكال التنظيم السياسيّ. وفي هذا الصدد، نكرّر أنّ الإجابة الواردة ضمن هذه الدراسة هي إجابة جزئيّة؛ وذلك أنّها تتضمّن -كما أسلفت- تحليل ثيمتَيْن فقط من مجْمَل خمس ثيمات.

صعوبات وملاحظات منهجيّة

أوّلًا: اللحظة الـمَهُولة سياسيًّا والكاسحة وجدانيًّا والكاسرة معرفيًّا هي "إعاقة" حاضنة للذهول، وللصمت وللإحجام عن الكلام؛ وهو ما يحوِّل أيّ حديث إلى شذرات مبعثَرة ومشفَّرة. ومع ذلك، تُضطرّ الورقة إلى التعامل مع النصوص القليلة ومع هذه الشذرات كجزء من ملامح الخطاب نفسه؛ أي إنّ قلّة النصوص وتوزّعها "غير المنصف" بين سرديّات متناقضة، ليست عائقًا خارجيًّا فقط، بل هي مؤشّر لموازين القوّة التي تنعكس عبْر الخطابات المختلفة من جهة، ومؤشّر لقوّة اللحظة الخارجة عن كلّ الموازين من جهة أخرى. التردُّد في البوح لا يكون بسبب الخوف السياسيّ فقط، بل كذلك بسبب الطبيعة المعرفيّة للحدث من حيث كسره لأدوات التحليل المعروفة. المقصود هنا أنّ المعاني نفسها لم تستقرّ بعد، وما زالت الذات تشكّلها وتبحث عنها، لكن هذا الارتباك -الذي هو قصور في فَهْم الذات للواقع- يتجلّى عبْر إستراتيجيّات تختلف عن صمت الخوف. الذات المرتبكة

ضمن اللحظة المرتبكة تَحْضر في النصّ المرتبك أو المتردّد أو المتخبّط، كمؤشّر على انخراطها في اللحظة، بينما قد يَحْضر النصّ المتماسك والواثق والموجِّه كمؤشّر على خروج الذات من اللحظة المرتبكة.

بعبارة أخرى، يقوّض الحدث الـمَهُول سلطة النصّ المتماسكة "كمساحة لا تستوعب التجربة" (الشيخ، 2024)، ويتجسّد الحدث عبر هذا الاختفاء.

تتوقّع الدراسة أمرَيْن: الأوّل أن تعاني الثيمات المختلفة -بتفاوتٍ ما- من ندرة النصوص. هذه الندرة هي جزء من قراءتنا للّحظة وللذّوات. والثاني أن يُحْدث هذا الخوف تفاوتًا في حضور الخطابات المختلفة بقدر التفاوت في قربها من الشرعيّة المحدّدة إسرائيليًّا، ممّا يعطي "أفضليّة" كمّيّة مسبقة للخطابات التي تلتزم بالحدود الأقلّ تحدّيًا.

وبالتالي، لا يَكْمن خلف الخطابات المتماسكة منطقيًّا ذواتٌ متماسكة، فالخطاب كما يشير فوكو لا يُفهَم بوصفه تعبيرًا عن ذوات واعية أو عن نواياها، بل هو بنْية تَحْكم وتشكّل الذوات ضمن مِساحة من التناقضات داخل هذه الذوات التي تتحرّك بين خطابات مختلفة ومتناقضة أحيانًا. بالتالي، قد تنتقل الذات السياسيّة نفسها، بين خطابَيْن قد يتناقضان تباعًا أو قد تتأرجح بينهما في نفس الوقت؛ حيث اللحظة الانتقاليّة من طبيعتها سائلة، غير مكتملة المعنى، واشتباك الذات معها هو اشتباك غير مسبوق.

ثانيًا: تبغي الورقة تحليل الخطاب السياسيّ في ما بعد الـ7 من أكتوبر، إلّا أنّنا نَعِي أنّ العيّنة التي اختيرت تمثّل قِطاعًا سياسيًّا وعمْريًّا ليس تمثيليًّا، الأمر الذي يجعل كفّ العيّنة تميل لخطاب فلْنُسمِّه "محافظًا".

ثالثًا: قام التحليل باستخلاص خمس ثيمات مركزيّة طاغية في الخطاب السياسيّ: (1) تأطير الحدث؛ (2) المشاعر والعواطف التي تتجسّد في الخطاب؛ (3) الدَّوْر السياسيّ المطلوب وَفْق الخطاب؛ (4) العلاقة مع شعبنا؛ (5) العلاقة مع الدولة اليهوديّة. من المؤكَّد أنّه فقط من خلال تحليل جميعها نستطيع أن نجيب عن أسئلة البحث، ومن المؤكَّد أنّ معنى الثيمة المنفردة لا يكتمل بذاته، بل إنّه يتولّد أيضًا من خلال العلاقات بين الثيمات. يُخِلّ فصل الثيمات إذًا بفَهْمها، ويكتمل فَهْم الثيمة وفَهْم مسوِّغاتها ومدلولاتها ووظيفتها السياسيّة في أحيان كثيرة، من خلال تكامل معناها عبْر تقاطعها مع سائر الثيمات، ومع ذلك يُشكِّل هذا الفصل

أداة تحليليّة هامّة، أي إنّها إستراتيجيّة تحليل أوّليّة، قد يساعد عزل دلالات معيّنة في أن نراها بوضوح قبل أن نعيدها داخل بنْية النصّ الكلّيّة. عمليّة بناء المعنى هذا الذي يُبنى من خلال قراءة الحِوار والعلاقات الداخليّة بين الثيمات يُبنى بالتدريج، ويتشكّل معنى الخطابِ النهائيُّ وتتّضح مدلولاته وبواطنه تدريجيًّا كلّما كشفنا عن الثيمات وعن علاقات بعضها ببعض، الأمر الذي يعني أنّ معنى ثيمةٍ ما، أو بعض الغموض الذي يعتريها، قد يتوضّح خلال المسار التحليليّ لباقي الثيمات، مع الأخذ بعين الاعتبار أن تقدُّمنا في تحليل الثيمات قد يغيّر من تأويل الثيمات السابقة. بِذا فإنّ احتواء هذه الورقة على تحليل لثيمتَيْن لا أكثر يعني قصورًا مسبقًا في التحليل علينا أن نأخذه بعين الاعتبار.

لمحدوديّة حجم الورقة، تعالج هذه الدراسة ثيمتَيْن فقط وهما: التأطير، والعواطف.[5]

في موقعيّة الباحثة

تَنتج المعرفة دائمًا داخل سياق اجتماعيّ سياسيّ ثقافيّ، ويشتبك الباحث مع هذا السياق مكوِّنًا لنفسه موقعًا عينيًّا داخله، لا ينفصل عنه لا في مجهوده البحثيّ ولا ضمن أيّ مجهود آخر. فكما تشير دونا هارواي (Haraway ,1988)، كلّ معرفة هي معرفة "مُمَوْضَعة"، أي إنّها تُنتَج من موقع محدَّد، يحمل معه رؤيته وحدوده. ممارستي السياسيّة[6] هي جزء من موقعي واشتباكي الذي يتأثّر منه هذا البحث الذي لا يدّعي الحياد ولا يستمدّ مشروعيّته منه، ولا يعتقد أنّ المعرفة يمكنها، أو حتّى عليها، أن تستمدّ مشروعيّتها من الحياد المتعلّق بموضوع بحثها وهاجسها تجاهه. مع هذا، الإقرار بأنّ الموقع الاجتماعيّ للباحث يُنتِج أيضًا موقعًا معرفيًّا، وبأنّ المنتَج المعرفيّ العينيّ هو أيضًا موقعٌ ما ضمن خريطة المعرفة الأوسع، يظلّ مطلبَ الموضوعيّة أساسيًّا كجملة من الممارسات المنهجيّة التي تُمكِّن الباحث من تتبُّع آثار انحيازه وتبريرها معرفيًّا. يبدأ ذلك بالإفصاح الصريح عن هاجسه ودافعه البحثيّ، وإدراك أثر ذلك على الخلفيّات الفكريّة والمفاهيميّة التي يختارها لبحثه، وأثرها على منطق تحليله، مع الحرص

5. يجري العمل على الدراسة الكاملة التي تشمل الثيمات الخمس لنشرها لاحقًا.

6. الباحثة عضوة في حزب "التجمُّع الوطنيّ الديمقراطيّ" منذ عام 1997، وكانت أحد أعضاء مكتبه السياسيّ مدّة 19 عامًا، ومثّلته في الكنيست مدّة 10 سنوات.

ألّا يؤثّر جميع ذلك على الدقّة والأمانة في عمليّة جمع البيانات والمعطَيات والمادّة الإمبريقيّة، وعلى الإسناد النظريّ للمقاربات التحليليّة.

بهذا المعنى، قد تضيف موقعيّة الباحث أبعادًا تأويليّة للمعرفة، تكشف ما تغفله أو حتّى تشوّهه المقاربات التي تدّعي الموضوعيّة. وقد تكشف هذه الأبعاد عن موقع معرفيّ مهمَّش وعن سرديّات محاصَرة داخل البنْية المعرفيّة نفسها، الأمر الذي يجسّد صراعًا للقوّة داخل المعرفة نفسها. الإنتاج المعرفيّ بهذا المعنى هو ممارسة سياسيّة بحدّ ذاته. من هذا المنطلق، لا يكتفي علم الاجتماع النقديّ بفَهْم العالَم، بل يسعى إلى تغييره عبْر إعادة بناء العلاقة بين المعرفة والممارسة (Burawoy, 2005). هذا المنطق من التعاطي مع الانخراط الواعي النقديّ، المضادّ للهَيْمنات الموجودة بجميع أشكالها، والمضادّ لفكر التطبيع مع الهَيْمنات، يشكّل إطارًا منهجيًّا يقوم، وليس فقط يُشَرْعِن، على الانخراط الوجوديّ في موضوع البحث، مشدِّدًا في نفس الوقت على أنّ الانخراط في حدّ ذاته ليس مصدرًا للحقائق ولا مرجعيّة لها، بل هو شكل من أشكال الوصول إليها، أو ممارستها أو إدراكها.

في تحليل الخطابات

تأطير الحدث

وَفْق لاكوف (Lakoff, 2004) يَنتج تأطير الأحداث عن بِنًى عقليّة وأيديولوجيّة تتصارع في ما بينها. الصراع السياسيّ -وَفْق لاكوف- المنظور هو أيضًا صراع على الأطر الإدراكيّة، لا مجرّد حِجاج موضوعيّ موقعيّ وعينيّ. بناء على ذلك، يقوم التأطير بتحديد مرجعيّة فكريّة، تفسيريّة وأخلاقيّة لا يُفهَم الحدث دونها. يشمل التأطير إذًا حكمًا على الحدث وتوجيه السلوك نحوه، أي إنّه يُحدِّد أيضًا مروحة الإجابات الممكنة على سؤال ما العمل أيضًا (Entman, 1993). ضمن هذه الوظيفة للتأطير، الحدث يتوقّف عن كونه مجريات ويتحوّل إلى مدرَكات تُرفَق بالحدث العينيّ كجزء عضويّ.

تشير النصوص القليلة التي تفاعلت مباشرة مع حدث السابع من أكتوبر إلى أنّ خطابها تَشَكَّلَ في ظلّ ظروف من الترهيب الإسرائيليّ، وهو ما حدّ من حرّيّتها في تناول مجريات الحدث وإفرازاته. هذا يختلف جذريًّا عن مفهوم التأطير الذي يطرحه إينتمان (Entman, 1993)، حيث يجري تغييب أو إبراز عناصر معيّنة

كجزء من اختيار دلاليّ واعٍ داخل الخطاب نفسه. في حالتنا، لم يكن الصمت الذي شاب الخطابَ خيارًا تأطيريًّا، بل كان سكوتًا قسريًّا ونتاجًا للضغوط والقمع، ممّا يجعل من حضور الحدث وغيابه على حدّ سواء مؤشّرًا على طبيعة العلاقة بين الخطاب والسياسة القمعيّة المحيطة به. من جهة أخرى، تشير القدرة المتفاوتة على التعبير والتحليل إلى مواقع قرب مختلفة للخطاب من الشرعيّة التي تُحدَّد إسرائيليًّا.

برز تأطير الحدث كحدث مَهُول وكعمليّة "كسر معرفيّ"، أو كسر لكلّ ما كنّا نعرفه سابقًا، كمدخل للحدث كما جاء في الاقتباس التالي: "الحدث يخرج عن كلّ التوقُّعات وعمّا ظَنَنّاه ممكنًا: الحدث غير المسبوق إذًا كان يفوق معرفتنا وتصوُّراتنا ولا يمكن الاستمرار بتحليله وَفْق ما عرفناه وتصوّرناه. يحتاج إلى عقل مفتوح يرى في الجديد والتغيير الذي يُحْدِثه في الواقع الذي عرفناه، والمستقبل، ما لم يستطع أحد حتّى الآن رؤيته". (حيدر، 2023).

ويتكرّر هذا التساؤل "مستوى الحدث يهزّ عالَم المفاهيم الذي نعرفه، فكيف نواجه أو نحكم أو نقيّم حدثًا بهذه الضخامة وبموجب أيّة معايير؟". (زريق، 2023). أو كما جاء في النص التالي: "من الصعب الكتابة الآن حول الحدث الإستراتيجيّ المتدحرج والذي بدأ السبت في ساعات الصباح المبكرة مع معركة طوفان الأقصى. ولكن بات واضحًا أنه حدث تاريخيّ مهم بالمفهوم العسكريّ والسياسيّ والإستراتيجيّ، وستكون له دلالته وتبعاته ونتائجه مع انقشاع غبار المعركة". (أبو شحادة، 2023أ).

قد تكون هذه نقطة الإجماع الوحيدة على الحدث، أنّه مزلزل، غير مسبوق وغير قابل للفَهم بالطرق والفرضيّات القديمة. يبدأ الاختلاف عند الانتقال إلى تفاعلات أكثر مباشرة وعينيّة مع الحدث. وفي هذا نستطيع أن نميّز بين توجُّهَيْن رئيسيَّيْن في التأطير: التأطير العينيّ-الكارثيّ، والتأطير السياقيّ.

يميّز شانتو إنچار (Iyengar, 1991) بين التأطير الحدثيّ Episodic Framing والتأطير الموضوعيّ أو السياقيّ Thematic Framing. يبني الأوّل فَهْمًا يلتصق بالحدث حتّى لو تطرّق إلى سياقه، في حين يَفهم الثاني الحدث وَفْق البنْية والسياسات، ويجادل إنچار بأنّ هذَيْن النوعَيْن من التأطير يؤثّران تأثيرًا كبيرًا على تشكيل البعد النقديّ لقراءة الواقع وَفْق سؤال مركزيّ: من نلوم؟

1. التأطير العينيّ: الكارثة والإدانة

اختار التأطير الذي التصق بالحدث نوعَيْن من "الحكْم" عليه، باعتباره إمّا كارثة، وتندرج تحت هذا التوصيف، توصيفات مختلفة مثل "ضرر إستراتيجيّ" وَ "عبث" وَ "عمليّة تخريب"، وإمّا جريمة. هذا التأطير يحوّل الحدث إلى حدث غير مسوَّغ منطقيًّا أو سياسيًّا.

يشدّد هذا التأطير على وقع الحدث على المجتمع الإسرائيليّ، وعلى أنّ الحدث يعيد الصراع إلى خانة التهديد الوجوديّ للطرفَيْن. ويرى في الحدث معطِّلًا لإمكانيّات الحلّ السياسيّ، ومخرِّبًا لمسارات سياسيّة كانت قائمة قبله. بالإضافة إلى ذلك، يرفض هذا التأطير الحدث لكونه لا يعكس رغبة فلسطينيّة عامّة. الاقتباسات التالية تُظهِر هذا التوجُّه:

"لماذا لا نرى في "غزوة" حماس ضربة إستراتيجيّة لفلسطين كشعب ومشروع وحقّ خاصّة وأنّها ضربت عصب المجتمع الإسرائيليّ الواصل إلى غريزة الخوف الوجوديّ ـ وما الذي يُمكن أن تربحه فلسطين والفلسطينيّون من وضع فلسطين في خدمة لمشروع إيران بواسطة حماس أو الجهاد؟ هل ربح لبنان ممّا فعله حزب الله وهل ربحت سوريّة أم أنّهما صارا حُطامًا وذكرى دولتين دفع مئات آلاف الناس حياتهم دمًا من أجل تحرُّرهما من الاستعمار؟". (الحلبي، 2023).

النصّ التالي يشير إلى تعطيل الحدث لحلول سياسيّة عينيّة: "حدثٌ من هذا النوع يؤسِّس لمنطق حرب وجوديّة شاملة وليس إلى حلول تقوم على تقسيم فلسطين. حدث يعيد خطاب الكارثة إلى الواجهة من قبل إسرائيل وأنّ معركتها معركة وجوديّة وتتعدّى موضوعة الاحتلال. لا أعرف فيما إذا كان هذا المنطق يصبّ في صالح الفلسطينيّين الذين هم أنفسهم في واقع الأمر أمام خطر وجوديّ". (زريق، 2023).

تتكرّر جزئيّة الخوف الوجوديّ للمجتمع الإسرائيليّ في النصّ التالي: "ضربت عصب المجتمع الإسرائيليّ الواصل إلى غريزة الخوف الوجوديّ". (الحلبي، 2023).

يُبرِز النصّ التالي أيضًا كارثيّة الحدث: "آلاف الجرحى في الجانب الإسرائيليّ كنتيجة لحملة قتل وحشيّة لا تميّز، 2000 قتيل بين مواطنين ومحاربين، عشرات المخطوفين وقِطاعات من الوطن أُفرِغت. لم يعتقد أحد بأنّنا سنتدهور هكذا. هذه وجهتنا ولا شكّ أنّ الزمن هو زمن الكارثة". (فاخوري، 2024).

ثمّة نصوص أخرى تؤكّد قسريّة الحدث الذي لم تختَرْه، وترفضه إمّا لكونه يمثّل نقيض "حكمة" الداخل السياسيّة: "إنّنا، كما تعلمون، أحفاد النكبة، ونحبّ الحياة ومن يحبّونها؛ وقد رضعنا العبرة من صدور أمّهاتنا ومن دروس الأوائل... نحن في مأزق لم نختره أصلًا" (بولس، 2023أ)، وإمّا لكونه، كحدث ممتد وله تداعياته، يهدّد منجزات الداخل: "المواطنون الفلسطينيّون في إسرائيل حقّقوا مكاسب تراكميّة على مستوى المواطَنة والحقوق، بعيدة أن تقترب من المساواة، ولكنّها توسّع مِساحات الحياة الممكنة. والآن المواطنون العرب عُرضة لخسارة مِساحات من هذه الحقوق". (مسار، 2024). أو كما يَرِد في الاقتباس التالي: "ماذا علينا أن نفعل إن قرّرت حكومة إسرائيل غدًا تقليص وسحب حقوقنا الأساسيّة ورهنها بقائمة شروط تعتمد مبدأَيِ الولاء للدولة اليهوديّة والندّيّة بين طرفَيْ معادلة المواطَنة، أي حقوق مدفوعة مقابل واجبات متمّمة، كما تحدّدها قوانينهم العنصريّة وعقيدتهم المبنيّة على مبدأ الفوقيّة اليهوديّة". (بولس، 2024ب). أو كما في الاقتباس التالي الذي يشير إلى تقويض البنى القائمة: "يواجه الشعب الفلسطينيّ عمليّة إبادة في غزّة وإبادة سياسيّة في الداخل. مرحلة خطيرة ولا تدعو للتفاؤل ولا بأيّ إشارات نصر... الاحتمالات هي باتّجاه نسف البنى القائمة في الداخل أيضًا". (بولس، 2024ب).

كما أسلفت، يندرج ضمن التأطير العينيّ ذلك التأطير الذي يدين الحدث كجريمة. تميّز الورقة بين هذا التأطيرِ كإدراك مؤسّس وشموليّ للحدث، وإدانةِ بعض سلوكيّات الحدث. الأوّل يرى الحدث من خلال "الجريمة" التي يشخّصها كماهيّة الحدث، والثاني يرى الجريمة التي ارتُكِبت خلال الحدث. جزء كبير من النصوص القليلة التي تعاملت مع الحدث كمجريات عمليّاتيّة، أطّرته كـَ "جريمة"، بمعنى أنّها أدركته حصريًّا من خلال البعد "الجنائيّ" أو الأخلاقيّ، مثلما جاء في النصوص التالية: "منذ اليوم الأوّل استنكرنا تلك الجرائم وقمنا بإدانتها وأسمعنا صوتًا إنسانيًّا ومسؤولًا، وصحيحًا متعاطفًا مع الضحايا في المجتمع الإسرائيليّ" (شبيطة، 2023)، أو "لقد عبّرنا عن مقولة أخلاقيّة. ما حدث في 7 أكتوبر هو مسّ بالإنسان وبالعالم كلّه، وقد كان مذبحة تستحقّ كلّ الإدانة، ليس فقط من الزاوية السياسيّة لكن أيضًا من الزاوية الأخلاقيّة، من الزاوية الإنسانيّة". (شبيطة، 2023). أو كما في الاقتباس التالي: "آلاف الجرحى في الجانب الإسرائيليّ كنتيجة لحملة قتل وحشيّة لا تميّز، 2000 قتيل بين مواطنين ومحاربين، عشرات المخطوفين

وقِطاعات من الوطن أُفرِغت. لم يعتقد أحد بأنّنا سنتدهور هكذا. هذه وجهتنا ولا شكّ أنّ الزمن هو زمن الكارثة" (فاخوري، 2024)، وأيضًا: "صواريخ حماس وأفعالها الدنيئة التي لم تميّز بين العرب واليهود. صواريخ حماس التي لم تسلم منها القرى غير المعترف بها". (أبو ربيعة، 2023).

تبدي نصوص أخرى رفضًا ضمنيًّا أو صريحًا لمنطق الحدث كجزء من عمليّة نضال أو مقاومة كما جاء في النص التالي: "ما حدث لا يندرج ضمن أُطُر النضال الوطنيّ ولا أخلاقيّات الشعب الفلسطينيّ". (حلبي، 2023).

الاقتباسات السابقة باختيارها التأطير الحدثيّ لا السياقيّ لا تدين عمليّة قتل المدنيّين فقط، بل هي تعمل على تأطير الحدث برمّته كجريمة، أي إنّها تراه وتقيّمه من مدخل الجريمة المتمثّلة في عمليّة قتل مدنيّين. وأمّا بعضها الآخر، فهو يجمع بين "الموقف الأخلاقيّ" والضرر الإستراتيجيّ. "تلك المذبحة لا تندرج تحت أيّ مسمًّى من مسمَّيات أو تعريفات للإنسانيّة". (حلبي، 2023).

بعض النصوص أضافت مطلبًا بالعقاب: "نحن بحاجة إلى العثور عليهم (الإرهابيّين) والقبض عليهم وجعلهم يدفعون ثمنًا باهظًا جدًّا لأفعالهم". (واحة السلام، 2024).

تختلف هذه النصوص التي تؤطّر الحدث كجريمة اختلافًا جوهريًّا عن تلك التي اختارت أن تدين وأن تستنكر جانبًا عينيًّا من الحدث يتعلّق بـِ "المسّ بالمدنيّين"، دون أن تحوّل هذا الانتهاك كمركز لتأطير الحدث ولفَهمنا له ولطبيعته، كما في الاقتباسات التالية: "إنّ اللقاء كان سيتمّ فيه التداول بشأن الحرب على شعبنا الفلسطينيّ، وللإعلان عن موقف مبدئيّ نُجْمِع عليه في لجنة المتابعة، وهو معارضتنا للمسّ بالأبرياء والمدنيّين، وإخراجهم من دائرة الحرب والكراهيَة، وهذا يسري على ما جرى في 7 تشرين الأوّل الجاري، وعلى ما جرى قبل ذلك اليوم وبعده وما زال. نحن لا نتأتئ بهذا الموقف، إن كان الضحايا مدنيّين إسرائيليّين أو فلسطينيّين. وأكرّر إنّنا نرفض الاعتداء على الأطفال وفقدانهم حياتهم". (حسن وبويرات، 2023). تجدر الإشارة إلى أنه يصعب في بعض الأحيان التمييز بين الإدانة كتأطير جوهري ل 7 أكتوبر كجريمة، أو كإدانة عينية تصف ما تخلّل 7 أكتوبر، كما جاء في النص التالي: "يهمنا أن نؤكد للجمهور الإسرائيلي نفسه، أننا جميعا في قيادة وصفوف الحزب الشيوعي والجبهة، عربًا ويهودًا على حد سواء، نعبر عن الصدمة العميقة، جراء الجرائم التي ارتكبت في 7.10، ضد المواطنين

العزل في إسرائيل. وهذه فرصة للتعبير عن دعمنا الصادق لكل العائلات التي فقدت أعزاءها أو ما زالت تخشى على مصائرهم، وندعو إلى بذل كل جهد إلى إطلاق سراحهم الفوري ضمن صفقة لتبادل الأسرى". (الاتّحاد، 2023أ).

2. التأطير البنيويّ- حدث تحوُّليّ

بخلاف النصوص السابقة، تعكس النصوص التالية تأطيرًا بنيويًّا لا يفصل بين الحدث وسياقه، فيعتبر الحدث ليس فقط جزءًا من سياق بل ممثِّلًا أو مجسِّدًا لسياق. إحدى نتائج هذا الفَهم هي أنّ الحدث -وإن كان صادمًا ومفاجئًا وَفْق قوانين السياسة التقليديّة التي نعهدها- لا يُعتبر غير منطقيّ، كما في الاقتباسات التالية: "العقلاء يعرفون أنّ قانون الفيزياء يقول إنّ الضغط يولّد الانفجار وإنّ التوازن شيء أساسيّ ومهمّ في جميع الأمور. والعقلاء يعرفون أنّه في حال اختلّ هذا التوازن وخرج عن الحدّ الطبيعيّ والمسموح، فإنّ شيئًا سلبيًّا بالتأكيد سوف يحدث". (غزّاوي، 2023).

الحدث ينبع إذًا من سياق صراع طويل ومرير ويعيدنا إليه: "ذلك أنّ المشهد الماثل أمامنا يتمثّل في نظر المراقبين في العودة إلى المربّع الأوّل من الصراع الكولونياليّ في فلسطين". (عبد الفتّاح، 2024ب). الحدث مفهوم أيضًا لأنّه يقع ضمن ثنائيّة العنف – المقاومة، حيث المقاومة هي ردّ فعل طبيعيّ ومُرافِق للقوّة أينما وُجدت: "إنّ ما جرى ويجري، حتّى هذه اللحظة، يتماشى تمامًا مع قانون الفيزياء الذي نعرفه جميعًا، أنّ كثرة الضغط تؤدّي إلى الانفجار. عشرات سنوات الاحتلال والحصار واغتيال القيادات والقتل اليوميّ للناس وانتهاكات حرمات أبناء الشعب الفلسطينيّ وممتلكاته ومقدّساته، ذلك كلّه ليس من الممكن إلّا أن يؤدّي إلى ردّة فعل، والمفاجأة الحقيقيّة قدرة التحمّل للشعب الفلسطينيّ إلى أن وصل إلى نقطة الانفجار". (أبو شحادة، 2023أ).

بالإضافة إلى ما سبق، لا يتعامل هذا الخطاب مع الحدث كحدث خارجيّ، أو كحدث حصل دون قرار منّا، وبالتالي فإنّنا في حِلٍّ منه كما في الخطاب السابق، بل يعلن أنّ المعركة التي فتحها الحدث هي معركته: "إنّنا في أيّام تشتدّ فيها المعركة على الرواية التاريخيّة وأهمّيّة التشديد على انتمائنا لهذا الشعب وتاريخه". (عرب48، 2023). هذه المعركة الواحدة للشعب الفلسطينيّ تؤسّس لعلاقة

عضويّة بين سياق الحدث والذات السياسيّة التي يتكلّم باسمها: "إنّ السياق الأوسع يجمع الفلسطينيّين أينما كانوا ويدعوهم إلى الالتحام مع قضيّة شعبنا التحرُّريّة، في مواجهة منظومة الفصل العنصريّ والاستيطان، من أجل تحرُّر الفلسطينيّين واليهود، من هذه المنظومة، وتحقيق العدالة والمساواة للجميع بين البحر والنهر". (عبد الفتّاح، 2023).

نستطيع أن نرى في هذا الالتحام بالحدث كلحظة ممتدّة، وليس كحدث "عمليّاتيّ"، التدخّلَ Intervention الذي يتحدّث عنه باديو، التدخُّل من حيث هو الْتِحام بلحظة جديدة، ومن هذا الباب فهو يختلف عن دَوْر الداخل مثلًا في "إطلاق صرخة" (مسار، 2024) من أجل غزّة، إذ إنّ الأخيرة تفيد التضامن لكنّها لا تَشِي بأيّ الْتِحام، بل إنّها على العكس من ذلك؛ تَشِي بعمليّة رسم حدود.

ركّزت نصوص التأطير البنيويّ على الحدث لا كمفصل تاريخيّ ما بعده ليس كما قبله فقط، بل كمفصل يملك قدرة تحوُّليّة transformative تُرجِع الصراع إلى المربّع الأوّل أي إلى أسئلته الإستراتيجيّة الأولى، ويُرجِع القضيّة الفلسطينيّة إلى الأَجِنْدة العالميّة، دون أن يُعزى لذلك بعدٌ كارثيّ. بالتالي، نحن نستطيع أن نشبّه الرجوع للمربّع الأوّل -ضمن هذا الخطاب- بالحقيقة بمفهوم باديو. في ما يلي بعض الاقتباسات: "هناك أيضًا تفكير آخر، جذريّ في توجُّهه، منتشر في عموم الشعب الفلسطينيّ. أصحاب هذا التوجُّه يستطيعون رؤية الكارثة الإنسانيّة وتداعياتها على حياة الناس في السنوات المقبلة، ولكنّهم يرَوْن التأثير الإستراتيجيّ لهذه الجولة غير المسبوقة في حدّتها وجرأتها، وفي قدرتها على إعادة قضيّة الشعب الفلسطينيّ إلى الأَجِنْدة العالميّة، وإعادة الروح إلى خيار التحرُّر الوطنيّ، وزجّ الكيان الصهيونيّ في خانة الأنظمة الإباديّة". (عبد الفتّاح، 2024ب).

رأت بعض النصوص أنّ هذه القدرة التحوُّليّة للّحظة تستطيع أن تنشل الواقع الفلسطينيّ من الطريق المسدود الذي وصل إليه: "نحن أمام واقع جديد قيد التشكُّل، يستبطن تناقضات وتعقيدات ضخمة وآلامًا بالغة الشدّة ستمتدّ لسنوات طويلة، ولكن في الوقت ذاته يحمل معه فرصًا جديدة أمام مسيرة التحرّر الفلسطينيّ، الذي بات أكثر من أيّ وقت مضى مرتبطًا بمسألة العدالة الكونيّة". (عبد الفتّاح، 2024ب).

نستطيع أن نربط بين منطقِ هذا الخطاب ونصوصٍ أشارت إلى الزعزعة التي تُحْدِثها اللحظة التحوُّليّة للكيان والمجتمع الإسرائيليَّيْن أيضًا.

مَن تابع ما كُتِب في الإعلام العبريّ خلال الأسابيع الثلاثة الماضية لاحظ كيف تنهار بين اليهود الإسرائيليّين كلّ المفاهيم السائدة حول عناصر قوّة دولة إسرائيل، وبعضها كان في منزلة البديهيّات فوق الطبيعيّة أو العقائد المقدَّسة؛ ومن بينها ثقة المواطنين العمياء بقدرات أجهزة المخابرات والاستخبارات على جمع المعلومات من كلّ موقع في العالم، وتحليلها وتوظيفها في الدفاع عن إسرائيل؛ وكذلك ثقتهم بقوّة جيشهم وبقدرته على الانتصار في كلّ الحروب وجهوزيّته لسحق جميع الأعداء مَهْما تعدّدت جبهات القتال. إنّ فقدان هذه الثقة أدخل جميع المواطنين اليهود في حالة من الهلع المرَضيّ الشديد الذي سلبهم القدرة على التفكير بعقلانيّة وبمنطق إنسانيّ، فقرّروا القضاء على عدوّهم غير آبهين إلى أنّهم تحوّلوا إلى روبوتات وحشيّة لا تتقن غير التدمير والحرق والقتل (بولس، 2023أ).

أو كما جاء في النصّ التالي: "ضربة موجَّهة لإسرائيل... ضربة لإستراتيجيّة الردع... ضربة للهيبة العسكريّة والسياسيّة لإسرائيل". (عواودة، 2023). أو التالي: "إنّ المجتمع الإسرائيليّ، الذي بدأت تتصاعد فيه تناقضاته الداخليّة، سيكتشف أنّه لا يمكن العيش بالسيف إلى الأبد. لا طريق إلى التحرّر، والسلام الحقيقيّ، سوى تحقيق العدالة". (عبد الفتّاح، 2024أ).

يحتاج الحدث الاستثنائيّ إلى تأطير استثنائيّ، وإلى لغة جديدة وإلى مَعانٍ ومَفْهَمات جديدة، كما عبّرتْ عنه بدايةُ هذا الجزء من الدراسة. لكن المعاني الجديدة غير جاهزة، وعمليّة التقويض التي سبقتها تترك فراغًا تأويليًّا لا تجري تعبئته بسرعة، فكيف للحظات صادمة أن تُنتج خطابًا عقلانيًّا متماسكًا ومرشدًا عندما تُفكّك اللحظة -في ما تفكّك- القدرة على التفسير، وتُعطّل آليّات الفَهم التقليديّ؟ في هذه اللحظات، تبرز العواطف كبنْية إدراك. من جهة أخرى، تبرز العواطف كما في المقاربات السياسيّة للعواطف، كآليّة هندسة وضبط اجتماعيَّيْن، على العكس ممّا يدّعيه الخطاب السياسيّ -كما سنرى- من "عفويّة" المشاعر. سوف يتناول الجزء التالي الإستراتيجيّات الخطابيّة للمشاعر التي كانت طاغية في النصوص.

بين النجاة والجرح: مشاعر تحت الصدمة

1. سياق سياسيّ للخوف

برز الخوف في الكثير من النصوص كسيّد المشاعر. نستطيع أن نقول -كما سنرى لاحقًا في النصوص- إنّه لم يكن هنالك نقاش حول المسوِّغات الموضوعيّة للخوف في سياق إبادة كالتي نشهدها، إلّا أنّ النقاش -ومشاعر أخرى- كان محتدمًا حول شرعيّة "قبضة الخوف"، أي مدى شرعيّة تحكُّمه في السلوك والخطاب السياسيَّيْن. بالتالي رأينا تقديم سياق سياسيّ قصير يتعلّق بأجواء الخوف كما انعكس في بعض الأوراق والدراسات التي نُشِرت حول الموضوع. تتبنّى هذه الدراسة فرضيّة العمل القائلة بأنّ الداخل يقع ضمن دائرة الاستهداف الإسرائيليّ بحكم علاقة الصراع التاريخيّ والسياسيّ والوجدانيّ بينه وبين الدولة اليهوديّة، وبالتالي ترى هذه الورقة أنّ علينا مَفْهَمة المواطَنة كسياق من سياقات هذا الصراع، لا كواقع موضوعيّ يعيش خارجه، ليس فقط بمعنى خارج مفاعيله بل كذلك بمعنى خارج شروطه ومعادلاته ووجدانيّاته وحساب قوّة الذوات السياسيّة فيه على أرض الواقع. من ناحية أخرى، رغم رجوع الصراع إلى مربّعه الأوّل ممثَّلًا بإبادة أكثر مشهديّة وحضورًا من النكبة، تشير الدراسات والأوراق المنشورة إلى أنّ الفواعل الفلسطينيّة السياسيّة التقليديّة، ممثَّلةً بالأحزاب ولجنة المتابعة، أنتجت خلال حرب الإبادة خطابًا سياسيًّا تعهَّدَ بـ"الالتزام بالقانون" وَ"بالعمل ضمن المؤسّسات" (شحادة، 2024)، ولم يكن هنالك أيّ فعل احتجاجيّ فلسطينيّ يُذْكَر ضدّ الحرب خلال الأشهر الأولى، وكانت حالة الصمت هي السائدة (زعبي، 2024). نُسِبت تلك الحالة لدى تلك الفواعل إلى أمرين، الخوف كشعور فطريّ، والخوف-النجاة، أي الخوف (الضبط الذاتيّ) كإستراتيجيّة نجاة. وفي استطلاع أجراه مركز مدى الكرمل في مطلع عام 2024، عبّر نحو 55 % من فلسطينيّي الداخل عن شعور بالخوف من اعتداء الشرطة؛ وعبّر 66 % ممّن شملهم الاستطلاع عن خوف من اعتداء أفراد من المجتمع اليهوديّ (شحادة، 2025). تجاوَزَ القمع الإسرائيليّ نشاطات الاحتجاج المباشر ضدّ الحرب، وامتدّ ضمن خطوات غير مسبوقة منذ انتهاء الحكم العسكريّ ليشمل منع اجتماعات سياسيّة لهيئات حزبيّة رسميّة، كما تعدّى السلطات الأمنيّة والرسميّة ليشمل أماكن العمل والتعليم التي تحوّلت إلى جهات رقابة وتحريض وعداء (مجادلة، 2024؛ شحادة 2024).

2. العواطف: انفعالات أَمْ فاعليّة سياسيّة؟

سنحاول عبْر هذه الثيمة الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي السِّمات العاطفيّة السائدة في هذا الخطاب؟ وماذا تقول المقارَبات النظريّة للعاطفة عنها؟ وماذا يقول ذلك عن تفاعل الذات السياسيّة على محور الالتحام-الانفصال عن الحدث كمؤشّر لخياراتها ولجغرافيّتها في الصراع؟ وإلى أيّ حدّ تشير هذه الثيمة إلى أنّ الداخل "قرّر" أو هو في طوره لتشكيل ذات سياسيّة جديدة انطلاقًا من هذا الحدث كما يتوقّع باديو؟

3. الخوف كسيّد المشاعر، الخوف كنجاة

تُستكمل ثيمة الكارثة في هذا الخطاب بثيمة الخوف كشعور مركزيّ وكفطرة إدراكيّة لدى الناس، وبضرورة ضبط النفس كمسؤوليّة وحكمة المرحلة.

تحتفي نصوص كثيرة بضبط النفس، ويعترف بعضها بتحييد العواطف، وتُتوّج الامتناع عن الفعل كأعلى أشكال المسؤوليّة والسلوك الوطنيّ، وكالفاعليّة السياسيّة الأكثر أهمّيّة: "تصرُّفُنا بمسؤوليّة يقطع الطريق لمن يريد السوء لنا. الأمر مَنُوط بنا أيضًا". (أبو راس، 2023). أو كما يشير الاقتباس التالي:

> ما تؤكّده التطوُّرات العدوانيّة والعنصريّة، هو أنّ جماهير شعبنا الفلسطينيّ مستهدَفة، وهناك من يسعى إسرائيليًّا إلى إشعال جبهة اقتتال يفرضها عليها، وذلك تنفيذًا لمخطّطات ومآرب، وقد نشهد اعتداءات جماعيّة مدبّرة، وهذا ليس غير متوقَّع، وباعتقادي أنّ الناس وبناء على الفطرة السياسيّة، تعرف بالمجْمَل كيف تتكافل وتتجاوز مساعي إيقاعها في أيّ فخّ عنصريّ لاستدراجها إلى ساحته [...] ولن تكون أيّ حماية إن لم تكن ذاتيّة وواعية تَحُول دون الوقوع في أحابيل ما يُحاك ضدّها. (مخّول، 2023أ).

أو التالي: "يشعر كلّ مواطن عربيّ في إسرائيل بارتفاع حادّ في حدّة التوتُّر القائم بين المجتمعَيْن، وبأنّ لحظة الانفجار باتت وشيكة، رغم درجة المسؤوليّة العالية التي رافقت، طيلة الأسابيع الفائتة، ردود فعل المواطنين العرب وقياداتهم وجميع مؤسّساتهم الاجتماعيّة والسياسيّة، حيث اختاروا طريق الانضباط الطوعيّ وتحييد تأثير عواطفهم عن تداعيات الأحداث المأساويّة الجارية". (بولس، 2023ب).

أو كما وصفها عضو الكنيست منصور عباس قائلًا: "كما أدعو إلى عدم الانجرار خلف الإشاعات أو الاستجابة للتحريض الذي يسعى للتصعيد داخل بلداتنا وخارجها وداخل الأحياء العربيّة في المدن المختلطة". (عبّاس، 2023).

ظهر الاحتفاء والإشادة بالصمت كمسؤوليّة، كرسالة متكرّرة في الخطاب: "يبدو أنّ القيادات العربيّة والجمهور العربيّ في إسرائيل كان الطرف الوحيد الذي تصرّف بعقليّة الشطرنج وامتنع عن عقليّة البينج بونج، وهكذا كانت ردوده محسوبة معتمدة على تقييم واقعيّ للحقل الذي يعيش فيه ولتوازن القوى والإمكانيّات الممكنة وتلك غير الممكنة أو الخطرة". (دويري، 2024).

تُوِّجَ ذلك باحتفاء بأثر رجعيّ يَقْرن بين هذه الحنكة والقبول بقرار التقسيم؛ وهو ما يضيف إشارات إلى أنّنا قد لا نكون بصدد خطاب يتعلّق بالحدث فقط، وإنّما نحن أيضًا بصدد منطق سياسيّ سابق ومستمرّ رغم الحدث، فيه تعود النُّخَب السياسيّة التقليديّة في الداخل إلى بِنًى أيديولوجيّة سابقة: "كانت بعض القرارات التي تأسّست على منطق الشطرنج معظمها قام بها ممثّلو المواطنين العرب في الداخل: قبول قرار التقسيم من قِبل بعض القوى السياسيّة سنة 1947؛ قبول المواطَنة الإسرائيليّة؛ النضال ضدّ الحكم العسكريّ؛ إعلان يوم الأرض سنة 1976؛ تنظيم النضال السياسيّ في الأحزاب العربيّة وغيرها من القرارات. وأخيرًا ليتنا نغلّب منطق الشطرنج في دوائر حياتنا الشخصيّة والاجتماعيّة والسياسيّة". (دويري، 2024).

في ما يلي اقتباس آخَر يعتمد على حكمة اللحظة من خلال ما يَعرضه كحكمة الماضي: "وجب علينا التوقُّف عن جَلْد الذات وتصوير أبناء شعبنا الباقين هنا كمجموعة من المتخاذلين. هذه صفات لا تليق بتاريخنا وبإنجازاتنا وصمودنا في أحلك الظروف وأصعبها". (كامل، 2024).

نرى ضمن بعض الاقتباسات أنّ هذا الخطاب يعي وجود ادّعاء يربط بين الضبط والخضوع للقمع أو الانسحاب من السياسة، إلّا أنّه يرفضه، كما يوضّح الاقتباس التالي: "من يعتقد أنّ التصرُّف المسؤول للجماهير العربيّة في الأسابيع الأخيرة يعني أنّها باتت أقلّ وطنيّة وفلسطينيّة واهم. من يعتقد أنّه يستطيع استغلال هذه المسؤوليّة لقمع أيّ احتجاج فهو واهم" (الاتّحاد، 2023ب)، أو كما في الاقتباس التالي: "وإسرائيل واهمة إذا اعتقدت أنّ بطشها سيسلخنا عن انتمائنا".

(لجنة المتابعة العليا، 2024). لا نورد هذه الاقتباسات كونها "تبرهن" أنّ الانضباط ليس انسحابًا من السياسة؛ فالسياسة أو الانسحاب منها لا تُدار عبر إستراتيجيّات خطابيّة، بل نوردها لكي نشير إلى وعي هذا الخطاب بالانتقادات التي تُوجَّه إليه، واختياره عدم تهميشها بل الردّ عليها.

في إشارة نادرة، يقدّم لنا أحد النصوص ما يَجدُر أن نَدْرسه كتفسير إضافيّ ممكن للضبط السياسيّ، يتعدّى النجاة: "أعتقد أنّ القيادات العربيّة بعمومها أظهرت ضبط نفس مثاليًّا وتضامنًا كبيرًا جدًّا مع ضحايا 7 أكتوبر... بعد فترة قصيرة بدأت أصوات تنادي بأنّنا بصدد نضال مشترَك" (واحة السلام، 2024)، يثير هذا الاقتباس السؤال التالي: هل هنالك تصوُّر سياسيّ أو وظيفة سياسيّة تكمن خلف هذا المنطق وهذا التعريف للنجاة الذي يعتمد على الضبط؟ ليس المقصود أنّ النصوص التي تشير إلى أهمّيّة النضال المشترك هي نصوص قليلة، بل بالعكس ستُظهر ثيمتا "دورنا السياسيّ"، وَ"العلاقة مع إسرائيل"،[7] أنّ "النضال المشترَك" هو لَبِنة أساسيّة ضمن هذا الخطاب، لكن أهمّيّة هذا الاقتباس هي في أنّه يربط أو ربّما يكشف بين الضبط والنضال المشترَك، فيما قد يكون إشارة إلى نهج سياسيّ أوسع من اللحظة وسابق للّحظة مُفادُه أنّ الانضباط الفلسطينيّ للداخل مطلوب حتّى "يتأهّل" الفلسطينيّ للنضال المشترك.

لا تقوم سياسات الخوف في هذا الخطاب باختلاق أو تضخيم الخطر، لكنّها تقوم على التركيز على الواقع الموضوعيّ المخيف (تصعيد اليمين؛ انفلات اليمين؛ الأجواء الفاشيّة؛ التحريض؛ المصيدة...)، ثمّ تقوم بحصر "الحماية" عن طريق المنطق الداعي إلى ضبط سلوك الفلسطينيّ، أي إنّها تفترض وجود علاقة بديهيّة بين الخوف والامتناع عن الفعل، عبْر قاموس واسع يوجّه -كما رأينا- إلى عدم الفعل، نحو: "الانضباط"؛ "عدم الانجرار إلى..."؛ "عدم الاستجابة لِـ..."؛ "تجنُّـب"؛ "عــدم الوقـوع في الفـخّ..."؛ "عـدم الاستدراج...". تفنّد نظريّة Fear Appeals Witte, 1992)، التي تَدْرس تأثير الخوف على السلوك السياسيّ، العلاقةَ التي تبدو بديهيّة بين الخوف والامتناع عن الفعل، أي بين الخوف والضبط أو الشلل السياسيّ، وتشير إلى إمكانيّة وجود علاقة معاكسة تربط الخوف بحتميّة الفعل، أي إنّها تشير إلى سياقات سياسيّة يعمل بها الخوف كمحفّز للفعل. تفيد النظريّة أنّ ذلك مَنُوط بأمرَيْن: أوّلهما إدراك النخَب والأفراد العواقبَ السلبيّة

7. سننشر ضمن دراسة لاحقة التحليلَ الكامل للثيمات الخمس التي ذُكِرت.

للامتناع عن التصرّف لا المخاطرَ المرتبطةَ بالفعل فحسب، وثانيهما الشعور بالكفاءة الذاتيّة للفعل. في أعقاب ذلك، قامت المراجَعة التحليليّة الواسعة التي قام بها تاننباوم (Tannenbaum, et al., 2015) بتأكيد أنّ الخوف لا يعمل كقوّة منفصلة، بل كقوّة متعلّقة بإدراك كفاءة المواجهة؛ أي إنّ الرسائل الخائفة لا تؤدّي تلقائيًّا إلى ردود فعل سلبيّة أو إلى ارتداد عكسيّ (boomerang effects) كما كان يُعتقد، وإنّ ذلك لا يحدث إلّا عندما تغيب تصوُّرات القدرة أو الفاعليّة الجماعيّة (Tannenbaum, et al., 2015).

يحيل تحليل النصوص السابق إحالة مباشرة إلى سياسات العواطف بوصفها المقارَبة النظريّة الملائمة لتحليله، حيث تعمل الإستراتيجيّات الخطابيّة على هندسة المشاعر عبْر كبت طيف واسع منها، نحو: الغضب؛ الإحباط؛ الألم؛ الخجل؛ تأنيب الضمير... فيظلّ مرحلةً غير مسبوقة في التاريخ الفلسطينيّ من الإبادة والتهجير والتجويع.

4. الجرح الأخلاقيّ

يبرز ضمن هذا الخطاب طيف من المشاعر، ومن الذات السياسيّة المجروحة، جرّاء ما يحدث في غزّة والجرح الأخلاقيّ تجاه ما يعيشه هو من حالة عجز وتأنيب ضمير وإحباط كبير. بينما يكتفي الخطاب الأوّل بتعريف المسؤوليّة كمسؤوليّة نجاة الداخل جسديًّا أو مادّيًّا، يعبّر الخطاب الثاني عن "نجاة" مختلفة، أو بالأحرى هو يسعى إلى نجاة مختلفة. يعبّر هذا الخطاب عن البعد الوجدانيّ والمعنويّ والرمزيّ تجاه غزّة أساسًا، ويتعامل معها كسؤال المرحلة وكسؤال ذاتها الجمعيّة. وفي حين يُخمِد الخطاب الأوّل طيفًا من المشاعر المؤلمة، يطفح هذا الخطاب بها. بناء على ذلك، اخترنا تسمية هذا الخطاب بخطاب "الجرح الأخلاقيّ".

التقط هذا الخطاب حالة وجدانيّة عميقة، قاتمة، مريرة، مركّبة، مرتبكة، تائهة، تعكس حالة ارتباط عاطفيّ قويّ يقع في مركزه الالتزام العميق تجاه غزّة: "غزّة هي جزء منّا وهذا أقلّ الإيمان". (بيادسي، 2024ب). تتموضع غزّة وما يجري فيها إمّا كمركز تجربة تُعبِّر عن "كسر الروح"، كما جاء أيضًا في هذا الاقتباس: "ونمنا كالفَراش حول القناديل وسكتنا نَعُدّ خاءات خيباتنا وننظر نحو غزّة وقد كانت فتاة لا تعرف النوم، تطير "وتغطّي صدرها العاري بأغنية الوداع وتَعُدّ كفَّيْها وتخطئ حين لا تجد الذراع"، ولا تبكي؛ فكيف يبكي من يعيش بين موتَيْن وبحر؟

مرّت شهور الذبح حتّى سمع المدى صهيل الذباب، وطفح الدم وصار ريّقًا في حلوق الناس" (بولس، 2024أ)؛ وإمّا كمَصْدر للفخر: "في ذكرى سقوط حيفا، وحدها غزّة تُعيدُ بناءَ البلاد". (آمنة، 2024ب).

يتفاوت هذا الخطاب في تعبيره عن حالة اللا فعل التي يعاني منها الداخل، لكنّه يتضمّن تصوُّرًا واضحًا أنّ امتحان اللحظة يتعلّق بغزّة. تصف الكثير من التصريحات حالة اللا فعل كجزء من واقع موضوعيّ يخرج عن إرادة الداخل السياسيّة، لكنّه لا يتفاخر بها ولا يحوّلها إلى حكمة صمود وإلى خطاب في المسؤوليّة: "إحنا منعمل ندوات وشعبنا تحت الإبادة، لأنّو هذا اللي منقدر عليه سياسيًّا، وقدرتنا على تغيير حقيقي وجدّي محدودة، قدرة جميع الفلسطينيّين، مش بس الفلسطينيّين في الداخل". (أبو شحادة، 2023ب). وثمّة تصريحات أخرى تعترف بقلّة الحيلة كحالة من الخجل: "نوع ما، قد لا يكون مرتفعًا في سلّم الخجل، محفوظ للفلسطينيّين مواطني إسرائيل. خجل أنّهم لم يستطيعوا أن يمنعوا الكارثة التي تقع على شعبهم الذي يسكن ذات الوطن". (فاخوري، 2024). وهنالك اقتباسات أخرى تدعو إلى الاعتراف بالفشل في امتحان تحدّده غزّة: "لنعترف أنّنا فشلنا في الامتحان، جميعًا، من نهر الشعب إلى بحره، ومن محيط الأمّة إلى خليجها، ومن شرق الأرض إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها. غزّة أكثر من وحيدة، أهلها أكثر من منسيّين". (مواسي، 2024ب). لكن هذا الخطاب يقوم بالتركيز على ما يحدث في غزّة، ويفرد مِساحة كبيرة لوصف الشعور الداخليّ للذات المنكسرة: "كلّ شيء موصوم بالنذالة في هذا العصر، كلامنا وصمتنا وعجزنا!" (آمنة، 2024أ)، أو مثلًا: "ماذا سنحكي لأطفالنا؟ كيف سنروي لهم عن الخِذلان العربيّ السحيق؟". (بيادسي، 2024أ).

تقع حالة الجرح الأخلاقيّ في لبّ هذا الخطاب الذي يعاني من فقدان غير مبرَّر من وجهة نظره، لفاعليّته السياسيّة ولمسؤوليّته الأخلاقيّة. وَفْق بالموتر (Hutchston, 2016, 127)، مجرّد موقع "الشهادة" على الإبادة يكفي لإنتاج حالة من المسؤوليّة، حيث يؤكّد أنّ "الأفراد حتّى أولئك غير المنخرطين مباشرة في الصدمة والجالسين في مقاعدهم المريحة سيشعرون بالمسؤوليّة وبالحاجة لفعل شيء ما، حتّى ولو مِن باب صفتهم "شهودًا" على ما يحدث". كما تؤكّد دراسات الصدمة أنّ العجز وعدم الفعل هو ما يُدخِل الناس إلى حالة صدمة، أي إنّ الصدمة هي ليست الحدث الـمَهُول الذي يحدث في الخارج، بل هي شعور العجز الذاتيّ والجماعيّ إزاءه (Hopper, 2023) (Volkan, 2001).

هذه المشاعر الجريحة، التي تعكس إحباطًا جرّاء فقدان حالة من الفاعليّة السياسيّة، لم تنكر الخوف، ويغيب في نصوصها أيّ رفض صريح أو ضمنيّ لحالة أو "منطقيّة" الخوف، والكثير منها يعترف بوجود الخوف وشرعيّته صراحة لكنّه لا يقبله كتبرير لحالة اللا فعل، ويحذّر من تمجيده كحكمة وكمسؤوليّة، أي إنّه يعترف بمنطق الخوف، إلّا أنّه لا يقبل حالة الصمت والضبط الناشئة عنه، وكذلك لا يقبل حالة الاحتفاء بهذا الصمت كونه يعتبره حالة من الضبط والخنوع وليس من الانضباط الذاتيّ الإيجابيّ: "يا أهل غزّةَ لا تسامحونا ولا تغفروا لأحدٍ ذرائع العجز وأقاويل الحيلة القليلة" (مواسي، 2024أ) أو كما في الاقتباس التالي الذي تكمن أهمّيّته في التمييز المهمّش في الخطاب السياسيّ بين الصمتِ الشعبيّ المبرَّر وصمتِ النخبة غير المبرَّر: "لم يكن الصمت تعبيرًا عن تفكير الحكمة والذي سيبرَّر لدى القادة الصامتين. هل الخوف شعور شرعيّ؟ أعتقد نعم. ولا يمكن إجبار الناس على عدم الخوف في ظلّ نُخَب صامتة، ولكن هل الخوف يبرّر حالة التكيُّف للإبادة. الجواب هو لا". (مصطفى، 2025). حالة التكيُّف، أو الخروج عن استجابة تليق بالحدث تبرز أيضًا في الاقتباس التالي: "لكن أهمّ ملامح الردّ أو التعامل لدى الفلسطينيّين في إسرائيل مع تطوُّرات حرب غزّة وتداعياتها عليهم هو وَهْن الاستجابة للحدث" (غانم، 2024)، أو في الاقتباس التالي الذي لا يتكلّم عن الخوف كشعور، بل عن الخوف كنموذج تفاعل سياسيّ: "إنّ هذا التعامل (نموذج التعامل العسكريّ مع الفلسطينيّين في الداخل) تحوّل إلى نموذج مؤثّر على نفسيّة المواطنين العرب الذين ذوّتوا الانكماش وعدم المواجهة وتقليل الاحتكاك، أي أنّنا خفنا وتمّ ردعنا". (راديو الشمس، 2024). أهمّيّة الاقتباس الأخير تكمن في أنّه لا يرى منطق الخوف هذا، كردّ على تهديد أو خطر عينيّ ماثل أمامنا فحسب، بل إنّه يشخّصه كنمط سياسيّ جرى تعميمه على نفسيّة الداخل نتاج القمع الإسرائيليّ المتواصل. ثمّة نصّ آخَر لا يكتفي برفض الصمت كتفسير، بل يتوقّع منتقدًا التعامل المعرفيّ الفلسطينيّ مع هذا الصمت لا كنوع من المسؤوليّة فقط، بل كمقاومة، كما في الاقتباس التالي: "ليس هنالك تفسير لسياسة الصمت إلّا الخوف. لم يكن هذا الصمت مقاومة، كما ستُظهِر مستقبلًا كذلك أبحاث ودراسات الصمت والصامتين. ولم يكن هذا الصمت تعبيرًا عن الحكمة كما سيبرر له القادة الصامتون" (مصطفى، 2025). هذا الاقتباس يَشِي أيضًا بأمرَيْن بالغَي الأهمّيّة، أوّلهما: نقد دَوْر المعرفة الفلسطينيّة في تأطير الداخل وإدراك سلوكه السياسيّ كحالة مقاومة دائمة حتّى ضمن سلوكيّات خائفة ونكوصيّة، ينتج عن ذلك: نقد دَوْر هذا التوجُّه المعرفيّ (أو

هذه الأيديولوجيا- إن شئتم) في شَرْعَنة نمط معيَّن من البراكسيس السياسيّ المذعور أو النكوصيّ وبالتالي تعزيز هذا النمط- لكن هذا الشأن يخرج عن حدود هذه الورقة.

يشير الاقتباس التالي إلى حالة من الخطورة الأخلاقيّة في الاستكانة، ويعرضها كمؤشّر لحالة سياسيّة أعمق لا نمتلك إزاءها فَهمًا كافيًا، لكن الأهمّ أنّه يشير إلى عمليّة "إعاقة للفاعليّة": "ولكنّنا نسعى كذلك لقراءة وتحليل وربّما مَفْهَمة فاعليّتنا أو بالأحرى إعاقة تلك الفاعليّة، وأن نفهم صمتنا وخوفنا وماذا يقول الصمت والخوف عن النظام القابع فوق رؤوسنا والمسيطر على الأرض تحت أقدامنا، وماذا يقول عن مواطَنتِنا المفترَضة وماذا يقول عنّا وعن مركزنا السياسيّ وماذا قد يقول كذلك، عذرًا منكم، عن تواطؤنا". (هوّاري، 2023؛ 2024).

مرّة أخرى، لم ينكر هذا الخطاب حالة الخوف، ولا هو أنكر شرعيّتها، لكنّه رفضها كحالة تعكس حكمة أو مقاومة: "الصمت ليس حكمة ولا مقاومة وإنّما خوف، ليس فقط من الملاحقة السياسيّة، وإنّما من نكبة ثانية ومن تهجير". (مصطفى، 2025). هنالك من لا يكتفي برفض ربط الخوف بحتميّة الاستكانة، بل يشير إلى خطورة سياسيّة أعمق حيث شخّص الخوف كآلية تفكيك وطني كما يشير الاقتباس التالي: "في مسيرتهم التاريخيّة درج الفلسطينيّون العرب مواطنو إسرائيل على تقاسم الهمّ مع شعبهم الفلسطيني في كافة أماكن تواجده [...] من بين أهداف الحملة الاسرائيليّة لكبت صوتهم خلال الحرب على غزّة، السعي لفك الارتباط داخل مكوّنات الشعب الفلسطينيّ". (مخّول، 2023ب).

الاقتباس التالي يخطو خطوة إلى الأمام، ويدعو إلى توظيف الخوف نحو مراجعات سياسيّة "ما أعنيه هو أنّ حالة الخوف تتلاقى مع ضرورة إعادة التفكير في "واقع الدولة الواحدة"، المتمثّل بحالة الأپرتهايد أوّلًا، وبحالة استهداف أشمل سمّته جنوب أفريقيا في دعواها في المحكمة الدوليّة ضدّ إسرائيل وحربها، بأنّه حالة "إبادة جماعيّة، وجينوسايد". (غانم، 2024).

الشعور بالخطورة وبالخجل الأخلاقيّ لا ينبع من حالة الشلل السياسيّ تجاه غزّة فحسب، بل كذلك من "قدرة" الداخل على الاستمرار بروتينه اليوميّ كما جاء في النصّ: "لا شيء يُجْدي نَفعًا، الأطفال الغزّيّون الذين يصعدون إلى السماءِ ونحن نِيامٌ أو نمارسُ الجنسَ أو نأكل أو نرقص". (آمنة، 2024أ).

لا يقتصر البعد النقديّ لهذا الخطاب على الحالة السياسيّة للداخل، بل إنّه يتضمّن نقدًا للخطاب المعرفيّ للداخل الفلسطينيّ الذي ساد منذ الانتفاضة الثانية، والذي ربط بشكل غير نقديّ بين حالة القمع الإسرائيليّة وحالة الارتداع الفلسطينيّة، مُطالبًا بإعادة تأويل الحالة السياسيّة للداخل بأثر رجعيّ: "لم يعد تفسير أنّ سياسات القمع بعد كلّ هبّة شعبيّة نصل فيها لذروة نضالنا تردع المجتمع وتخيفه، كما كان في انتفاضة القدس والأقصى عام 2000، وهبّة الكرامة عام 2021، بل نحتاج إلى النظر إلى ذواتنا، ونعود الى السؤال المركزيّ، ما يعني أن نكون فلسطينيّين". (مصطفى، 2025).

يطرح هذا الخطاب فاعليّةً سياسيّة من عمق اللحظة المزعزعة، فاعليّةً ترتبط بالبحث عن مَفْهَمات سياسيّة جديدة، متجاوزًا الصدمة بالمفهوم الذي أشار إليه هيرشبرچر (Hirschberger, 2018) الذي يرى الصدمة الجماعيّة لا كحدث مؤلم فحسب، بل كذلك كأزمة في المعنى يواجهها المجتمع. ورغم تعبيره عن الجروح، فإنّ هذا الخطاب لا يكرّر تلك الجروح بشكل انفعاليّ، بل "يستثمرها" من حيث هي تفاعلات وجدانيّة وإدراكيّة ليشكّل عبْرها ذاتيّته السياسيّة "الجديدة"، المنطلقة من وعي ضرورة المراجعات وضرورة إعادة مَوْقَعة الداخل ضمن جغرافيا الصراع. يرفض هذا الخطاب إذًا الاستكانة مؤكّدًا على إمكانيّة تجاوز حالة الإعاقة الذاتيّة.

يمكن اعتبار هذا الخطاب تجسيدًا لبنْية الشعور التي تحدّث عنها ويليام (Duan, 2013)، أي تلك التي تعبّر عن مشاعر "جديدة" تمهّد لمرحلة تاريخيّة جديدة ولتحوّلات سياسيّة وتنظيميّة أكثر تجسُّدًا على الأرض.

يُظهر الحضور المكثّف للعاطفة ما تدّعيه تنظيرات التحوّل العاطفيّ بشأن أنّ العواطف ليست مجرّد انعكاسات جانبيّة للخطاب، بل هي مركّبات فاعلة في إنتاج السياسة وفَهْم المجتمع. يتيح هذا التحليل "العاطفيّ" التقاطَ ما لا يستطيع تحليلُ الخطاب السياسيّ أو المشاريع السياسيّة المطروحة، أو مفاهيم المواطَنة، التقاطَه من توتُّرات مجتمعيّة، وانقسامات وجدانيّة، وفاعليّة سياسيّة وذاتيّات سياسيّة كامنة.

من جهة أخرى، يكشف التحليل عن خطابَيْن مختلفَيْن تمامًا في تعريفهما وتعاطيهما مع العواطف، ومع مدلولاتها السياسيّة، كاشفًا بذلك عن جماعتَيْن عاطفيّتَيْن Emotional Community (Rosenwein, 2002) مختلفتَيْن. وَفْق

هاتشستون (Hutchston, 2016)، الأفراد لا يجتمعون حول مصلحة أو فكرة أو مواقف سياسيّة أو أخلاقيّة فحسب، بل كذلك حول إحساس مشترَك بالعالم وحول عواطف مختلفة تجاه الأشياء، وهم يعيدون بهذا تعريفَ الذات والعالَم معًا. يشكّل كلّ من خطابَيِ الخوف -النجاة من جهة، والجرح الأخلاقيّ من جهة أخرى- ذوات سياسيّة مختلفة، آخذين بعين الاعتبار أنّ الجماعات العاطفيّة ليست ثابتة، بل إنّها تتبدّل مع السياق ومع تحوُّلات وتطوُّرات الواقع.

الحدث والنجاة كبنْية تمهيديّة لإجابات المرحلة القادمة...

أظهر التحليل أعلاه أنّ الخطابات المتعلّقة بالثيمتَيْن: تأطير الحدث والعواطف، لا تختلف على القدرة التحوُّليّة للحدث، ولا على شرعيّة وَ"طبيعيّة" المشاعر جميعها، بل هو في العمق اختلاف حول تصوُّرات الخطر والنجاة. يَعتبر الخطاب الكارثيّ الحدثَ/ التحوُّلاتِ خطرًا، وأنّ الصمت والانضباط نجاة، ومن هنا بنى علاقته الكارثيّة مع الحدث، بينما يَعتبر الخطاب التحوُّليّ (الجرح العاطفيّ) أنّ الحدث والتحوُّلات هي الحقيقة، وأنّ الوفاء لها والانطلاق منها كفرضيّات فاعليّة سياسيّة هي النجاة. قد تقوم السياسة برمّتها على تصوُّرات الخطر والنجاة.

تعمل هاتَان الثيمتان كتمهيد لسؤالِ اللحظة والمرحلة المركزيّ: "العلاقة مع إسرائيل"، أي إنّنا بصدد ثيمات تمهّد لثيمات ماكرو، حيث يُبنى الخطاب عبْر مستويات من المعنى؛ إذ تعمل عناصر من الخطاب كمقدّمات تبريريّة تُهيّئ لتبنّي مقولة مركزيّة تكتمل من خلال **سلاسل التأطير**.[8] تعمل الثيمات إذًا كنسيج منطقيّ ونفسيّ يخدم الغاية الأيديولوجيّة العامّة، مستدعية بشكل انتقائيّ مخاوف وذهنيّات ووجدانيّات عميقة للمجموعة السياسيّة للخطاب. بهذا تكون العلاقة مع الحدث 7 أكتوبر/ الإبادة مدخلًا للوصول إلى الثيمة المركزيّة في الخطاب، والتي هي السؤال المركزيّ للداخل: العلاقة مع إسرائيل، أو موقعه في جغرافيا الصراع. وهي ثيمة لم تُنشَر في هذه الدراسة.

بناء على ما تقدّم، تعمل ثيمتا "التأطير" وَ "المشاعر" كإستراتيجيّات تفتح الطريق نحو موقف سياسيّ أو علاقة سياسيّة بعينها. بمعنى ما، يستطيع القارئ الآن

8. يرى أيتمان من خلال "سلاسل التأطير" أنّ الإطار الأوّليّ يصوغ أفق استقبال الإطار التالي: "الإطارات تعمل في تسلسل، حيث يحدّد الإطار الأوّل شروط قبول المواقف التأويليّة اللاحقة". (Entman, 1993, p. 52).

أن "يتخيّل" كيف يمكن أن يقدّم كلّ خطاب من الخطابَيْن المذكورَيْن إجابات سياسيّة للمرحلة القادمة. وهنا يجدر التوضيح أنّني لا أعني بالخطاب شخصيّات بعينها؛ فالشخصيّات الحاملة للنصوص، كما رأينا سابقًا، قد تتماهى في لحظات مختلفة مع خطابات مختلفة. ينبع ذلك من طبيعة اللحظة الغامضة والمتحوّلة والمنفتحة على معانٍ مختلفة، وكذلك من طبيعة الذوات السياسيّة نفسها.

لا أقف كباحثة بشكل حياديّ بين إجابات المرحلة القادمة المقدَّمة عبر الخطابَيْن، بل أستند إلى باديو الذي حكّم معيار الوفاء للحقيقة كجوهر الفعل السياسيّ الحقيقيّ، الحقيقة التي يقدّمها الحدث **كانفتاح وجدانيّ ومعرفيّ** وسياسيّ، أي كفرصة للتحوُّلات ولخروج الذات السياسيّة للداخل من حالتها المأزومة.

استنتاج أَمْ طريق...

يحيي باديو **الحقيقة** -بأل التعريف- **وأخلاق الوفاء** في السياسة بعد انهياراتهما المتواصلة، ويحيي تدخُّل الذات السياسيّة في التاريخ، حيث لا يبقى معنى لمقولة "لننتظر كيف يتدحرج الحدث". فالحدث لا "يتدحرج". الحدث يلتحم مع الذات السياسيّة إن هي شاءت، أو يُترَك ليخرج من التاريخ دون تحقُّق.

يظهر باديو بذلك أنّ السياسة ليست مجرّد خطاب في الحقوق، أو مناورات أمام أنظمة قمع أو مجموعة تصوُّرات لحلول سياسيّة؛ هذه التعريفات تجرف السياسة وتحوِّلها إلى middle-level-politics، سياسة إدارة للحياة اليوميّة، أو سياسة تصوُّرات لحلول سياسيّة، لا يرافقها براكسس سياسيّ حقيقيّ. السياسة الحقيقيّة، وَفْق باديو، هي سياسة تحترم الحقيقة لا من حيث هي تأويل، بل من حيث هي حقيقة لها منطق رياضيّ، تولَد من نظام، وتُدرَك عبْر تطبيق عمليّة معرفيّة صارمة. هذا الوفاء لهذه الحقيقة، بأل التعريف، هو ما يُمكّن الذات من إدراك الفرص -على حدّ تعبير ماك آدم وتارو- وتجسيدها. السياسة -وَفْق باديو- هي كما الفنّ والعلم والحبّ، جميعها أشكال للحقيقة.

هذا التوجُّه يجعلنا أيضًا نرى التنظيرات التي تتمحور حول بنْية القوّة كأداة محوريّة لتفسير السياسة والفعل السياسيّ، كتنظيرات خانقة تمتصّ الفضاء الإنسانيّ، وتعيق -من حيث هي تحدّد طريقة إدراك- متطلّبات ظهور الذوات خارج منطق القوّة.

قد يضيف لنا باديو طريقة في فَهم الواقع وتحدّيات الظلم، حيث الصراع الرئيسيّ هو ليس فقط بين المستعمِر والمستعمَر، بل هو كذلك بين ذوات سياسيّة مختلفة للمستعمَر ينتجها نظام القوّة والسطوة والعنف نفسه.

لا تخلو هذه المفاهيم ولا يخلو منطلق باديو القائم على القدرة التحوُّلية للحدث- الحقيقة من طابع طوباويّ. وفعلًا، قد لا تكون هنالك إمكانيّة لأيّ تفكير نقديّ، ولأيّ فعل حقيقيّ -في حقول باديو جميعها؛ السياسة والفنّ والحبّ والعلم- دون بُعْد طوباويّ يدفع إلى التغيير، يدفع إلى الوفاء. لكن الطوباويّات بالمعنى الباديونيّ ليست حلمًا ولا غيبيّات، بل هي كامنة في أعماق الواقع القاهر ذاته.

الـمَراجع

أبو راس، ثابت [Thabet Abu Rass]. (2023، 11 تشرين الأول). بن غفير الفاشي [...] الأمر منوط بنا أيضًا. **فيسبوك**.
https://rb.gy/uqeicm

أبـو ربيعـة، راويـة. (2023، 24 كانـون الأوّل). چويتـا، هـذه ليسـت الطريقـة. **هآرتـس**. [بالعبريّـة]
https://shorturl.at/OeqR9

أبـو شـحادة، سـامي. (2023أ، 8 تشـرين الأوّل). طوفـان الأقصى: ملاحظـات أوّليّـة. **عـرب48**.
https://shorturl.at/Q0nuc

أبـو شـحادة، سـامي. (2023ب، 24 كانـون الأوّل). نـدوة مسـارات: "مناقشـة تداعيـات حـرب غـزّة علـى فلسـطينيّي 48 ودَوْرهـم في المشـروع الـوطنيّ". **مسـارات**.
https://shorturl.at/mI0L5

أرندت، حنة. (2015). **الوضع البشريّ**. (ترجمة العرقي، هادية). مؤمنون بلا حدود.

الاتّحـاد. (2023أ، 13 تشـرين الأوّل). الحـزب الشـيوعيّ والجبهـة يحـذّران: التطهيـر العـرقيّ الـذي ترتكبـه الحكومـة الإسـرائيليّة في قِطـاع غـزّة، مـن أبشـع وأخطـر جرائـم الحـرب!. **الاتّحـاد**.
https://shorturl.at/3IDQJ

الاتّحـاد. (2023ب، 5 تشـرين الثّـاني). الجبهـة تحـذر مـن التصعيـد المفتعـل للملاحقـات السـلطوية للمواطنيـن العـرب!. بيـان للجبهـة الديمقراطيـة للـسلام والمسـاواة. **الاتّحـاد**.
https://h7.cl/1jWVZ

آمنـة، رأفـت جمـال [رأفـت جمـال آمنـة]. (2024أ، 10 كانـون الثـاني). لا شيء [...] وصمتنـا وعجزنـا. **فيسـبوك**.
https://shorturl.at/CbnqR

آمنـة، رأفـت جمـال [رأفـت جمـال آمنـة]. (2024ب، 21 نيسـان). في ذكـرى سـقوط حيفـا، وحدهـا غـزّة تُعيـدُ بنـاءَ الـبلاد، **فيسـبوك**.
https://shorturl.at/U7DJT

بنيامين، فالتـر. (2010). **مقـالات مختـارة**. (ترجمـة حسّـان، أحمـد). ميريـت للنشـر والمعلومـات.

بولس، جواد. (2023أ، 26 تشرين الأوّل). الفلسطينيّون في إسرائيل... بين صمت "مثاليّ" وخوف عاقل. **القدس العربيّ**.
https://shorturl.at/bXKD6

بولس، جواد. (2023ب، 16 تشرين الثاني). لحظة الانفجار باتت وشيكة... والعرب أوّل ضحايا سياسة الاضطهاد الإسرائيليّة. **القدس العربيّ**.
https://bit.ly/47PvBfV

بولس، جواد. (2024أ، 4 نيسان). حين كذّبت غزّة شعار "معًا سننتصر" واحترقت وحدها. **القدس العربيّ**.
https://bit.ly/4oUczMe

بولس، جواد. (2024ب، 6 حزيران). يا غافلًا وله في الدهر موعظة!. **القدس العربيّ**.
https://tinyurl.com/3rw5ze99

بيادسي، فرح [Farah Bayadsi]. (2024أ، 25 كانون الثاني). ماذا سنحكي لأطفالنا؟ كيف سنروي لهم عن الخِذلان العربي السّحيق؟. **فيسبوك**.
https://shorturl.at/9kbCr

بيادسي، فرح [Farah Bayadsi]. (2024ب، 20 آب). بالنسبة لحملات التبرّع دعمًا ونصرةً لأهلنا في غزّة. **فيسبوك**.
https://h7.cl/1f6V6

حسن، زكريّا؛ وبويرات، أمير. (2023، 26 تشرين الأوّل). المتابعة تنظّم مؤتمرًا صحافيًّا إثر منع الشرطة إقامة اجتماع عربيّ-يهوديّ. **عرب48**.
https://tinyurl.com/458pjvda

حلبي، رباح [Rabah Halabi]. (2023، 13 تشرين الأول). وصلت حد الإحباط [...] والطمأنينة والأمان. **فيسبوك**.
https://shorturl.at/iJaN8

الحلبي، مرزوق [مرزوق الحلبي]. (2023، 20 تشرين الأوّل). أسئلة خارج السرب. **فيسبوك**.
https://shorturl.at/uMDXV

حيدر، عزيز [Aziz Mhaidar]. (2023، 10 تشرين الأوّل). سذاجة، أمريكا ترسل حاملتي طائرات، [...]. **فيسبوك**.
https://h7.cl/1f6T1

دويري، مروان. (2024، 1 كانون الثاني). لعبة الشطرنج ومنطق الجدوى. **سين48scene**.
https://scene48.org/articles/belkhat-alareed/laab-alshtrng-omntk-algdo

راديو الشمس. (2024، 4 حزيران). د. هُنَيْدة غانم: نقطة الانطلاق في التعامل مع المواطنين العرب هي أنّهم طابور خامس. **راديو الشمس**.
https://tinyurl.com/5bd8cbv3

زريق، رائف [Raif Zreik]. (2023، 11 تشرين الأول). ماذا يمكن أن يقال؟. **فيسبوك**.
https://h7.cl/1jWTI

زعبي، همّت. (2024، 21 شباط). "العدوّ من الداخل": فلسطينيّو 48 خلال حرب الإبادة الإسرائيليّة على غزّة. ورقة سياسات. **مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة**.
https://www.palestine-studies.org/ar/node/1655233

شبيطة، أمجد. (2023، 10 كانون الأوّل). اليمين يريد رؤية "حداش" خارج القانون. **هآرتس**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/ymps6ywp

شحادة، امطانس. (2024ب، حزيران). مواطَنة هشّة: العنصريّة والقمع تجاه المواطنين العرب في إسرائيل إبّان الحرب على غزّة. دراسات عن إسرائيل. **مدى الكرمل**.
https://did.li/lTMZH

شحادة، امطانس. (2025). "مواقف المجتمع العربيّ تجاه الحرب على غزّة وإسقاطاتها السياسيّة: تحليل استطلاع رأي عامّ". لدى: زعبي، همّت؛ وهوّاري، عرين (محرّرتان). **فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة**. حيفا: مدى الكرمل. ص.ص. 27 - 49.

الشيخ، عبد الرحيم. (شتاء 2024). غزّة القلب المفتوح. **مجلّة الدراسات الفلسطينيّة**، 137.
https://www.palestine-studies.org/ar/node/1654938

عباس، منصور [מנסור עבאס Mansour Abbas]. (2023، 7 تشرين الأول). على ضوء الأحداث المأساوية. **إكس**. [بالعبريّة]
https://x.com/mnsorabbas/status/1710625964491772080

عبد الفتّاح، عوض. (2023، 18 تشرين الأوّل). مرّة أخرى، فلسطينيّو الـ48: مجموعة قوميّة مستهدَفة. **عرب48**.
ln.run/ZVieO

عبد الفتّاح، عوض. (2024أ، 15 كانون الثاني). كيف وصلنا إلى هنا؟. **عرب48**.
ln.run/eQh05

عبد الفتّاح، عوض. (2024ب، 7 شباط). "هل نستطيع العيش مع هؤلاء؟". **عرب48**.
ln.run/y4kNE

عرب48. (2023، 2 كانون الأوّل). التجمّع يعقد جلسة استثنائيّة لمجلسه العامّ ويطالب بالوقف الفوريّ للعدوان على غزّة. **عرب48**.
ln.run/4RcHS

عـواودة، وديـع. (2023، 8 تشـرين الأوّل). "طوفـان الأقصى".. ضربة إسـتراتيجيّة لإسـرائيل تذكّـر بأكتوبـر 1973 أصابـت هيبتهـا وثقتهـا بنفسـها.. ونتنياهـو لـم يحـدّد هـدف "السـيوف الحديديّـة". **القـدس العـربيّ**.
ln.run/PTLgu

غانـم، أسـعد. (2024، 18 شـباط). دَور الفلسـطينيّين في إسـرائيل أثنـاء الحـرب علـى غـزّة. **المجلّـة**.
ln.run/YoFZm

غـزّاوي، سـاهر. (2023، 20 تشـرين الأوّل). سياسـات عقابيّـة بطابـع الحكـم العسـكريّ. **الجرمـق الإخبـاريّ**.
ln.run/8UZGN

فاخـوري، أميـر. (2024، 12 أيّـار). هـذا هـو وقـت الإنـكار، والكارثـة والمصالحـة. **سِـيحاهْ مِكُومِيـتْ**. [بالعبريّة]
ln.run/xkRBy

فانـون، فرانـز. (2004). **معذَّبـو الأرض**. (ترجمـة الـدروبي، سـامي؛ والأتـاسي، جمـال). دار الفـارابي.

كامـل، ريـاض [Riad Kamel]. (2024، 17 حزيـران). وجـب علينـا [...] الظـروف وأصعبهـا. **فيسـبوك**.
https://h7.cl/1jWUy

لجنـة المتابعـة العليـا [لجنـة المتابعـة العليـا - الصفحـة الرسـمية]. (2024، 13 أيـار). بيـان لجنـة المتابعـة العليـا في الذكـرى السادسـة والسـبعين لنكبـة شـعبنا الفلسـطيني المسـتمرة. **فيسـبوك**.
https://h7.cl/1jWUZ

مجادلـة، غـادة. (2025). "أصـوات مكتومـة وفضـاءات معسـكَرة: الأطبّـاء الفلسـطينيّون في المستشـفيات الإسـرائيليّة بعـد السـابع مـن أكتوبـر". لـدى: زعبي، همّـت؛ وهـوّاري، عريـن (محرّرتـان). **فلسـطينيّو 48 وحرب الإبـادة علـى غـزّة: مسـاءلة الصمـت والفاعليّـة السياسـيّة**. حيفـا: مـدى الكرمـل. ص.ص. 213 - 251.

مخّول، أمير. (2023أ، 9 تشرين الأوّل). حرب دمار شامل وتحريض مفتوح. **عرب48**.
ln.run/FP2M7

مخّـول، أميـر. (2023ب، 1 كانـون الأول). بالترغيـب والترهيـب وكاتـم الصـوت الجماعـيّ لجماهيـر العربيـة الفلسـطينية. **الاتّحـاد**.
https://did.li/IKdUY

مسار. (2024، نيسان). حِوار مع عضو الكنيست أيمن عودة. **مسار**.
ln.run/_j0D0

مصطفى، مهنّد. (2025). "فلسطينيّو 48 والحرب؛ المكان والمكانة". لدى: زعبي، همّت؛ وهوّاري، عرين (محرّرتان). **فلسطينيّو 48 وحرب الإبادة على غزّة: مساءلة الصمت والفاعليّة السياسيّة.** حيفا: مدى الكرمل. ص.ص. 21- 24.

مواسي، علي [علي مواسي]. (2024أ، 7 أيّار). يا أهل غزّة. **فيسبوك**.
https://h7.cl/1jWWg

مواسي، علي [علي مواسي]. (2024ب، 16 حزيران). لنعترف أننا [...] أكثر من منسيين. **فيسبوك**.
https://h7.cl/1jWV8

هوّاري، عرين. (2023، 3 كانون الأوّل). يحاسبوننا على حبّنا. **فسحة- عرب48**.
ln.run/HBF7a

هوّاري، عرين. (2024، 29 حزيران). كلمة افتتاحيّة [شفهيّة]. **فلسطينيّو 48 والحرب على غزّة**. الناصرة.
ln.run/2uZvK

Samah Salaime of Neve. (2024، 7 كانون الثاني) [Oasis of Peace واحة السلام]. Shalom - Wahat al-Salam, on Kan 11 TV. **يوتيوب**.
https://www.youtube.com/watch?v=aq6ePyEuVvk

Ahmed, S. (2004). **The Cultural Politics of Emotion**. Routledge.

Badiou, A. (2005). **Being and event**. (Feltham, O. Trans.). Continuum. (Original work published 1988).

Bakko, E.; &Merz, F. (2015). Towards an affective turn in social science research?. **Graduate Journal of Social Science**, 11 (1). Pp. 7– 14.

Burawoy, M. (2005). For public sociology .**American Sociological Review**, 70 (1). Pp. 4- 28.
https://doi.org/10.1177/000312240507000102

Calcagno, A. (2008). Alain Badiou: The event of becoming a political subject. **Philosophy & Social Criticism**, 34 (9). Pp. 1051- 1070.
https://shorturl.at/4OXEO

Duan, Jifang. (2013). Theoretical Traces of Raymond Williams' "Structures of Feeling" and "Cultural Materialism". **Theoretical Studies in Literature and Art**, 33 (1). Pp. 152- 158.
https://tsla.researchcommons.org/journal/vol33/iss1/24.

Emerick, R. (1999). Sartre's Theory of Emotions: A Reply to His Critics. **Sartre Studies International**, 5 (2). Pp. 75- 91.
https://www.jstor.org/stable/i23510935

Entman, R.M. (1993). Framing: Toward Clarification of a Fractured Paradigm**. Journal of Communication**, 43 (4). Pp. 51- 58.

Fairclough, N. (2001). Language and Power (2nd ed.). London: Routledge. https://www.kau.edu.sa/Files/0015124/Subjects/LanguageandPower.pdf

Gölbaşı, Ş. (2017). Critical Approach in Social Research: Fairclough's Critical Discourse Analysis. **The Online Journal of Communication and Media**, 3(4). https://tojcam.net/journals/tojcam/articles/v03i04/v03i04-02.pdf

Haraway, D. (1988). Situated knowledges: The science question in feminism and the privilege of partial perspective .**Feminist Studies**, 14(3). Pp. 575– 599. https://doi.org/10.2307/3178066

Hirschberger, G. (2018). Collective trauma and the social construction of meaning. **Frontiers in Psychology**, 9. Article 1441 . https://doi.org/10.3389/fpsyg.2018.01441

Holmes, Mary. (2004). Introduction: The Importance of Being Angry: Anger in Political Life. **European Journal of Social Theory**, 7 (2). Pp 123- 132. https://doi.org/10.1177/1368431004041747

Hopper, E. (2023). Understanding trauma as an internal process: Revisiting Gabor Maté's conception. **Journal of Humanistic Psychology**, 63 (4), Pp. 512– 525. https://doi.org/10.1177/00221678231123456

Hutchston, Emma. (2016). **Affective Communities in World Politics: Collective Emotions after Trauma**. Cambridge University Press.

Iyengar, S. (1991). **Is Anyone Responsible: How Television Frames Political Issues**. University of Chicago Press.

Lakoff, G. (2004). **Don't Think of an Elephant! Know your Values and Frame the Debate**. Chelsea Green Publishing. https://openlibrary.org/books/OL8803491M

McAdam, Doug; Tarrow, Sidney; and Tilly, Charles. (2001). **Dynamics of Contention**. Cambridge University Press.

McGuigan, Jim; & Moran, Marie. (2014). Raymond Williams and Sociology. **The Sociological Review,** 62 (1). Pp. 167- 188. https://doi.org/10.1111/1467-954X.12138

Parker, I. (1992). **Discourse Dynamics: Critical Analysis for Social and Individual Psychology**. Routledge.

Rosenwein, B. H. (2002). Worrying about emotions in history. **The American Historical Review**, 107 (3). Pp. 821– 845. https://doi.org/10.1086/532262

Shouse, Eric. (2005). Feeling, Emotion, Affect. **M/C Journal**, 6 (8). http://journal.media-culture.org.au/0512/03-shouse.php

Tannenbaum, M. B., et al.. (2015). Appealing to fear: A meta-analysis of fear appeal effectiveness and theories. **Psychological Bulletin**, 141(6). Pp. 1178– 1204. https://doi.org/10.1037/a003972

Volkan, V. D. (2001). Transgenerational Transmissions and Chosen Traumas: An Aspect of Large-Group Identity. **Group Analysis**, 34 (1). Pp. 79- 97.

Witte, K. (1992). Putting the fear back into fear appeals: The Extended Parallel Process Model. **Communication Monographs**, 59 (4). Pp. 329– 349. https://doi.org/10.1080/03637759209376276

مَفْـهَمَة الإبـــــادة الجماعـيّة في غــزّة- تحليل نصـــوص مجلّة "فسحة ثقافـيّة فلسطينيّة" منذ السابع من أكتوبر 2023

جاد قعدان

ملخَّص

منذ السابع من أكتوبر 2023 شهد قطاع غزّة إبادة غير مسبوقة تظهر آثارها على أصعدة الحياة كافّة. كيف يفهم الفلسطينيّون هذه الإبادة وهذا الموت الجماعيّ؟ هل يُمكن أن تكون الكارثة الإنسانيّة جزءًا من قصّة أو سرديّة تخدم إطارًا نظريًّا أو روحانيًّا ما؟ ترمي هذه الدراسة إلى تحليل مَفْهَمة الموت والإبادة في غزّة عند كُتّاب فلسطينيّين منذ السابع من أكتوبر 2023، مع التطرّق إلى مفهوم التضحية على نحوٍ خاصّ، وذلك بالارتكاز على الإطار النظريّ المهتمّ بدراسة الأضحيات والتضحية ذات الدلالتَيْن: الاجتماعيّة والروحانيّة. لتحقيق هذا المبتغى، قمت بتحليل عيّنة من مئة وعشرين (120) نصًّا أدبيًّا وإنشائيًّا عن أحداث الإبادة في غزّة نُشِرت في المجلّة الثقافيّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة".[1] في هذه الدراسة أعتمد طريقة التحليل التفسيريّ الثيماتيّ (Thematic analysis) التي من خلالها أحلّل النصوص وَفْق الموضوعات الرئيسيّة أو الثيمات المحدَّدة (Guest; et al, 2011). برزت من النصوص أربع ثيمات أساسيّة تؤثّر على مَفْهَمة الموت في ظلّ الإبادة. الثيمة الأولى هي الاهتمام الفاعل بالتوثيق لهذا الموت والإبادة. الثيمة الثانية هي العامل الزمنيّ لطقوس الإبادة والقتل، ولا سيّما التطرُّق إلى سرعة وكثافة الإبادة الجماعيّة والحضريّة. الثيمة الثالثة هي شكل الموت، في ما يتعلّق بالتعامل مع الجثامين، وفي التعامل مع طقوس الدفن وغيابها. والثيمة الرابعة هي استخدام

1. رابط موقع فسحة: https://www.arab48.com/%D9%81%D8%B3%D8%AD%D8%A9

الأساطير الدينيّة والتراث في التعاطي مع الإبادة، بما يتضمّن أيضًا ثنائيّة الأَسْطَرة ونزع الأَسْطَرة عن غزّة وسكّانها. علاوة على هذا، تطرّقت إلى النصوص التي اهتمّت بلفظ واصطلاح القربان والضحيّة على نحوٍ مباشر.

المقدّمة

200 يوم من الإبادة

في فترة إعداد هذه الدراسة، وبعد مئتَيْ (200) يوم منذ السابع من أكتوبر 2023، أي على وجه التحديد في تاريخ 2024/4/24، تَظهر آثار الإبادة المروّعة في غزّة جليّة. تشير التقديرات الرسميّة إلى استشهاد أكثر من 42,000 إنسان فلسطينيّ، بتقدير أنّ الأغلبيّة الساحقة منهم -38,621- هم من المدنيّين، بما في ذلك أكثر من 10,000 امرأة ونحو 16,000 طفل. بالإضافة إلى القتلى، خلّفت الإبادة الإسرائيليّة أكثر من 79,240 جريحًا، من بينهم 70% هم أطفال ونساء، في حين أنّ أكثر من 1,200 طفل يعانون من إعاقات دائمة إثر الحروق الصعبة وبَتْر الأطراف (Euro-Mediterranean Human Rights Monitor, 2024) . شملت حملة الإبادة كذلك التدمير الممَنهَج للبُنى التحتيّة لمدن قِطاع غزّة؛ إذ إنّ أكثر من 60% من مبانيها أصبحت في حالة خراب. على وجه التحديد، دُمِّرت أكثر من 131,200 وحدة سكنيّة تدميرًا كليًّا، وأكثر من 281,000 وحدة سكنيّة تدميرًا جزئيًّا. علاوة على ذلك، أدّى الهجوم إلى تخريب وتعطيل اثنين وثلاثين (32) من أصل ستّة وثلاثين (36) مستشفى، فضلًا عن تدمير أكثر من ثلاثة وخمسين (53) مركزًا صحّيًّا، وهو ما أدّى إلى تفاقم الأزمة الإنسانيّة في منطقة شديدة الاكتظاظ بالسكّان المدنيّين (Euro-Mediterranean Human Rights Monitor, 2024)؛ ممّا حَدَا بجهات مثل الأمم المتّحدة إلى وصف وتسمية هذا التدمير الممَنْهَج للبنى التحتيّة المدنيّة بالإبادة المدنيّة أو الدوميساید (Domicide) (OHCHR, 2024)، وكذلك جرى وصف وتسمية التدمير الممَنْهَج للمدارس والجامعات والـمَرافق التربويّة بالسكولاستيساید (Scholasticide) (OHCHR, 2024) .

تمخّض كلّ هذا عن شيوع استخدام لفظ "الإبادة الجماعيّة" على مُجْرَيات الحرب على غزّة منذ السابع من أكتوبر 2023، بما في ذلك أيضًا ما تضمّنته الشكوى الرسميّة في محكمة العدل الدوليّة من قِبل جنوب أفريقيا ضدّ إسرائيل في كانون الثاني 2024 (International Court of Justice, 2024). قامت المحكمة بقبول مَطالب جنوب

أفريقيا باعتبار ما يجري في غزّة "إبادة جماعيّة" محتمَلة، في حين أنّ الجانب الإسرائيليّ لم يلبِّ أوامر المحكمة بإيقاف الإبادة (Human Rights Watch, 2024).

تجدر الإشارة أنّ تعريف "الإبادة الجماعيّة" في هذه المقالة هو: "استخدام تدابير منهجيّة متعمّدة (نحو: القتل؛ الإصابة الجسديّة أو العقليّة؛ الظروف غير القابلة للعيش فيها؛ منع الولادات) محسوبة لتحقيق إبادة جماعيّة عِرقيّة أو سياسيّة أو ثقافيّة أو لتدمير لغة أو دين أو ثقافة مجموعةٍ ما" (Webster, 1971). ويمكن التوُّسع في هذا التعريف ومعاييره في اتّفاقيّة الإبادة الجماعيّة في الأمم المتّحدة عام 1951 (United Nations, 1948).

وبعد، في ظلّ هذه الكارثة الإنسانيّة المستمرّة، يُطرح السؤال عن كيفيّة فَهْم الفلسطينيّين لهذا الكمّ من الضحايا البشريّة والحضاريّة. كيف يؤثّر التراث الثقافيّ والمباني اللُّغويّة والعَقَديّة على التعاطي مع هذه الضحايا؟ وكيف سيؤثّر هذا الحدث عن مَفْهَمَة الأضحيّة والضحيّة في أذهان الفلسطينيّين؟

الأضحيّة لُغةً واصطلاحًا

للخوض في مفهوم الضحيّة أو التضحية وتحليله، أختار أوّلًا استحضار المعاني والدلالات لهذا المفهوم وَفق التراث اللُّغويّ والثقافيّ العربيّ والإسلاميّ. في هذه الدراسة، التي تُعنى بتحليل نصوص فكريّة وأدبيّة تتطرّق إلى هذا المفهوم، أنطلق بمحاولة لتعريف هذا المفهوم عن طريق المصادر التقليديّة في التراث العربيّ والإسلاميّ، ولتحقيق هذا المبتغى أرتكز على ثلاثة صُعُد أساسيّة لاستحضار هذه المعاني، أوّلها هو الصعيد المعجميّ والمتعلّق بأصول اللفظ؛ والثاني هو الصعيد الأسطوريّ (وعلى وجه التحديد القصص الأسطوريّة المؤسِّسة لهذا المفهوم)؛ والثالث هو التطرُّق الفِكريّ الحديث إلى ظاهرة الأضحيّة.

إذا عدنا إلى المعاجم اللُّغويّة العربيّة، فَوِفْقَ القاموس المحيط "الأُضْحِيَةُ والإِضْحِيَةُ: شاةٌ يُضَحَّى بها، ج: أضاحِي، كالضَّحِيَّةِ، ج: ضَحايا، كالأَضْحاةِ، ج: أَضْحى، وبها سُمِّيَ يَوْمُ النَّحْرِ" (الفيروز آبادي، 2005). ولا فرق بين الأُضحية والإضحية والضَّحيّة (ابن منظور، 1981، ج. 14، ص. 176). ومِمّا هو لافت في استخدام الجذر (ض.ح.و) لـمَفْهَمة الأضحية حضورُ عامل التوقيت في الدلالة، فالضحى من طلوعِ الشمس إلى أَنْ يَرْتَفِعَ النهارُ وتَبْيَضَّ الشمس جدًّا (ابن

منظور، 1981، ج. 14، ص. 175). وعلى وجه التحديد، يظهر في لسان العرب: وضَحّى الرجلُ تَغَدَّى بالضُّحى؛ وفي المعجم الوسيط: والضَّاحِيةُ من الإِبِل والغَنَمِ: التي تَشْرَبُ ضُحًى. وتَضَحَّتِ الإِبلُ: أَكَلَتْ في الضُّحى وضَحَّيتُها أَنا. ضَحَّى بالشاةِ ونحوها: ذَبَحَها في الضُّحَى يومَ عيد الأَضْحَى. (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 2004، ج. 1، ص. 535).

لذا، يُمْكن الادّعاء أنّ هناك ربطًا ما، على الأقلّ وَفْق أصول اللفظ وعلاقته بالجذر، بين مفهوم الأضحية وتوقيت ارتفاع النهار في الضحى. على ماذا قد يدلّنا هذا الربط الدلاليّ بين التضحية والتوقيت في الصباح الباكر؟ أوّلًا، عامِل المجاهرة في التضحية؛ فليس من المعهود أن يجري التستُّر على التضحية. إنّ الأضحية جاءت لتصل إلى الناس، إذ إنّ التصدُّق باللحوم في عيد الأضحى هو أمر ظاهر في النصوص التراثيّة الإسلاميّة، (على سبيل المثال، الحديث: "كُلوا وادَّخِروا واتَّجِروا" (ابن الملقّن، 1989، ج. 2، ص. 388). ثانيًا، عامِل الاستباق الذي يتجلّى بكون عمليّة التضحية تجري في بداية النهار لا في نهايته؛ أي إنّ الأضحية مرتبطة دلاليًّا بالتوقيت المبكّر والذي يقع ترتيبه الأوّل في قائمة المهامّ اليوميّة، ممّا يثير التفكير في زمانيّة التضحية التي تلتفت إلى المستقبل دائمًا. المقصود أنّ هذا العامل يرتبط بالمفهوم العامّ للتضحية بكونها نوعًا من أنواع الاستثمار المستقبليّ في المحيط أو بالاستثمار في العلاقة مع الناس، أو أبعد من ذلك، بالعلاقة مع الله.

أمّا الصعيد الثاني لتعريف الأضحية، فهو الصعيد الأسطوريّ، والذي أدّعي أنّه يرتكز بالأساس على قصّة الأضحية الإبراهيميّة. في سياق هذه الدراسة التي تُعنى بالـمَفْهَمة العربيّة للأضحية، أختار هنا التطرُّق إلى القصّة القرآنيّة على نحوٍ خاصّ. في القرآن الكريم، على وجه التحديد في (سورة الصافّات، 99 - 108)، توصَف أحداث رؤيا النبيّ إبراهيم أنّه يذبح ابنه، ومن ثَمّ يستشيره في ذلك ويسأله "فانظر ماذا ترى"، ليقول له ابنه إنّ عليه أن يفعل ما أُمِر به. ومن ثَمّ يفدي الله إبراهيم بذبحٍ عظيم بدلًا من التضحية بابنه. في استخدام لفظ "الذبح" في القصّة الإبراهيميّة ثمّة دلالة على شكل معيَّن ومحدَّد من القتل، وهو "قطع الحلقوم من باطنٍ عند النصيل" كما جاء في لسان العرب (ابن منظور، 1981)، ممّا يؤدّي إلى تحديد عمليّة القتل لتكون فقط بهذا الشكل من أجل أن تكون أضحية فعلًا. تشدِّد هذه القوانينُ المشكِّلةُ للطقس على ضرورة

وجود النيّة والقصد لتقديم الأضحية؛ أي إنّه ليس كلّ قتل عبثيًّا، وتجعلها تصبح بنْية اجتماعيّة يجري تَداولُها وتَناقلُها من جيل إلى آخر، تربط الحاضر بالتراث وتتفاعل معه تفاعلًا دائمًا.

وفي هذا السياق، وعبورًا إلى الصعيد الثالث (وهو الأدبيّات الفكريّة الحديثة)، أشار دوركهايم (Durkheim, 1995) إلى كون التضحية نشاطًا جماعيًّا يشارك في طقوسها العديدُ من الأشخاص ليعيدوا تأكيد وبناء معتقداتهم وقِيَمهم وهُويّتهم المشترَكة. التضحية، بالتالي، تجمع الناس وتساعد في الحفاظ على النظام الاجتماعيّ من خلال تعزيز القِيَم الأخلاقيّة والأعراف. يدّعي دوركهايم أنّ مشاركة الفرد في طقوس التضحية هذه ما هي إلّا إشارة من قِبَل الفرد للجَماعة على رضوخه وتسليمه أمام رغبات المجموعة أو الكيان الجماعيّ، وبِذا فإنّها تقوّي هذا الحسّ الجماعيّ داخليًّا. يلفت دوركهايم (Durkheim, 1995) أيضًا الانتباه إلى العلاقة الحتميّة بين مفهومَيِ التضحية والتقديس (المرتبطَيْن لفظيًّا في الإنـجـليزيّة: sacrifice– sacred)؛ إذ إنّ التضحية هي العمليّة التي تخلق المقدَّس وبها يتمّ تحديد مدى الأهمّيّة الأخلاقيّة والنفسيّة لما يمثّله المقدَّس.

ثمّة مفهوم آخر مرتبط بالتضحية هو مفهوم الفداء. يقول تعالى: (وَفَديناه بِذبحٍ عظيم). (القرآن الكريم، سورة الصافّات، 107). ووَفْق لسان العرب، الفداء هنا هو تخليص ابن إبراهيم من الذبح وتبديله بشيء آخر. من هنا، عمليّة الفداء مرتبطة مفاهيميًّا بالتضحية، لأنّها لا يُمكن أن تُسمّى فداءً إلّا حين تنجّي ضحيّة قد قُضيَ مصيرها للتضحية. وهنا في الإمكان الإشارة إلى مصطلح "كبش الفداء" (scapegoat). استنادًا إلى جيرار (Girard, 1977; Riordan, 2021)، تعمل التضحية كنوع من أنواع العنف المرسومة على نحوٍ متعمَّد ابتغاءَ استعادة النظام الاجتماعيّ وحلّ الصراعات من خلال إعادة توجيه العداء الجماعيّ نحو ضحيّة تضحية، ممّا يخفّف على نحوٍ مؤقَّت من التوتُّرات. استنادًا إلى جيرار، عند ارتفاع مستوى التوتُّر حين يبدأ الناس في المجتمع بالاقتتال لسببٍ ما (كالسلطة والموارد -على سبيل المثال)، يجري توظيف منظومة كبش الفداء لحَقْنِ هذا التوتُّر والتنفيس عنه. في بعض الأحيان، يختار المجتمع شخصًا ما ليحمِّل وزْر جميع المشاكل، ليصبح هذا الشخص كبش الفداء. من خلال المعاقَبة وتعليق اللوم على هذا الكبش، يشعر الجميع في المجتمع وكأنّهم قد حلّوا مشاكلهم وأصبحوا متناغمين ومنسجمين من جديد.

بالتأمُّل في أدبيّات جورج باتاي (Bataille, 1991)، وعلى الرغم من أنّه لم يتطرّق إلى مصطلح "كبش الفداء" تطرُّقًا مباشرًا، يمكن استنباط ربط مفهوم الأضحية بمفهوم الفائض. في وصف باتاي لكيفيّة إنفاق المجتمعات للموارد بطرق تتجاوز الاحتياجات الأساسيّة (الإسراف)، يشير إلى أنّ الأضحية هي مشهد جوهريّ في هذا الإنفاق. على نحوٍ ما ذُكِر آنفًا، يعتقد باتاي أنّ هذا الإسراف يخدم هدفًا أعمق في المجتمع، لتعريف الحدود بين المقدَّس وما هو غير مقدَّس، وبين العقلانيّ واللا_ عقلانيّ. وعلى نحوٍ خاصّ في موضع الحديث عن القداسة ونزع القداسة، تجدر الإشارة إلى المصطلح "هومو ساكر"، المستمَدّ من وصف لشخصيّة في القانون الرومانيّ القديم تتميّز بكونها مقدَّسة وملعونة معًا في الوقت نفسه. وَفقْ قراءة أجـامبن (Agamben, 1995) في سياق الدولة الحديثة، يُستبعد الهومو ساكر من حماية القانون، ممّا يجعله عرضة للعنف والاستغلال دون أيّ ملاذ قانونيّ. يعيش الهومو ساكر في حالة استثناء دائمة؛ إذ يجرَّد من فاعليّته السياسيّة ويقلَّص إلى مجرّد وجود حيويّ. يستخدم أجـامبن هذا المفهوم لاستكشاف الطرق التي تمارس بها الدول الحديثة السلطة على الأفراد، خاصّة في حالات الاضطراب السياسيّ أو الاجتماعيّ المتطرّف، إذ قد تُعتبَر فئات معيّنة هومو ساكر -أي قابلة للتصريف أو التصفية من قِبل السلطات (Agamben, 1995).

خلاصة القول، وبالعودة إلى جورج باتاي، التضحية هي عمليّة راديكاليّة وغير عقلانيّة يتنازل خلالها المضحّي عن شيءٍ ما ذي قيمة مادّيّة أو رمزيّة، أو يخسره، من أجل توسيع حدود الفردانيّة لتمتزج وتتّحد مع المقدَّس أو مع الكون (Bataille, 1989). يلتقي هذا الطرح مع ادّعاء روجيه كايوا (Caillois, 1984) أنّ هذه الطقوس هي بمثابة مرآة رمزيّة للعلاقات والروابط الداخليّة للمجتمع، وهو ما يشمل علاقات القوّة والهرميّة وكذلك القِيَم الـمُهِمّة لأعضاء المجموعة. بِذا، فإنّ طقوس التضحية، مِمّا يشمل أيضًا طقوس الحرب والعسكر، تسهم بنظر كايوا في توثيق أو ترسيخ هذه الأربطة الاجتماعيّة، وفي الحفاظ عليها.

من هُنا، أطرح التساؤل بشأن ما إذا كانت الضحايا في غزّة منذ السابع من أكتوبر 2023 تُعتَبَر أضحيات مقدّسة، أَمْ قد اعتُبِرت قابلة للتصفية مثلما ورد في مصطلح "الهومو ساكر"، أو فائضًا بحسب جورج باتاي. علاوةً على ذلك، ما الذي يجعل الضحيّة أضحية حقيقيّة ترتبط بالقداسة؟ وكيف يعاد تعريف وصياغة هذا المفهوم (أي الأضحية) لدى الفلسطينيّين عشيّة الإبادة، وما هي أهمّ الثيمات الواردة فيه؟

سؤال الدراسة والمنهج

ترمي هذه الدراسة إلى فحص وتحليل مَفْهَمة الفلسطينيّين للموت والإبادة في غزّة منذ السابع من أكتوبر 2023، مع التطرُّق إلى مفهوم التضحية على نحوٍ خاصّ. لتحقيق هذا المبتغى، اخترت تحليل نصوص أدبيّة وإنشائيّة وفكريّة نُشِرت في المجلّة الثقافيّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة"؛ وهي مجلّة تابعة لموقع "عرب 48"، أسّسها علي مواسي وشغل منصب المحرِّر الرئيسيّ لها. انطلقت الصيغة الأولى من المجلّة الإلكترونيّة في شباط 2016. تتخصّص المجلّة في الثقافة بمفهومها الواسع، وبإنتاج الفلسطينيّين الإبداعيّ والمعرفيّ، أينما وُجِدوا.[2] تجنّدت المجلّة، منذ السابع من أكتوبر 2023 من أجل تكثيف الكتابة والنشر عن مُجرَيات الأحداث في غزّة، وهو ما أَفضى إلى أكثر من 107 مقالات خلال الأشهُر الأربعة الأولى (أي حتّى 2024/2/7). تتمّيز عيّنة نصوص "فُسحة" بتنوُّع الأساليب؛ فهناك الكتابة الإنشائيّة والفِكريّة القريبة من الأسلوب الأكاديميّ، وهناك الكتابة الأدبيّة النثريّة منها والشعريّة، وهناك الشهادات والتوثيق، وهناك الكتابة من المناطق الجغرافيّة الفلسطينيّة كافّة، وعلى رأسها الكتابة من داخل غزّة في أوْج الإبادة. لهذه الدراسة بشكل خاصّ اخترت التطرُّق إلى الفترة الزمنيّة التي يحدّها مرور 200 يوم على بداية الإبادة، أي حتّى 2024/4/24. خلال هذه الفترة نُشِر في "فسحة" 120 مقالًا عن غزّة، سأقوم بتحديدها لتكون عيّنة البحث.

في هذه الدراسة استخدمت طريقة التحليل التفسيريّ الثيماتيّ (Thematic analysis)، التي من خلالها قمت بتحليل النصوص وَفق الموضوعات الرئيسيّة أو الثيمات المحدَّدة (Guest; et al, 2011). ترتكز هذه المنهجيّة على القراءة والتفاعل مع الصورة الكبيرة للنصّ مع محاولة تصنيف ووصف وتحليل الثيمات والأفكار التي تبرز خلال القراءة. بناءً على ذلك، هي منهجيّة ملائمة للقراءة المقارنة بين نصوص مختلفة تتضمّن ثيمات قد تكون مشترَكة أو متشابهة (Guest; et al, 2011). وَفْق براون وكلارك (Braun; & Clarke, 2006)، يعتمد هذا النوع من التحليل على ستّ مراحل: المرحلة الأولى هي التعرُّف على النصوص، وفيها ينبغي على الباحث الانغماس في البيانات ليصبح على دراية تامّة بالمحتوى. المرحلة الثانية هي تمييز الرموز الأوّليّة، وفيها يجري تحديد

2. للمزيد، راجع: https://shorturl.at/oG12T

وتدوين العناصر المتكرّرة داخل النصوص. المرحلة الثالثة هي البحث عن الثيمات، وفيها يقوم الباحث بتجميع هذه الرموز في ثيمات أو موضوعات أو مَحاور أوسع. المرحلة الرابعة هي مراجَعة الثيمات، وفيها تُفحَص هذه الثيمات لضمان تمثيلها النصوص تمثيلًا دقيقًا. المرحلة الخامسة هي تعريف وتسمية الثيمات، وفيها يقوم الباحث بتحديد كلّ ثيمة بوضوح وتطوير تحليل مفصَّل لكلّ منها. أخيرًا، تتضمّن المرحلة السادسة إعداد التقرير، حيث يجري نسج الثيمات في سرديّة مُحْكَمة ذات صلة واضحة بأسئلة البحث. في هذا البحث، قمت بتطبيق هذه المراحل الستّ على جميع النصوص التي اخترتها للتحليل من المجموعة. المراحل التي أقدّمها في هذا العمل تشمل المرحلتين الأخيرتين، وهما تعريف الموضوعات وإعداد تقرير مفصَّل عن كيفيّة ظهورها في النصوص.

قمت باستخدام هذه المنهجيّة على عيّنة من 120 مقالة نُشرت في مجلّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة" منذ 2023/10/7 حتّى 2024/4/24، وهي كلّ النصوص التي نُشِرت عن أحداث غزّة، حتّى ذلك التاريخ. لتجنُّب تأثيرات ثقافيّة ولسانيّة غير عربيّة قد تؤثّر على عمليّة مَفْهَمة الموت والضحيّة، استُثنِيت المقالات التي تتضمّن نصوصًا مترجَمة والتي لم تُكتب في الأصل باللغة العربيّة. بالإضافة إلى تحليل النصوص، قمت كذلك بتصنيفها ضمن ميّزات سياقيّة شملت هُويّةَ الكاتب وانتماءَه القوميّ، ومكان إقامته، ونوع النصّ بتصنيفه نصًّا أدبيًّا أو إنشائيًّا، في حين جرى تصنيف الأدبيّ إلى نثريّ وشعريّ، وكذلك تاريخ نشر النصّ منذ السابع من أكتوبر 2023. جرى فحص هذه الميزات وتحليل علاقة بعضها ببعض لفهم معمَّق لـمَفْهَمة الموت والإبادة.

النتائج والتحليل

أظهر التحليل أربع ثيمات أساسيّة عبْرها سأقوم بتحليل مَفْهمة الموت في ظلّ الإبادة في غزّة في عيّنة البحث: الثيمة الأولى هي توثيق الموت والإبادة. الثيمة الثانية تُعنى بالعامل الزمنيّ لطقوس الإبادة والقتل، وتتطرّق تطرُّقًا خاصًّا إلى سرعة وكثافة الإبادة الجماعيّة والحَضَريّة. أمّا الثيمة الثالثة، فتدور حول شكل الموت، أي ما يتعلّق بالتعامل مع الجثامين وبالتعامل مع طقوس القتل، إن وُجِدت. وأمّا الثيمة الرابعة والأخيرة، التي برزت في النصوص، فكانت استخدام

الأساطير الدينيّة والتراث في التعاطي مع الإبادة، بما يتضمّن كذلك جانب الأَسْطَرَة لغزّة ولسكّانها. بالإضافة إلى هذا، سأتطرّق إلى النصوص التي اهتمّت بلفظ واصطلاح القربان والضحيّة على نحوٍ مباشر.

1. عن ظاهرة الكتابة والتوثيق

الثيمة الأكثر شيوعًا في النصوص كانت ثيمة التوثيق الفاعل، أي وجود دافع واعٍ لهذا التوثيق ولأهمّيّته. على صعيد منصّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة" فقط، شهدنا مجهودًا في الكتابة والنشر منذ 2023/10/13، وبوتيرة كثيفة جدًّا تجلّت بنشر مقالتين يوميًّا بالمعدّل حتّى نهاية الشهر الثالث من الإبادة (89 مقالة حتّى 2024/1/13)، وكأنّ الفلسطينيّين يقرعون، بل يكسرون، جدران الخزّان. يتكشّف عن هذه الكثافة في النشر وجودُ شبكة عميقة ملتزمة من الكُتّاب تعي أهمّيّة الكتابة والتوثيق والإنتاج المعرفيّ، وكذلك وجود طاقم عمل مُلتزِم ذي خبرة وتواصُل مع التراث الفلسطينيّ المعاصر في ما يتعلّق بإدارة الشأن الثقافيّ في "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة".

من الجدير بالإشارة أنّ الأشهر الثلاثة التي سبقت السابع من أكتوبر 2023 (أي منذ 2023/7/8) شهدت نشر 47 مقالة في مجلّة "فسحة" (تحت عنوان "ورق")، مقابل 89 مقالة في فترة زمنيّة مُشابهة بعد السابع من أكتوبر 2023. هذا يؤكّد تجنُّد طاقم المجلّة وكُتّابها لتلبية هاجس طارئ للنشر والتوثيق. من أكثر الأمور عجبًا في كثافة الكتابة هذه أنّ حصّة الأسد من الكُتّاب كانوا من غزّة نفسها؛ بعضهم يقيمون في غزّة يكتبون من تحت القصف والإبادة، وبعضهم يقيمون خارج غزّة ويستخدمون منصّة فُسحة للتعبير والتنفيس والتواصل والتوثيق. بالإضافة إلى الكُتّاب الغزّيّين، شملت العيّنة كُتّابًا من الضفّة الغربيّة، ومن الداخل الفلسطينيّ، ومن الشتات، وكذلك قلّة من الكُتّاب العرب غير الفلسطينيّين (9 من أصل 110).[3] من هنا، يمكن الاستنتاج أنّ ثمّة شريحة من المثقّفين الفلسطينيّين، يُمكن وصفهم بالعضويّين (Gramsci, 1971)، أي المهتمّين بتوظيف صوتهم وأقلامهم لِمَن لا صوت لهُم (Subaltern)، وكذلك يمكن وصفهم بالمشتبكين

3. في ما يخصّ تفصيل المقالات والكتّاب وهُويّاتهم، راجعوا الرابط أدناه والذي يحوي قائمة تفصّل كلّ المقالات المنشورة المتعلّقة بغزّة في "فسحة" منذ 2023/10/7 حتّى 2024/4/24. جرى حذف المقالات المترجَمة أو المقالات غير المتعلّقة بأحداث غزّة: https://shorturl.at/ds849

(المثقَّف المشتبك((الأعرج، 2018) أي إنّهم لا يخشَوْن من الكتابة والتعبير وسط الأزمات الكُبرى والحروب والإسهام في تفكيك الاستعمار. إلى جانب هذا، أي بروز هذه الشريحة، لا يُمكن التغاضي عن دَوْر المؤسَّسات كحاضنات ضروريّة لهذه الشرائح. على سبيل المثال، مجلّة "فسحة" كمؤسَّسة قامت ببناء وحياكة هذه الشبكة من المثقَّفين العضويّين والمشتبكين بعمل دؤوب عن طريق استكتابهم ومرافَقتهم في الكتابة بمساعدة عمليّة التحرير، بالإضافة إلى تحفيزهم للكتابة والتعبير بطُرُق أخرى مثل المنَح المادّيّة الرمزيّة والدعوات للمشارَكة في حِواريّات عديدة. لذا، وجود مؤسَّسات مثل "فسحة" ضمن مواقع إخباريّة مثل "عرب 48" هو أمر حيويّ وإجباريّ لتخصيب الأرض لتسريع عمليّة خلق شريحة مثقّفين عضويّين يسخّرون فِكرهم وأقلامهم للقضايا الإنسانيّة والتحرُّريّة في فلسطين.

الخوف من النسيان والمحو

بنظرة تاريخيّة في مقاربة الحدث الجَلَل في غزّة، أي الإبادة والتهجير، من المهمّ الاطّلاع على مشاريع التوثيق خلال نكبة فلسطين في فترة العامَيْن 1947- 1948 وفي ما بعدها. في ما يتعلّق بالإنتاج المعرفيّ والثقافيّ عشيّة النكبة، يقول خالد فوراني إنّه كان هناك غياب وصمتٌ مُدَوٍّ للنشر والطباعة الفلسطينيّة في السنوات التي تَلَت النكبة، لأسباب أهمُّها تدمير دُور النشر والطباعة في فلسطين (Furani, 2013). أوّل ما طُبِع ونُشِر بعد النكبة كان ديوانًا شعريًّا للشاعر جورج نجيب خليل عام 1953 (Furani, 2013). بعد ذلك، على نحوٍ ما يشير مخّول، حصل تحوُّل في عقليّة الأَرْشفة والتوثيق الفلسطينيّة عبْر الكتابة والإنتاج المعرفيّ في ما بعد حرب عام 1967، ويتطرّق (مخّول) بتحليله إلى تكثيف الإنتاج المعرفيّ والأدبيّ لمحاربة الإبادة الإبِستيميّة (المعرفيّة) خوفًا من النسيان أو المحو (Athazagoraphobia) (Makhoul, 2022). تلا كلّ هذا ما وصلناه في أحداث غزّة (2023 - 2024) التي شهدت زَخْمًا توثيقيًّا قد يكون غير مسبوق على صعيد فلسطين. هذا التكثيف في الكتابة والتوثيق قد يكون جوابًا على الخوف من النسيان والمحو المعرفيّ المذكور آنفًا. هذا الخوف من النسيان والمجهوليّة يتجلّى -على سبيل المثال- في النصّ الشعريّ الذي كتبته ابنة غزّة الكاتبة منى المصدر والمنشور في "فسحة" في 2023/10/26:

وأصرخ: في حدّ سامعنا؟ يا جرحنا السرمديّ؟ أترانا؟ أم تلوكنا في عتمة الضمير
أتحسّنا؟ أم تهدهد على السور، وتفتحه ملمًا واحدًا، لتدخل شاحنةٌ تلفظها الشوارع
وكرامتنا
أترانا؟ أم إنّنا مجهولون أيضًا بلا داعٍ لاستقصاءاتٍ جنائيّةٍ مِنْ حمضنا النوويّ!
ثمّ يتكرّر الصدى: "في حَدّ هان؟ في حَدّ سامعني؟"
وتموت الإجابة
ويخبو الأمل على مهلٍ. (المصدر، 2023).

تتطرّق هذه السطور إلى الخوف من النسيان ومن المجهوليّة وعبثيّة الوجود الغزّيّ في ظلّ الإبادة الجَماعيّة. تستخدم الكاتبة لفظ "أصرخ"، دلالةً على إحساسها بأنّ صوتها لا يُسمَع (Spivak, 1988)، وتليها بالتعبير أنّها علاوةً على ذلك لا تتلقّى إشارة من بقيّة الحواسّ أيضًا: "أترانا؟" وَ"أتحسّنا؟". تدّعي حنّة أريندت أنّ الطبيعة البشريّة لديها رغبة فطريّة في أن يتذكّرها الناس، وتستشهد بظاهرة الأنصاب التذكاريّة في ما بعد الحرب العالميّة الأولى، وبالذات في أنصاب "الجنديّ المجهول" التي انتشرت في أنحاء العالم بعد الحرب (Arendt, 1958). يرمز نُصب "الجنديّ المجهول" إلى محاولة المجتمع التأمّل والاعتراف بموت الأشخاص المجهولين خلال الحروب، فيما يدلّ أنّ شرطًا من شروط إضفاء المعنى للموت، لئلّا يكون عبثيًّا، هو أن يُذكَر وأن يدخل السرديّة والسجال المجتمعيّ. قد تكون ظاهرة طقوس التأبين أحد الأمثلة الأنثروبولوجية على هذه الحاجة (Long, 2009).

يرتبط هذا ارتباطًا مباشرًا بما كتبه الكاتب الغزّيّ مؤمن موسى في 2023/11/11 عن المجهوليّة وعبثيّة الموت:

يا حبيبي أرجوك أخبرني، هل الله يرانا؟ لا تكذب عليّ، أنا هنا بين عشرين إنسانًا ينتظر الموت وجدارَي إسمنت ينتظران السقوط...
[...]
تخشى أن يتحوّل اسمها إلى خبر عاجل

تخشى هذا الخوف اللعين
تخشى أن تتحوّل إلى رقمٍ ما
تُدْفَن في حفرةٍ ما وينساها البحر. (موسى، 2023).

من هذا النصّ وغيره، يمكن ربط مفهوم "الجنديّ المجهول" بِـ "التحوُّل إلى رقْمٍ ما"، والرقْم هنا معناه أن يُختزل الإنسان وكيانه إلى رقْم في إحصاءات الموت في الإبادة الجماعيّة.

الـتوثيق الشفائيّ

يرتبط هذا الخوف من المجهوليّة في الموت مع الإحساس بالوحدة. يمكن استحضار ما كتبه أنس العيلة والغزّيّ هاشم حلّس عن قضيّة إيصال الصوت والرسالة والإحساس بالوحدة أو تبدُّده:

"الشعوب العربيّة تشعر بالعجز والعار والمهانة أمام ما نحياه من جحيم، وحين تشعر أمّة كاملة بالعار فقد وصلت الرسالة.

نعم، هذا لا يفيدنا بشيء الآن، ولكنّه يعني أنّنا لسنا وحيدين في هذا العذاب الكارثيّ، رغم أنّنا وحيدون في المذبحة". (العيلة، 2023).

لا أحد يهتمّ بسماع الصوت الفلسطينيّ مباشرة، حتّى عندما يسمعونه يُسْقِطون عليه الكثير من التأويلات والمراجَعات لتناسب ما هو مقرَّر مسبقًا. يبقى الفلسطينيّ الغزّيّ في الميدان وحيدًا، يكافح الإبادة يوميًّا، ويشقّ طريقه في تعدُّديّات وتناقضات لا يَقْدر على حلّها، يصرخ لكي يُسْمَع لمرّة واحدة من خلال صوته من تحت الركام، لكن ما من مجيب. (حلّس، 2023).

في هذه السطور يتطرّق الكاتبان إلى مسألة وصول الرسالة، أي الأخبار بشأن الإبادة الجماعيّة، وعلاقتها بالشعور بالوحدة في الموت والعذاب. وَفْق أدبيّات الإبادة، الناجون من الإبادة يحملون وزرًا مضاعَفًا؛ فمن جهة قد يحفظون في ذاكرتهم صدمات نفسيّة شديدة وعميقة من مَشاهد الإبادة والفَقد، ومن جهة ثانية يريدون الاحتفاظ بالذكريات الأخيرة مع أفراد عائلاتهم وبيئتهم الاجتماعيّة والحَضَريّة، بما يشمل البَيت والحارة والمدينة. يستصعب الناجون من الإبادة إيصال هذا الزَّخْم من الحُمولة العاطفيّة إلى الآخرين، ممّا يؤدّي إلى الشعور

بالوحدة والتنافُر المعرفيّ (Schimmel, 2020, 2021). من هنا، قد تكون الكتابة هي بحدّ ذاتها أداة للتعامُل مع هذه الوحدة، بكونها قناة تواصُليّة توثيقيّة تتفوّق على القناة الشفويّة المحكيّة في هذا الجانب.

تؤكّد كلمات الكاتبة الغزّيّة هيا أبو عودة وجود الزَّخْم العاطفيّ الشديد الثِّقَل على ضحايا الإبادة:

"كثُرت القصص يا حبيبي، أخاف أن أنساها لأنّ رأسي ليس بوسعه ملاحقة الأحداث أو تذكُّرها كاملة، أصوغ نصف القصّة؛ لأجد قصّة جديدة قد وُلِدَتْ للتوّ، أحاول صياغتها تلك الأخرى بكلام مجعّد ومرتبك؛ لأنّني نسيت كيف يكون ترتيب الكلام؛ فتتكرّر المأساة، وهكذا أظلّ أنسى من جديد كلّ ما يجب عليّ تذكُّره". (أبو عودة، 2024).

وختامًا، يلخّص الكاتب أحمد صالح، الغزّيّ المقيم في بلجيكا، كلَّ هذا التنظير المتعلّق بالعلاقة بين التوثيق والمجهوليّة، وبالعلاقة بين الإبادة والوحدة، عن طريق نصّه الموجَّه إلى أهله وأصحابه في غزّة في ظلّ الإبادة:

> نسطّر أحلامهم وكلماتهم وقصصهم حتّى لا يصيروا أرقامًا في حصيلتهم؛ لننشر رائحة الموت الّتي تسلّلت بين قمصانهم كالظلّ السائب في أفواه العالم، وربّما لنجمع أشلاء أطفالنا الّتي تبكي جثثًا وفقراء لتبصق على منافقي العالم، وندقّ سؤالنا الوجوديّ الّذي يأكل رؤوسنا ويلتهم ما تبقّى من نفوس أطفالنا في نعش الأبديّة، لماذا؟ فقط لماذا علينا أن ندافع عن إنسانيّتنا؟ لماذا علينا أن نصيح في وجه السماء؛ لنتساءل عن وجود الآلهة؟ (صالح، 2023).

إذًا، يضع صالح الكتابة والتوثيق في منصب مجابهة المجهوليّة والموت العبثيّ. يقول إنّ تسطير أحلام وكلمات وقصص الضحايا هي التي تجعلهم "ضحايا"، لا مجرّد "أرقام". فضلًا عن ذلك، يعتقد صالح أنّ الكتابة والنشر عن الإبادة ضروريّان لإيصال ما يسمّيه "رائحة الموت" إلى العالَم، ربّما كنداء لإيقاف الجريمة، أو كعمليّة تربويّة تعليميّة لمنع إبادات مستقبليّة. هذا الهاجس للتوثيق والكتابة لم يقتصر على صالح فحسب، بل إنّه كان شائعًا جدًّا في النصوص المنشورة في "فسحة" عشيّة الإبادة، حتّى إنّها قد تكون هي الثيمة الأساسيّة في هذه النصوص، أي التأبين والتخليد.

هذا التوثيق لم يتوقّف عند توثيق الموت والقتل وأشكاله وسرعته وقسوته، بل لقد امتدّ إلى توثيق جوانب الكارثة كافّة. على سبيل المثال، قامت الغزّيّة ضحى الكحلوت بتوثيق واقع النزوح والتهجير إذ قالت:

> في الغرفة الّتي أشترك بها مع خمس وعشرين فتاة من بنات عمّي وعائلتي، لا ننفكّ نتخيّل اليوم الّذي نعود فيه إلى الشمال. ننام ونحن نلقي المزحات، أو نوزّع الذكريات فيثقل القلب وننام هربًا من المفارَقة بين ما كان وما نحن فيه الآن، ثمّ نصحو لنتبادل حديثًا يبدأ بـِ "لـمّا نروّح". ماذا نسمّيه بعد 93 يومًا من الحزن والفقد والتوحُّش؟ أهو الأمل حقًّا؟ (الكحلوت، 2024).

وكذلك فإنّه امتدّ إلى توثيق ردود فعل الأقرباء والأحباب على موت ذويهم. على سبيل المثال، تكتب الغزّيّة بتول أبو عقلين موثِّقة للحظات استقبال أخبار استشهاد الأقرباء والأصدقاء والمعارف في غزّة:

"وقف زياد، نظر إلى هاتفه، قرأ الخبر، ثمّ اخترقتْ نظراته عينَيْ أمّه، كان هادئًا كالبحر في الأيّام المشمسة من شهر كانون الأوّل. قال لها بصوت مكتوم:
- يمّا، أبو سامي استشهد". (أبو عقلين، 2023).

وتكتب أسماء حسين عن لحظات تلقّي الفلسطينيّين خارج غزّة لأخبار الإبادة:

> وكلّما طالعْنا عاجلًا مستجدًّا بارتقاء أحد -أو عديد- الشهداء والشهيدات، أخذ الرجال يلعنون المعتدي الإسرائيليّ المحتلّ، والمتخاذل الشقيق عربه ومسلمه، والمتقاعس العالميّ الصديق، وأخذت النسوة يتحسّرن على مَنْ خلّفه الشهيد والشهيدة من أحياء: الأرامل، والأب المفجوع، والأمّ الثكلى، والطفل، والرضيع الميتّم، وكلّ حبيب أمسى بلا أحبّة. أمّا جدّتي فتجد السلوى في تضرُّعها والتماسها رحمة الله بالأموات والأحياء على حدّ سواء. (حسين، 2023ب).

وفي مقال لي شخصيًا نُشر في "فسحة" أوثّق تجربتي الشعوريّة والنفسيّة عند مشاهدة ڤـيديوهات الإبادة في غزّة، جاء فيها ما يلي:

> في تجربتي الشخصيّة، تخلق الشهادة المباشرة للمآسي والمعاناة المروّعة في قطاع غزّة حالة نفسيّة مضطربة عند المشاهدين عبر

الشاشات؛ فأحيانًا هناك غريزة داخليّة للمساعدة والمساندة، وكأنّني أريد أن أذهب حالًا للتطوُّع في القِطاع، ولاحتضان الأطفال اليتامى، والتربيت على أكتاف الثكالى، وكأنّها طاقة من الغضب الممزوج بالتعاطف والهمّة.

أحيانًا أشعر بأنّني لم أعد أستطيع المشاهَدة، وأنّني صِفْر اليدين غير قادر على إنقاذ إخوتي وأبناء شعبي، ولا حتّى المساهمة في الكثير غير المشاركة للمآسي على الشبكات، ومحاولة تجنيد الرأي العامّ للضغط على المجرمين؛ لإيقاف مجازرهم في حقّ المدنيّين العُزَّل والأطفال والخُدَّج.

لكن، تحديدًا بعد مَشاهد مجزرة مخيّم جباليا في بداية تشرين الثاني 2023، أصابتني حالة من الرغبة في المشاركة الفاعلة والكاملة في الحِداد والحزن والأسى، وكأنّني أتصوّر الأسى المكتوب على الغزّاويّين ذا كَمٍّ محدّد مسبقًا، وأنا أرتشف منه قَدْر الإمكان للتخفيف عنهم. (قعدان، 2024).

توثيق المدينة والحضارة

يوثّق الكثير من الكتّاب الجانب الحضريّ للإبادة، أو ما سُمّي بالدوميسايد. يكتب عبد الله البيّاري عن الجانب النظريّ للدوميسايد في غزّة ما يلي:

إنّ الدمار الهائل الّذي لحق بالنسيج الحضريّ للقِطاع بسبب هذه العمليّات العسكريّة، إلى جانب استحالة إعادة الإعمار السريع الناجم عن الحصار، هي السمات المركزيّة لحالة الحرب الدائمة هذه في غزّة، الّتي كانت نتيجتها إبادة المدينة كنسيج حضريّ مادّيّ، ونسيج مخياليّ، وهو ما يفرض طبقة أخرى من تعريف إبادة المدن: مجموع أفعال من المفترَض أن تؤثّر في حياة السكّان بطريقة لا يمكن معها لأيّ شخص تجاهُل الحرب احتماليّةً ومفهومًا وشكلًا من الحياة اليوميّة. وهكذا أصبحت إبادة المدن عمليّة تدمير للجوانب التنظيميّة والثقافيّة للمدينة، في هجوم بيولوجيّ سياسيّ على السكّان، على المستوى المادّيّ المبنيّ والرمزيّ المحمّل لتلك المادّيّة. (البيّاري، 2024).

استمرارًا له، تكتب روضة غنايم (2023)، وهي من الداخل الفلسطينيّ، عن غزّة الحضارة عن طريق وصف زياراتها لغزّة في تسعينيّات القرن الماضي، وتحاول في نصّها توثيق الثقافة والحضارة الغزّيّة من صناعة الخزف ومطار غزّة وغيرها. وكمثل ذلك هو نصّ الغزّيّ هاشم شلّولة عن تجربته الحياتيّة في خان يونس:

"أراهن مرّة أخرى؛ كلّ مَنْ دخل أو زار خان يونس على أنّه ارتبط بها ارتباطًا مؤثّرًا وعميقًا، أو على الأقلّ بالغ الحسّاسيّة إلى جانب الفَهْم الخاطئ مبدئيًّا؛ فلها سحرها الأخّاذ، وعالَمها الّذي يؤسّس فيك مجون الارتباط والتأثّر وفُحْشَهما". (شلّولة، 2024).

وربّما ما هو مثير للعجب أكثر أنّ ظاهرة التوثيق هذه شملت توثيقاتٍ مُضاعفةً ومعمّقةً إلى أنّ كاتبًا من فلسطين الداخل، علي قادري، كتب ووثّق وحلّل كتابات وأدب هاشم شلّولة المقتبَس أعلاه في سياق خان يونس. يكتب علي قادري عنه: "أشعر بخجل مريب وأنا أكتب عن مجموعة شلّولة، وأنا لا أعرف مصائر أهله ومدينته، وهو بالتأكيد الآن من النازحين في قِطاع غزّة". (قادري، 2024).

تستمرّ الكتابة عن التوثيق وأهمّيّته إلى المستوى النظريّ أيضًا. يتطرّق معتصم زيدان (2024) لمقاومة المحو الإبستيمي عن طريق التوثيق في مقالته عن المحو الرقْميّ خلال الإبادة:

> يجنّد أعداؤنا من جميع المؤسَّسات المدنيّة والدولانيّة بعسكرها، وأدوات إنفاذ قانونها، كلَّ الأدوات لأجل إحداث ثقوب في الذاكرة والتاريخ، وذلك بهدف رسم صورة ماضي مستقبل مختلفة عمّا يعيشه الغزّيّ في ظلّ الإبادة. تُشَرْعِن إسرائيل لنفسها أيّ طريقة لإجراء عمليّة المحو؛ استمرارًا لمشروع التطهير العِرْقيّ والإبادة الجماعيّة الّذي بدأ منذ عقود، فتستغلّ جنودها المدنيّين، أدوات إنفاذ القانون، المؤسَّسات العسكريّة، الخوارزميّات، زرع الخوف في قلوبنا. في المقابل، يساعدها أيضًا اضطرارنا إلى التحايل على الخوارزميّات، الّتي ستؤدّي إلى ضياع هذه المحكيّات في كمّ ضخم من المنشورات الّتي تحتويها هذه الأرشيفات.

وكذلك، يكتب زيدون حجّار (2023) في مقالته عن احتكار إنتاج المعرفة الاستعماريّ، الغربيّ في هذه الحالة:

يشكّل "راديو الحارة"[4] مثلًا، منصّة ومشروعًا محوريَّيْن في هذا الشأن؛ لأنّ لديه القدرة على الدعم والتشبيك والتواصل، وربّما التوثيق والتسجيل وبناء أرشيف موسيقى وموسيقيّين مع الوقت.

توجد فرصة الآن لبناء سرديّة، وسرديّة تكون واقعيّة، وتمثّلنا وتمثّل الشعوب المستعمَرة والمهمَّشة؛ إذ يُسْتَعْمَر العقل والفكر والنظر والتطلُّع والتخيُّل والوعي أوّلًا، عن طريق السرديّة وأدوات الإنتاج. ونحن علينا تحرير أنفسنا عبْر إنتاجاتنا الثقافيّة والمعرفيّة وغيرها؛ لكي نتمكّن من بناء سرديّة جديدة وترجمتها إلى واقع.

يرتكز حجّار في مقالته هذه على أدبيّات نزع الكولونياليّة من المناهج المعرفيّة (Smith, 1999)، ويؤكّد على أهمّيّة إيجاد القنوات الأصلانيّة لإنتاج المعرفة والفنون من أجل التحرُّر. وهذا يحاكي ما ذُكِر سابقًا في هذه المقالة عن أهمّيّة مبادرات مثل "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة" كقناة أو منصّة للإنتاج المعرفيّ والثقافيّ والأدبيّ والفنّيّ. نَسُوق اقتباسًا آخَر عن أهمّيّة الفنون والإبداع لمحاربة النسيان والمجهوليّة ممّا كتبته الكاتبة مليحة مسلماني (2024):

"غير أنّ المبدعين، حرّاس الرواية، لا يرحلون تمامًا؛ إذ يتركون رسائلهم على جدران الوعي والذاكرة".

لذا، يمكن ربط مفهوم الضحيّة بالتوثيق والكتابة مرورًا بمجابهة المجهوليّة. فمثلما ذُكِر في المقدّمة، "الضحيّة" هي من لفظ "الضُّحى" أي ارتفاع النهار، ضدّ الليل والظلام والعتمة. لذا، من أجل أن تتحقّق شروط الضحيّة والموت ذي المعنى، ينبغي أن يكون هناك اعتراف مجتمعيّ بتفاصيل الموت وبتفاصيل الضحيّة وحياتها وهُويّتها، لا أن تكون مجرّد "رقم" أو "خبر عاجل" أو ما سُمِّيَ "هومو ساكر" (Agamben, 1995). في الإمكان قراءة هذه الرغبة للتوثيق على أنّها رغبة تفاؤليّة تنظُر إلى المستقبل، وتحاول توظيف الضحيّة في إعادة تنظيم المجتمع وتأكيد رضوخ الفرد لمصلحة ورغبات المجموعة (Durkheim, 1995). التوثيق بجوهره هو فِعل ينظُر نحو استمراريّة الجماعة مستقبَلًا؛ إذ قد يكون الجمهور المتخيَّلُ الأساسيُّ للكاتبِ الموثِّقِ هو الجماعة المستقبليّة، وبِذا فإنّه بهذا الفعل يؤكّد القِيَم والأحداث التي يجدر تذكُّرها وتخليدها.

4. محطّة إذاعيّة إلكترونيّة فلسطينيّة تبثّ من بيت لحم منذ إطلاقها في آذار 2020.

يُمكن تلخيص هذه المُمارسة التوثيقيّة والانشغال بها على أنّها مُمارسة تُعيد إنتاج أزمة الشّهادة على الأحداث المريعة المُسبّبة لصدمات نفسيّة كثيرة، والتي وُصِفت بأنّها أزمة إثر استحالة إحاطتها والتعبير عنها باللّغة والسّرد الروائيّ الخطّيّ (Felman & Laub, 1992). من هنا، فإنّ مُحاولات التّوثيق والإدلاء بالشّهادة هي بحدّ ذاتها شرطٌ للنّجاة والتّشافي المُستقبليّ (Felman & Laub, 1992). هذا المجهود نحو التّوثيق والإدلاء بالشّهادة لا يجب أن يكون مُجرّد تكرار للأحداث الصّادمة فحسب، بل عليه أن يكون مصحوبًا ببُعدٍ نقديّ وتحليليّ، مِمّا يساهم في فهم واستيعاب الصّدمة تدريجيًا وبدون العودة إلى شلل الصّدمة الأوّليّ (LaCapra, 2001). وفي التطلُّع إلى المُستقبل، هذا التوثيق الواعي لنفسه هو بمثابة حجار الأساس للذاكرة الما-بعديّة (post memory) والتي سترثها الأجيال القادمة عبر الخِطاب واللّغة والصُّور والمُمارسات الرّمزيّة (Hirsch, 2012)، لئلّا تتسلّل الصّدمة إلى الحياة اليوميّة لهذه الأجيال بصيغة العُنف على أشكاله (Das, 2007).

يتجلّى هذا كلّه في الهاجس الجمعيّ للتوثيق، على نحوِ ما ذكر كاتب هذه السطور في مقالته التي نشرها في "فُسحة":

"هذه الرغبة الجامحة في المشارَكة واختيار المصير الواحد تجلّت في اختياري معايَنة التفاصيل الكاملة وتحليلها وتوثيقها للـڤـيديو الأكثر وقعًا على نفسي في ذلك الحين. ولعلّ هذا اللجوء إلى الكتابة يجعلني أقترب من تأدية الأمانة الأخلاقيّة والوطنيّة، في تأبيد هذا الظلم وهذا الكرب وتخليدهما، أو لعلّها محاولة لمواساة هؤلاء الّذين ارتبطنا بهم عاطفيًّا بدون معرفتهم بذلك، ونَعُدّهم جزءًا من عوالمنا. معاناتهم محفورة في الوعي وفي الذاكرة، كالوشم في الهُويّة". (قعدان، 2024).

وكذلك جاء في السياق نفسه، وبكلمات إشراق كرونة:

"وإن لم نكتب هنا في هذا الوقت، فلن يفيدنا النظر الطويل في عيون الأطفال المذبوحين". (كرونة، 2024).

وكذلك نصّ عمر زيادة (2023):

عائلاتٌ لم يَنْجُ حتّى فمٌ واحدٌ منها ليقول
كنّا هناك.
نسوةٌ حبالى بأطفالٍ لن يولدوا أبدًا.

...
هنالك أغنيةٌ سنغنّيها
لمَنْ أُطلقوا في المهبّ فراشاتهم
ومضَوْا غير مكترثين،
لمَنْ لم يعودوا مِنَ العتمة المطلقة،
ومَنْ آثروا أن يردّوا الرياح
بأجسادهم عن نحول القرنفل
في مناماتنا،
لمَنْ صهروا الشمس
في أوعيةٍ
وأراقوا السهول على القفر،
كأنّ أضلعهم
جنّةٌ
تتنزّه فيها البلاد!

2. سرعة وغزارة الموت

من الثيمات البارزة في خطاب تداول الموت ثيمةُ سرعة الموت، وهي ثيمة كانت ذات حضور كبير في مَفْهَمة الموت ومعانيه عند الفلسطينيّين، ولا سيّما الغزّيّين منهم، في الموت المتساقط عليهم بدون أيّ إنذار مُسبق وبوتيرة شديدة الكثافة. وعلى وجه الخصوص في ظلّ تفجير سلاح الجوّ الإسرائيليّ للبنايات والبيوت المدنيّة بدون أيّ سابق إنذار، مع اعترافات بإيقاف استخدام پـروتوكول الاتّصال الهاتفيّ بسكّان البيت لإخلائه، أو پـروتوكول "الصاروخ التحذيريّ" أو "القرع على السطح" (بالعبريّة: هاكيش باجاج)، وهو إسقاط أجهزة غير متفجّرة أو صواريخ تحذيريّة على أسطح المنازل المدنيّة لإخلائها قبل تفجيرها (بوحبوط، 2023؛ Prusher, 2015; Haaretz Service and The Associated Press, 2009).

بدايةً، في الجانب التداوليّ، من المعهود أن نشهد في اللغة العربيّة استعمال تعابير مثل "خطفه الموت"، أو "قطفه الموت"، وبخاصّة عند التكلُّم عن موت غير متوقَّع. استعمال ألفاظ كهذه يشدّد على الجانب الزمنيّ في حَدَث الموت، وتحديدًا سرعة الموت وعدم القُدرة على التجهُّز إليه. تتحدّث كوبلر-روس في

كتابها "On Death and Dying" (Kübler-Ross, 1969) عن أهمّيّة التحضُّر والتقبُّل لفكرة الموت، وبها ترصد خمس مراحل يمرّ بها الإنسان عند تلقّيه خبر اقتراب موته: الإنكار؛ الغضب؛ المفاوَضة؛ الاكتئاب؛ التقبُّل. تدّعي كوبلر-روس أنّ هناك فائدة عظيمة في تقبُّل فكرة الموت عند اقترابه لإعطاء المريض القدرة على ترتيب أفكاره وترتيب أمور دُنياه عن طريق فتح قناة تَواصُل مباشرة وصريحة مع العائلة ومع الأقرباء (Kübler-Ross, 1969). هذا العامِل الزمنيّ قد يكون مهمًّا من الجانب النفسيّ لا للمريض نفسه فحسب، بل للعائلة والأقرباء كذلك، فقد تكون إتاحة الزمن للتعامُل مع الحِداد بحدّ ذاتها فُرصة لإعادة ترتيب الأولويّات في أهداف الإنسان ولإيجاد معنًى جديد لحياته (Neimeyer; et al, 2006). هناك إجماع من قِبل الباحثين على أهمّيّة إتاحة الوقت للتعامُل مع الموت، إن كان من وجهة نظر الإنسان الذي يُحتضر، أو من وجهة نظر أحبّائه (Tyrrell; et al, 2023).

في هذا، يمكن الاستشهاد بأفكار الغزّيّة مريم الخطيب (2023) التي نُشِرت في "فسحة" في 2023/10/30. تقول الخطيب:

"هذا الموت عبثيّ، يضرب كلّ شيء، لا يميّز الأحلام، لا أولويّة لها لديه".

في هذا النصّ ربط بين العبثيّة واللا-معنى من جهة، والموت الأعمى الذي لا يميزّ الأحلام ولا أولويّة لديه من جهة أخرى، ممّا يؤكّد على تأثير شدّة سرعة وكثافة الموت وعدم انتقائيّته على مَفْهَمتها للموت. يقوم الكاتب الغزّيّ عثمان حسين في نصّه في 2023/11/20 بالربط المباشر بين مجهوليّة الموت وعبثيّته من جهة، والعامِل الزمنيّ من جهة أخرى، إذ يكتب:

أوّل القتلى سيحمل اسمًا ورقْمًا
وربّما لون حذائه ستذكره الطبول
سيكون محظوظًا، مُعَرَّفًا بالشهيد.
ونمضي أرقامًا متضاربة
بلا أسماءٍ أو حكايات.
...
يا موت، انتظر
أحتاج إلى أن أبلع ريقي
أو حتّى ينتهي الجلّاد من أشغاله.

يا موت...
أيّها المنادى
لا تليق بنا. (حسين، 2023أ).

يطلب حسين من الموت أن ينتظر ليتمكّن من "بلع ريقه"، كرمز مباشر للحاجة إلى التحضُّر للموت، ويقرن فقدان هذه البرهة الزمنيّة للتحضُّر للموت بعبثيّة الموت وبكون الموتى يغدون "أرقامًا متضاربة بلا أسماءٍ أو حكايات". هذه الثيمة تعود لتظهر عند الكاتب الغزّيّ المقداد جميل مقداد:

تأمّل قليلًا أيّها الموت
تأمّلنا قليلًا أيّها الموت
تأمّل ولو للحظةٍ حالنا
تأمّل عيوننا
علّها كانت زرقاء أو خضراء
أو فيها بعضًا
من لونٍ آخر... (مقداد، 2023).

وكذلك تظهر في أقوال الكاتب الغزّيّ مؤمن موسى (2024):

"تريد الضحيّة أن يخبرها الموت قبل ثوانٍ لترتّب خصلات شعرها جيّدًا، ولتَعُدّ النجوم لآخِر مرّة. تريد من هذا الموت أن ينتظر قليلًا هناك تحت الرمال، رأس لي وفي السماء يدي. تريد أن تموت بيدين ورأس واحد وأحلام كثيرة".

وهنا، في التعبير "ترتيب خصلات الشعر" (تحضيرًا للموت) يُضاف إلى العامِل الزمنيّ (أي التحضير) العامِلُ الشكليّ أيضًا. معنى ذاك أنّ الكاتب يرمز إلى الحاجة إلى تحضُّر الإنسان من الجانب الشكليّ أيضًا -وكأنّ الموت حدث رسميّ ينبغي علينا أن نستقبله أنيقين وجميلين.

وبعد، شيئًا فشيئًا، خلقت ظروف الموت السريع والعَبثيّ وبدون أيّ سابق إنذار عند الغزّيّين حالة من الدخول الجماعيّ في مراحل الحِداد المذكور آنفًا وَفْق كوبلر-روس. أدّى شعور عدم اليقين بالمصير وشهادة قصف البيوت الآمنة على رؤوس أصحابها المدنيّين في منتصف الليل بأعداد كبيرة من المجازر البشعة إلى حالة يُمْكن وصفها بانتظار الموت وتقبُّل فكرته. وكأنّ بعض الكتّاب الغزّيّين

مرّوا بكلّ مراحل الحِداد بفترة زمنيّة سريعة جدًّا ليصلوا إلى المرحلة الأخيرة وَفْق كوبلر-روس وهي التقبُّل للموت (Kübler-Ross, 1969). على سبيل المثال، يكتب أحمد بسيوني (2023ب) في 2023/12/31:

"نحن في غزّة جثث لم يَحِنْ موعد دفنها، قبور وشواهد متحرّكة، نبكي بعضنا، وبعضنا يبكينا...".

وهو وصف مباشر لحالة الحِداد؛ تقبُّل فكرة موت النفس من جهة، وبُكاء مصير الأقرباء والأحبّة الذين لم يَلقَوْا حتفهم بعد من جهة أخرى. سرعة وغزارة الموت أدّتا إلى نتيجتين أساسيّتين؛ الأولى هي عدم القدرة على توقُّع الموت العَينيّ للأفراد، والثانية هي الاحتماليّة العالية للموت بصورة عامّة. دمج هاتين النتيجتين دفع الغزّيّين إلى الدخول في حال يُمْكِن أن يُطلَق عليه بيتُ عزاء جماعيّ تحضيريّ ما قبل الموت.

تصف الغزّيّة فاطمة لولو (2023) حالة انتظار موت الأعزّاء من بعيد، إذ تقول:

> وبعد كلّ هذا، ماذا عن انتظار رسالة تُنْعى فيها عائلاتنا، أو يُذاع فيها خبر دمار بيوتنا؟ أنا هنا على الأعراف، لا أستطيع أن أكون في الجنّة؛ فالحرب لـمّا تنتهِ بعد، ولست في النار إذ ما زالت عائلتي على قيد الحياة. الانتظار هنا أسوأ كثيرًا من كِلا الاحتمالين؛ إذ لا شيء مؤكّد هنا! إن كان يجب على طائرات الاحتلال أن تهدم بيتًا مكوَّنًا من ثلاثة طوابق، في أعلاه بيت للطيور ومساحة خضراء يحصد فيها والدي ثمار الليمون، ويقطف منها الفلفل الأخضر ذا القرن الملتوي، وأوراق الحبق الأخضر. لماذا عليّ أن أنتظر كلّ هذا وأعيش ذلك؟ وإن كان على أحد أن يستشهد من عائلتي أو كلّ عائلتي بفعل قنّاص متعطّش للدماء؛ فلماذا عليّ أن أنتظر كلّ هذا وأعيش ذلك؟ وهل من شيء أقسى على قلب الإنسان من أن يُمْتَحَن بالفقد قبل وقوع الفقد وبعده؟ أيروّضني الانتظار على تحمُّل سماع الفاجعة الكبرى، أم يجعلني أعيش على أمل كاذب ستأفل شمسه قريبًا؟

وربّما كانت الجملة "يُمتَحَن بالفقد قبل وقوع الفقد وبعده" تُجسِّد حالة الحِداد والعزاء المتعدّية لحَدَث الموت العَيْنيّ، محيطة به من قَبْل ومن بَعْد؛ وهو ما يجعل القارئ يفهم أمنية الغزّيّين الكثيرين في الموت السريع قبل معيشة هذه الظروف اللا-إنسانيّة. في هذا، كتبت بتول أبو عقلين (2023) في 2023/12/27:

"كلّ ما يريده الآن هو موت مفاجئ هادئ مطمئنّ سريع، موت يشبه العاديّ، لا يريد أن ينتظر لأنّ هذا هو تحديدًا ما يعنيه الموت".

3. شكل الموت

يكتب الغزّيّ حيدر الغزالي (2023) في 2023/10/29:

"أحلامنا بسيطة جدًّا
أريد أن تمشوا في جنازتي
أن تُلْقوا على وجهي الزهور
هذا لأنّني أريد وجهي".

مِمّا يؤكّد على تفكير الغزّيّين تحت الإبادة بمصير جثامينهم. في قوله "أريد وجهي" هناك ما يرمز لحاجته إلى تعرُّف أهله على جثمانه، على ضوء عدم المقدرة على التعرُّف على الجثامين في ظلّ الإبادة المستمرّة وشكلها. فضلًا عن هذا، "إلقاء الزهور" على وجه الجثمان قد يدلّ على اعتراف الكاتب بأهمّيّة وداع الجثمان بصورة لائقة وجميلة قَدْر المستطاع.

جاء في (القرآن الكريم، سورة المائدة، 30- 31) عن قابيل: (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ). وهي شهادة على كون طقوس دفن جثمان الميّت من أهمّ مكوّنات المجتمع والحضارة. يقول لاكوير إنّ التعامل مع الجثامين هو بحدّ ذاته من الظواهر التي أسهمت في تطوُّر المجتمعات البشريّة عبْر الزمن (Laqueur, 2015). وهو يشير على وجه التحديد إلى الأهمّيّة الثقافيّة والرمزيّة في تحضير الجثمان والعناية به، ممّا ينجّع ويسرّع من سيرورة الحِداد عند ذَوي الفقيد. هذا التحضير للجثمان -تنظيفًا كان أَمْ تزيينًا أَمْ غير ذلك- يتيح فرصة للعائلة أن تودّع الفقيد على نحوٍ يُثْني على احترامه كإنسان.

في الإبادة الجماعيّة في غزّة، كما فُصّل سابقًا، لم تكن ثمّة إتاحة لتطبيق طقوس الدفن عند الكثير من الأموات. في هذا الصدد، يُمْكن التطرّق على نحوٍ خاصّ إلى قضيّة القبور الجماعيّة في غزّة (The Guardian, 2024)، بأبعادها الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والأخلاقيّة. ترصد سارة واچـنر (Wagner, 2008)

شعورًا عميقًا بالظلم والحزن بين الناجين في سياقات المقابر هذه. علاوة على ذلك، تدّعي أنّ اكتشاف وحَفْر المقابر الجماعيّة يؤثّران على الذاكرة والهُويّة الجماعيّة، مع التشديد على الأهمّيّة العُظمى للتعرُّف على الجثث نحو استعادة الهُويّة والشخصيّة للضحايا، وهو ما يسهم في شفاء المجتمع. تفسّر واچـنر أهمّيّة التعرّف على الجثث لا عبْرَ دَوْره في تقبُّل الموت فحسْب، بل كذلك من حيث كونه بمثابة دليل ملموس للفظائع مِمّا يساعد في مواجهة الماضي وبناء أساس للتصالح مع الذات ومع العالم (Wagner, 2008).

تتجلّى الأفكار هذه لدى الغزّيّة مريم الخطيب (2023)، إذ تقول:

"أريد أن يخبرني لأرتّب خصال شَعري جيّدًا ولأعدّ النجوم لآخر مرّة
أريد منه أن ينتظر قليلًا هناك، تحت الرمال،
رأسٌ لي، وفي السماء يدي
أريد أن أموت بيدين كاملتين ورأسٍ واحدٍ وأحلامٍ كثيرة".

وكذلك في نصّ مؤمن موسى (2024):

> هذا الموت جائع، يحمل عائلة بأكملها، ويترك الهشّ منها ليأكل حسرتهم طوال حياته؛ ليراهم في أعمدة البيت المهدّم، وعلى الورد في النوافذ. هذا الموت أحمر، سماؤه سوداء، متجذّر في الأرض، لا أريد إصبعي أن يطير ويتركني، ولا أريد أن أكون أشلاء، لن أملأ الكون بعبثيّة أصابعي. هل تعلم، أيّها المخرج، أنّني أمتلك أحد عشر إصبعًا بلا عقلة؟

في الحديث عن الموت "بيدين كاملتين ورأس واحدٍ" أو بدون أصابع مُتاطيرة، يمْكِن التطرُّق إلى ظاهرة الأشلاء وجثث الموتى في طرح نادرة شلهوب-كيـفـوركيان (Shalhoub-Kevorkian, 2015, 2019) فهي تقول إنّه في سياقات الاستعمار والاحتلال بخاصّة تصبح الأشلاء كيانات مسيّسة تُستخدَم وسيلةً للسيطرة. يقول الكاتب أعلاه مؤمن موسى "لا أريد أن أكون أشلاء"، بنظر شلهوب-كيفوركيان، يمارس الاحتلال الإسرائيليّ لفلسطين سلطته من خلال التلاعب بأساليب التعامل مع الجثث، وعرضها، واحتجازها، مستخدمًا التقطيع كأداة لا-إنسانيّة تنزع الكرامة وتُعطّل عمليّات الحِداد. وترتبط هذه الممارَسة بمفاهيم أوسع للسياسات المتعلّقة بالموت، حيث تمارس الدول سيطرتها على الحياة

والموت. فضلًا عن هذا، منْع إقامة الممارَسات الدينيّة والثقافيّة في دفن الموتى يزيد من إلحاق الصدمات النفسيّة بالمجتمعات، ويُستخدَم كاستراتيجية حرب نفسيّة لإبقاء حالة الحِداد المستمرّة وتعزيز السيطرة على السكّان المضطهَدين.

تقرن الكاتبة الغزّيّة حنين محسن (2024) شكل الموت وظاهرة الأشلاء في الإبادة الجماعيّة بمفهوم الضحيّة والقربان على نحوٍ مباشر، إذ تقول:

رجاءً، انتبهوا لِما تبتلعونه
اتركوا أشلاءنا
بقايا جلودنا، أطراف صغارنا المنسيّة،
صراخنا المكتوم، أثداء نسائنا، بقايا عظامنا
اتركوها سنعيدها إلى مكانها
أرجوكم انتبهوا
إن وجدتم قطعة لحمٍ منسيّةً، قاسيةً، لا صاحبَ لها
لا تُلقوها للذئاب، فهي قلبي
تركته بين الركام مرّةً
ليكون قربانًا.

مِمّا يميّز هذا الطرح أنّه يصرّ على قربانيّة الموت بالنسبة للكاتبة على الرغم من فقدان الفرصة لتطبيق الطقوس بمفهومها الواسع. فهي تقول إنّ قلبها الذي تركته بين الرُّكام (أي إنّه لم يحظَ بطقوس الدفن اللائقة، ولا بكونه جزءًا من جثمان كامل) هو بحدّ ذاته قربان، ولكن من الجدير بالإشارة أنّها لا زالت تشترط قربانيّة قلبها بمحاولة القرّاء العثور عليه تحت الرُّكام، وأن يبحثوا عن بقاياها بين الرُّكام، وألّا يرموا "قطعة اللحم" للذئاب -على حدّ تعبيرها-؛ وهو ما يعني أنّ فَهْم محسن للموت القربانيّ ينصّ على كونه موتًا معترَفًا به من قِبَل الجماعة، وكذلك يقتضي الخطوات الفعليّة لتطبيق الطقوس.

4. عن الأَسْطَرة والأساطير

الثيمة الرابعة التي ظهرت وتكرّرت في النصوص كانت ثيمة استحضار الأساطير للحديث عن واقع الإبادة والتهجير في غزّة. وكما ظهر في الثيمة الأولى، بشأن

التوثيق، حضر في النصوص حِوار غير مباشر بين الكُتّاب؛ بين المؤيّدين لتوظيف هذه الأساطير من جهة، والمعارضين للأَسْطَرة من جهة أخرى. في الإمكان قراءة استعمال الأَسْطَرة والأساطير في الحديث عن الموت والإبادة كمحاولة للتواصل واستعطاف الآخرين، وكمحاولة للتواصل مع التراث والهُويّة والتاريخ الجماعيّ (Sontang, 2004; Scarry, 1985). بَيْدَ أنّها ليست القراءة الوحيدة؛ إذ يدّعي كلاينمان ولاحقًا كلاينمان وداس ولوك (Kleinman, 1988; Kleinman; et al, 1997) أنّ استعمال الأساطير لوصف المعاناة هو طريقة لإدخال سرديّة دينيّة وأخلاقيّة وأيديولوجيّة لهذه المعاناة تضفي بدَوْرها المعنى لها. على سبيل المثال، الحديث عن المعاناة بمساعدة ألفاظ مثل الابتلاء الربّانيّ هو بحدّ ذاته تأطير مفاهيميّ أخلاقيّ وروحانيّ لهذه المعاناة. هذا التأطير المفاهيميّ عن طريق السرديّة الأسطوريّة قد يكون أيضًا بمثابة بوصلة ومنارة أخلاقيّة تساعد الفرد والجماعة على التحرُّك وسط الكارثة واللا_معنى.

يمكن الاستشهاد بكلمات أحمد بسيوني (2023أ) المنشورة في 2023/12/7 مثالًا واضحًا لاستخدام السرديّة الأسطوريّة في مَفْهَمة الإبادة في غزّة:

"ننتظر نبيًّا يخرج، يضرب بعصاه بحر غزّة، يشقّه لنا؛ لنعبر نحو النجاة، فإمّا حياة تسرّ الصديق، وإمّا حياة تغيظ العدا".

وتعود الأسطورة نفسها لدى الكاتبة الغزّيّة فاطمة لولو (2023):

"من نافذتي يطلّ بحر الخليج يسارًا، أنتظر وأقول: كان البحر أكثر أمانًا على النبيّ موسى وأتباعه من اليابسة. أمّا بحر غزّة، فتصطفّ البوارج الحربيّة المثقلة بالأسلحة وبالقنابل فيه طابورًا ضخمًا؛ لنشر الموت على أهل المدينة".

يستخدم الكُتّاب سرديّة النبيّ موسى كمقارَبة لظروف غزّة تحت الإبادة في حين أنّها محاصَرة من كلّ الجّهات، وإحدى هذه الجهات هي البحر. استحضار هذه السرديّة، إلى جانب نجاعتها التواصليّة مع القُرّاء، يوفّر مخطَّطات إدراكيّة (schema) لقراءة المجْرَيات وللتَّمَوْضُع فيها. وبهذا تسهم الأساطير المتجذّرة في الذاكرة في تسليط الضوء على شِيَم مثل الصبر عند المعاناة الشديدة، ومثل التفاؤل حتّى انتهاء الكَرْب، وذلك عن طريق تأطير الواقع من جديد بمساعدة القصص المستحضَرة والمستخرَجة من التراث، والتي تحوي عوامل سرديّة تحاكي الواقع الـمُعاش.

تَكرَّرَ استعمال الأساطير لـمَفْهَمَة الإبادة والموت في غزّة في العديد من النصوص. ولم تقتصر هذه الأساطير على الإبادة البشريّة، بل تجاوزتها إلى إبادة المدينة (دوميساید):

"غزّة كانت مثل يوسف، جميلة ومبهجة وتثير فيك الرغبة، قطعت النساء أيديَهُنّ عند رؤيته، هكذا كنّا نقول للصحافيّين عن غزّة في شوارع القاهرة، الآن قتلوا يوسف والرغبة والبحر والطفل". (موسى، 2023).

في المقابل، كان هناك أيضًا كثير من الكُتّاب، ولا سيّما الغزّيّين منهم، كتبوا نصوصًا تدلّ على رفضهم المباشر للأَسْطرة. يكتب أباهر السَّقّا (2023)، الغزّيّ المقيم في رام الله، في 2023/11/9:

"هم أناس عاديّون يحلمون بكلّ شيء: بالحصول على الخبز والماء الصالح للشرب والكهرباء، والعيش بعزّ وكرامة، مرورًا بممارسة المقاومة والجَلَد والصمود، وانتهاءً بتحقيق الرغبات الأكثر خياليّة لمجتمع ليس خياليًّا".

ويكتب الغزّيّ هاشم شلّولة:

> وما لا تعيه الجماهير المولعة بهذه الملحميّة الخالصة، والخاصّة بصورة غزّة المصدَّرة لهم، هو أنّ غزّة بأفرادها وجماعاتها لا تبحث عن الأسطورة الملاحِقة لها كهاجس، وهذا تراه في كلّ ما يجسّد وعي غزّة بموقعَيْها الوجوديّ والمعيشيّ الخالصَيْن من الإعراب، ولو مررت عليها في يوم عاديّ لوجدت في كلّ متر قصّة، أو سيرة، أو صورة من الصور الّتي تتوازى مع الصور الحيّة للمدينة العاديّة جدًّا؛ العاديّة جدًّا؛ العاديّة جدًّا. (شلّولة، 2024).

يظهر جدال الديالكتيكيّ بين القوى الدافعة لاستخدام الأساطير في وصف الموت والمعاناة، والقوى الرافضة له. وهنا أشير أنّه قد يكون مقدار الأَسْطرة لشيءٍ ما هو كالطيف. هناك الأسطرة التامّة، أي تقمُّص دَوْر شخصيّة أسطوريّة في قصّة أسطوريّة، وفي الجهة المقابلة قد يكون هناك استحضار عوامل معيّنة من الأسطورة لوصف حدثٍ عَينيٍّ ما. أضعفُها هو استخدام لفظ "الأسطوريّ"، فهو لا يستحضر الأسطورة العينيّة، بل إنّه فقط إشارة إلى أنّ المُشبَّه هو شبيه بالأساطير. وفي الحديث عن الإبادة، من جهة، وكما ذُكِر آنفًا، ثمّة أهّميّة لاستخدام الأساطير لـمَفْهَمة المعاناة والموت، ولنَظْمها ضمن سرديّة ذات معنى للفرد وللجماعة.

ولكن من جهة أخرى، يقول الكاتب كريم أبو الروس (2024):

"نحن بشر مثلكم، نخاف، نحبّ، نحزن، نغضب، نشعر بالحنين، نخاف الفقدان، نكره الحرب، لا نرغب في تجريب الألم والنزوح والجوع والعطش".

قد يرمز أبو الروس إلى أنّ الانغماس في الخطاب كثير الأسطرة قد يؤدّي إلى التزمُّت الدوچـمائيّ والتعصُّب الأيديولوجيّ ذي الأبعاد الداخليّة (في المجموعة) والخارجيّة، والذي قد يضعف صفة الإنسانيّة من الضحيّة. من هنا، في الإمكان قراءة القوى الخطابيّة الرافضة للأَسْطَرة، والمؤكِّدة على إنسانيّة الغزّيّين البسيطة، كطريقة لإحداث توازن لألّا يجري نزع الأَنْسَنَة وطمس المعاناة تحت بساطير الأساطير الكبيرة، وليبقى متّسِعًا لِما أطلقت عليه جوديث باتلر (Butler, 2009) لقب "القابليّة للأسى" (Grievability). يتجسّد هذا الجدال الداخليّ على نحوٍ مباشر في كلمات بسيوني (2023أ): "هل نحن أنبياء هذا الزمان؟ إذا كانت الإجابة: لا؛ فلِمَ نحن حزانى؟ وإذا نعم: فأين معجزة عيسى وموسى وإسماعيل؟".

عن القرابين

وفي تأطير لـمَفْهَمة الموت بين العبثيّة والقربانيّة، قمت برصد النصوص التي تستحضر السرديّات والأساطير المتطرّقة إلى القربان تطرُّقًا مباشرًا. برز في هذه النصوص عاملان أدبيّان أوّلهما هو موتيف (Motif) يسوع أو قصّة صَلْب النبيّ عيسى، والثاني هو موتيف الدم. يكتب الغزّيّ أحمد بهوى (2024) في 2024/2/4:

جعتُ كثيرًا في الطريق إليك
لم أجدْ غير رغيفٍ يبسَ فوقه دمٌ ناشفٌ
فأكلتُ ما استطعتُ منه، ثمّ حفرتُ قبرًا لبقايا الرغيف
ودفنتُ القطع الّتي شربَتِ الدم
يُدْفَنُ الدم حين يكون عليه أن يصبح غضبًا أو لعنة
يُدْفَنُ الخبز المقتول حتّى يقوم قيامةَ يسوع.

يذكر بهوى قطعة الخبز التي شربت دمًا كرمز مباشر لقصّة النبيّ عيسى في الأدبيّات المسيحيّة، ويقول إنّه دفنها لتصبح "غضبًا أو لعنة" وليقوم "قيامة يسوع". في هذا التوصيف مَفْهَمَةٌ قربانيّة للموت لعدّة عوامل: الأوّل هو أنّ للموت هدفًا ما تداوُليًّا مستقبليًّا؛ ففي التضحية ثمّة خسارة لحظيّة في الحاضر من أجل

ربح أكبر في المستقبل. الثاني هو الطقوسيّة؛ إذ إنّ الكاتب يقول إنّه دفن تلك القطعة التي شربت الدم، مِمّا يحاكي ظواهر القرابين في الأدبيّات. الثالث هو عامِل الفائض الذي يتكلّم عنه باتاي (Bataille, 1991)، فيقول بهوى في النصّ إنّه أكل بعضًا من الخبز ودفن القطعة المتبقّية، وهنا يمكن اعتبار هذه القطعةِ الفائضَ الذي يقرنه باتاي بمفهوم القداسة.

نَسوق مثالًا آخَر على استحضار قصّة النبي عيسى:

"اليوم، وبعد مرور سنة على إجابتي، أقول: "يا غدير، لعلّك تقرئين: كلّ العالم آمِن إلّا غزّة، أنا اليوم يداي معلّقتان في الهواء، صُلِبت كعيسى، وجَيْبي مقبرة، كلّما وضعتُ يدي فيها، عانقتُ شهيدًا، الغريب أتى، والهجوم سرطان أبيض، سئمت عدّ الأيّام، والمقبرة امتلأت". (بسيوني، 2023ب).

إلى جانب قصّة النبيّ عيسى، هناك أيضًا النصوص التي ربطت مفهوم القربان بالدم ربطًا مباشرًا. على سبيل المثال:

> الأرض ممتلئةٌ بالأشلاء- القرابين، وأوراقٍ بيضاءَ كُتِبَتْ عليها تعليمات النزوح الجديدة.
> ...
> اقترب
> أهديك دمي
> نبيذَ ليلك العاري. (محسن، 2024).

وهنالك ما يلي كذلك:

"لكن يبقى السؤال الحقيقيّ: إذا لم نستطع أن نقدّم دمنا لغزّة فماذا نقدّم؟ أيّ شيء أرخص من ذلك ماذا قد يفيد؟". (رباح، 2024).

تلخيص

تطرح هذه الدراسة السؤال عن كيفيّة فَهْم الفلسطينيّين الإبادة الجماعيّة في غزّة والاصطلاح عليها، بقراءة عبْر الإطار النظريّ والفلسفيّ الذي يطرح ثنائيّة العبثيّة والقربانيّة للموت. تدلّ عيّنة النصوص المنشورة في مجلّة "فسحة ثقافيّة فلسطينيّة" على وجود محاولات متنوّعة وعديدة لـمَفْهَمة المعاناة والموت

والإبادة في غزّة منذ السابع من أكتوبر 2023. ولكن ضمن هذا التنوُّع برزت ثيمات أساسيّة في النصوص: أوّلاها ثيمة **التوثيق والأَرْشَفة**، وهي ثيمة متكرّرة يُمْكن القول إنّها إرث ثقافيّ فلسطينيّ تَعَزَّزَ وتَأَسَّسَ منذ حرب عام 1967. في الإمكان فَهْم عمليّة التوثيق على أنّها عمل مُقاوِم لمجهوليّة الموت ("مجرّد أرقام") وللمحو الإبـستيميّ للشعب الفلسطينيّ ولتاريخه العينيّ والجمعيّ.

الثيمة الثانية التي ظهرت هي ثيمة **سرعة وغزارة الموت**، التي يبدو جليًّا من خلالها محوريّة العامِل الزمنيّ في مسألة التعامل النفسيّ مع الموت، من وجهة نظر المحتضَر، وكذلك من وجهة نظر العائلة والأقرباء. ففي ظروف الإبادة الجماعيّة في غزّة، لا تتوافر الإمكانيّة لتوقُّع الموت العينيّ للفرد، ولا يتوافر الوقت اللازم للتعامل مع هذا الموت أو خبر الموت. هذه الحالة تُفْضي إلى دخول أهل غزّة في حالة من الجِداد الجماعيّ الدائم بين محاولةِ تقبُّل فكرة موت النفس، من جهة، وبُكاءِ مصير الأقرباء والأحبّة الذين لم يَلقَوْا حتفهم بعد، من جهة أخرى.

ثالثًا، ثمّة ثيمة أخرى برزت في النصوص هي **شكل الموت** في غزّة. إثر القصف العنيف والعشوائيّ للمدنيّين منذ السابع من أكتوبر 2023، أصبحت مسألة شكل الموت مسألة شرعيّة مطروحة على الطاولة؛ فمن جهة هناك ظاهرة الأشلاء والحرق للجثامين مِمّا يصعّب التعرُّف عليها ويثير في قلوب الناس الرعب من مصير جثامينهم. ومن جهة ثانية، ثمّة قضيّة الجثث المفقودة تحت الرُّكام والمقبورة في المقابر الجماعيّة على يد الجيش الإسرائيليّ، مِمّا يَحْرم الإنسان من حقّه الأساسيّ في الدفن. تستثير هذه الثيمة، أيْ شكل الموت، قضايا كثيرة مثل أهمّيّة طقوس الدفن ووداع الجثمان من قِبل أهله وأقربائه، وكذلك علاقة هذه الطقوس بالهُويّة والتاريخ الجمعيّ.

ورابعًا وأخيرًا، ثيمة **الأَسْطرة في ما يتعلّق بالموت والإبادة**. في تعامُل الكتّاب مع موضوع استخدام الأساطير لـمَفْهَمة الموت، كان ثمّة تيّاران متعاكسان: الأوّل هو الذي يستخدم هذه الأساطير، ولا سيّما قصّة النبيّ موسى وقصّة النبيّ عيسى، كمقاربة لهول الأحداث في غزّة. يجدر القول إنّ هذه المقاربات تُوفِّر مخطّطات إدراكيّة تساعد الأفراد والجماعة على فَهْم موقعهم ضمن الكارثة، وتكون بمثابة بوصلة أخلاقيّة وروحانيّة لهم. في المقابل، ظهر تيّار آخَر رافض لهذه الأَسْطَرة ومؤكِّد لأَنْسَنة الغزّيّين وحيواتهم البسيطة البعيدة عن الأسطورة والمثاليّات.

بهذا، نجيب عن سؤال الدراسة المركزيّ بشأن كيفيّة إضفاء المعنى للموت والفقدان في ظلّ الموت الجماعيّ والإبادة في غزّة. الثيمات الأربع التي ظهرت وتكرّرت في النصوص قد تشير لنا إلى كيفيّة إمكان تحويل الضحيّة من ضحيّة مستباحة ("هومو ساكر") إلى ضحيّة قربانيّة ذات قداسة وذات معنى. على رأس هذه الثيمات **التوثيقُ**، وفي الإمكان قراءة عمليّة التوثيق على أنّها محاولة لقَرْبَنَة الموت (من لفظة "قربان")؛ إذ إنّها عمليّة تفاؤليّة تتطلّع إلى الأمام، فجمهور هدفها غير محصور في الحاضر بل يتجاوزها ليشمل المستقبل كذلك. علاوة على هذا، في الإمكان قراءة هذه الحاجة إلى التوثيق الدقيق للضحايا على أنّها حاجة إلى إظهار هؤلاء الضحايا للأفراد في الجماعة، في الزمن الحاضر وفي المستقبَل كذلك. يمكن وصف عمليّة التوثيق ابتغاءَ الإظهار والإحياء على أنّها شهادة ثنائيّة الاتّجاه (بما يرتبط مع مفهوم الشهيد): شهادة الضحيّة على الدنيا والآخرة، وكذلك شهادة الناس على المقتول في سبيل الله عن طريق تدوينه وحفظه في الذاكرة الجماعيّة. هذه القراءة قد تكون تأويلًا ما للآية: (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (القرآن الكريم، سورة آل عمران، 169)، والمقصود بأنّهم أحياء هو أنّ ذكراهم حيّة في السجلّ المجتمعيّ وفي الذاكرة.

المَراجع

أبو الروس، كريم. (2024، 9 كانون الثاني). صوت غزّة الذي لا يريد أحد سماعه. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/2t2stkvj

أبو عقلين، بتول. (2023، 27 كانون الأول). الرقم المطلوب غير متاح حاليًّا. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/32habkf3

أبو عودة، هيا. (2024، 20 آذار). خبز غزّة... والخال ميلاد. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/mrxfm8uf

الأعرج، باسل. (2018). **هكذا تكلّم الشهيد باسل الأعرج**. القدس: دار رئبال.

ابن الملقّن. (1989). **خلاصة البدر المنير**. (المجلد الثاني). مكتبة الرشد للنشر والتوزيع.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (1981). **لسان العرب**. (تحقيق الكبير، عبد الله علي وآخرون). القاهرة: دار المعارف.

بسيوني، أحمد. (2023أ، 7 كانون الأول). هل يعود إسماعيل إلى أمّه زاهرة؟|شهادة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/mr2zu6js

بسيوني، أحمد. (2023ب، 31 كانون الأول). في غزّة عندما أمشي، أضع يديّ الاثنتين في جيبي|شهادة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/ya5bjmbn

بهوى، أحمد. (2024، 4 شباط). عبرتُ لأجلكِ الحرب كلّها |شعر. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/mryy8scj

بوحبوط، أمير. (2023، 11 تشرين الأول). رئيس أركان سلاح الجو: "الـ 'الطرق على السطح'؟ حيث يوجد عدو، لا نفعل ذلك. نقطة". **والا**. [بالعبرية]
https://news.walla.co.il/item/3615229

البيّاري، عبد الله. (2023، 2 كانون الأول). في منطق الهدم وإبادة المدن. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/3y7e88a7

حجّار، زيدون. (2023، 28 تشرين الثاني). ممكنات الموسيقى: نحو سرديّة تحرّر الفلسطينيّ. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://shorturl.at/lZpoD

حسين، عثمان. (2023أ، 20 تشرين الثاني). موغلًا في العتمة السميكة|نصوص. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/4p75ukwb

حسين، أسماء. (2023ب، 13 كانون الأول). العرب بيوكلوا بطاطا|قصّة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/5wd2xm5p

حلّس، هاشم. (2023، 7 تشرين الثاني). صورة موت الفلسطينيّ الّتي لم تحدث. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/4bzhym2p

الخطيب، مريم. (2023، 30 تشرين الأول). مع كلّ صاروخ أصعد، وتُرجعني النجمة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/37d67ce3

رباح، آية. (2024، 6 شباط). لن يعود شيء كما كان يا غزّة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/2y35xaz2

زيادة، عمر. (2023، 26 تشرين الثاني). لا أعرف أشلائي، ولا أحد يعرف أشلاءه | شعر. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://shorturl.at/7ifHk

زيدان، معتصم. (2024، 19 شباط). ثقوب في الذاكرة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/2pbv56ra

السقّا، أباهر. (2023، 9 تشرين الثاني). غزّة وقطاعها... أزمة المخيال. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/466v25py

شلّولة، هاشم. (2024، 1 كانون الثاني). خان يونس العاديّة، العاديّة جدًّا|شهادة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/373mhesv

صالح، أحمد. (2023، 1 تشرين الثاني). مقبرة جماعيّة على حوض المتوسّط. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/2csawzes

العيلة، أنس. (2023، 1 تشرين الثاني). النكبة مجدَّدًا في بثّ حيّ ومباشر. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/25yvp52c

الغزالي، حيدر. (2023، 29 تشرين الأول). أنزح من القصف إلى مخيّم لاجئين|نصوص. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48.**
https://tinyurl.com/36aj5rjk

غنايم، روضة. (2023، 16 كانون الأول). رحلتان إلى غزّة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48.**
https://tinyurl.com/679v4p2v

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. (2005). **القاموس المحيط**. (تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة). بيروت: مؤسسة الرسالة.

قادري، علي. (2024، 24 كانون الثاني). الشاعر خلاص التغريبة... هاشم شلّولة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48.**
https://tinyurl.com/2a8v4mak

القرآن الكريم.

قعدان، جاد. (2024، 7 كانون الثاني). مش سامعكو يابا!. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/42w982f8

الكحلوت، ضحى. (2024، 17 كانون الثاني). "لمّا نروّح"... اتّكاء الغزّيّ على دمعه وأمله**. فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/4pr7jjh8

كرونة، إشراق. (2024، 21 شباط). قِيَم الثورة الفرنسيّة الّتي أسقطتها الجغرافيا المحاصرة|شهادة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/nvj4ram7

لولو، فاطمة. (2023، 23 كانون الأول). أهلًا بكم في التغريبة 2|شهادة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/4yswb7zh

مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (2004). **المعجم الوسيط**. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

محسن، حنين. (2024، 14 كانون الثاني). كيف يستعدّ طفلٌ للعيد بدون وجه؟|شعر. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://shorturl.at/xWe9u

مسلماني، (2024، 13 كانون الثاني). مليحة. مبدعو قطاع غزّة... الحرّاس لا يرحلون. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://shorturl.at/hAKZH

المصدر، منى. (2023، 26 تشرين الأول). في حَدّ هان؟ في حَدّ سامعني؟|شعر. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/bdextf3r

مقداد، المقداد جميل. (2023، 18 تشرين الأول). مقبرةٌ لأحلام الولد البسيطة|شعر. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/55by596m

موسى، مؤمن. (2023، 11 تشرين الثاني). يحبّ أهل غزّة تربية الحمام والزغاليل|شهادة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/wfjtb9ss

موسى، مؤمن. (2024، 26 شباط). مَنْ أنا بعد موت غزّة؟|شهادة. **فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة، عرب 48**.
https://tinyurl.com/28mnh2nt

Agamben, Giorgio. (1995). **Homo Sacer**. Valdisholm Publishing Company, Norwegian translation.

Arendt, Hannah. (1958). **The Human Condition**. Chicago: University of Chicago Press.

Bataille, Georges. (1989). **Theory of Religion** (Hurley, Robert, Trans.). New York: Zone Books.

Braun, Virginia; & Clarke, Victoria. (2006). Using Thematic Analysis. **Qualitative Research in Psychology,** 3 (2). Pp. 77– 101.

Butler, Judith. (2009). **Frames of War: When Is Life Grievable?** London: Verso.

Caillois, Roger. (1984). **Mimicry and Legendary Psychasthenia** (Shepley, John, Trans.). October, 31. Pp. 16– 32.

Das, Veena. (2007). **Life and Words: Violence and the Descent into the Ordinary**. University of California Press.

Durkheim, Émile. (1995). **The Elementary Forms of Religious Life** (E. Fields, Karen, Trans.). New York: Free Press.

Euro-Mediterranean Human Rights Monitor. (2024). 200 Days of Military Attack on Gaza: A Horrific Death Toll Amid Intl. Failure to Stop Israel's Genocide of Palestinians. **Euro-Mediterranean Human Rights Monitor.**
https://euromedmonitor.org/en/article/6282

Felman, Shoshana; & Laub, Dori. (1992). **Testimony: Crises of Witnessing in Literature, Psychoanalysis, and History**. Routledge.

Furani, Khaled. (2013). Dangerous Weddings: Palestinian Poetry Festivals During Israel's First Military Rule. **The Arab Studies Journal,** 21 (1). Pp. 79– 100.

Girard, René. (1977). **Violence and the Sacred** (Gregory, Patrick, Trans.) Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Gramsci, Antonio. (1971). **Selections from the Prison Notebooks**. (Hoare, Quintinp; & Nowell Smith, Geoffrey, Eds. & Trans.). New York: International Publishers.

Guest, Greg; MacQueen, Kathleen M.; & Namey, Emily E. (2011). **Applied Thematic Analysis**. Thousand Oaks, CA: Sage.

Haaretz Service & The Associated Press. (2009, January 2). IDF Phones Gaza Residents to Warn Them of Imminent Strikes. **Haaretz**.

https://www.haaretz.com/2009-01-02/ty-article/idf-phones-gaza-residents-to-warn-them-of-imminent-strikes/0000017f-df16-db5a-a57f-df7e6d3f0000

Hirsch, Marianne. (2012). **The Generation of Postmemory: Writing and Visual Culture After the Holocaust**. Columbia University Press.

Human Rights Watch. (2024, February 26). Israel Not Complying with World Court Order in Genocide Case. **Human Rights Watch.**

https://www.hrw.org/news/2024/02/26/israel-not-complying-world-court-order-genocide-case

International Court of Justice. (2024, January 26). Order Respecting South Africa's Request for Provisional Measures. **International Court of Justice.** https//:www.icj-cij.org/node203447/

Kleinman, Arthur. (1988). **The Illness Narratives: Suffering, Healing, and the Human Condition**. New York: Basic Books.

Kleinman, Arthur; Das, Veena; & Lock, Margaret (Eds.). (1997). **Social Suffering**. Berkeley: University of California Press.

Kübler-Ross, Elisabeth. (1969). **On Death and Dying**. New York: Macmillan.

LaCapra, Dominick. (2001). **Writing History, Writing Trauma**. Johns Hopkins University Press.

Laqueur, Thomas W. (2015). **The Work of the Dead: A Cultural History of Mortal Remains**. Princeton: Princeton University Press.

Long, Thomas G. (2009). **Accompany Them with Singing: The Christian Funeral**. Louisville, KY: Westminster John Knox Press.

Makhoul, Manar. (2022). Dispossession and Discontinuity: The Impact of the 1967 War on Palestinian Thought. **Critical Inquiry,** 48 (3). Pp. 549– 569.

Merriam-Webster. (1971). **Webster's Third New International Dictionary of the English Language Unabridged**. Springfield, MA: G. & C. Merriam.

Neimeyer, Robert A.; Prigerson, Holly G.; & Davies, Betty. (2006). Continuing Bonds and Reconstructing Meaning: Mitigating Complications in Bereavement. **Death Studies,** 30 (8). Pp. 715– 738.

Office of the High Commissioner for Human Rights. (2024, April 15). Gaza: UN experts deplore use of purported AI to commit 'domicide' in Gaza, call for reparative approach to rebuilding. **Office of the High Commissioner for Human Rights.**

https://www.ohchr.org/en/press-releases/2024/04/gaza-un-experts-deplore-use-purported-ai-commit-domicide-gaza-call

Office of the High Commissioner for Human Rights. (2024, April 18). UN Experts Deeply Concerned Over 'Scholasticide' in Gaza. **Office of the High Commissioner for Human Rights.**

https://www.ohchr.org/en/press-releases/2024/04/un-experts-deeply-concerned-over-scholasticide-gaza

Prusher, Ilene. (2015, June 23). UN Report Finds: Israel's 'Roof-knock' Warning No Way to Prevent Civilian Casualties. **Haaretz**.

https://www.haaretz.com/2015-06-23/ty-article/.premium/israels-roof-knock-warning-no-way-to-safeguard-civilians/0000017f-f0b8-df98-a5ff-f3bda8fb0000

Riordan, Daniel V. (2021). The Scapegoat Mechanism in Human Evolution: An Analysis of René Girard's Hypothesis. **Biological Theory,** 16. Pp. 242– 256. https://doi.org/10.1007/s13752-021-00381-y

Scarry, Elaine. (1985). **The Body in Pain: The Making and Unmaking of the World**. New York: Oxford University Press.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2015). **Security Theology, Surveillance and the Politics of Fear**. Cambridge: Cambridge University Press.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2019). **Incarcerated Childhood and the Politics of Unchilding**. Cambridge: Cambridge University Press.

Schimmel, Noam. (2020). On the Loneliness and Dissonance of Being a Survivor of the Rwandan Genocide. **Journal of Victimology and Victim Justice,** 3 (2). Pp. 262– 273.

Schimmel, Noam. (2021). A Postcolonial Reflection on the Rwandan Genocide. **Journal of Victimology and Victim Justice,** 4 (2). Pp. 179– 196.

Smith, Linda Tuhiwai. (1999). **Decolonizing Methodologies: Research and Indigenous Peoples**. London: Zed Books.

Sontag, Susan. (2004). **Regarding the Pain of Others**. New York: Penguin Books.

Spivak, Gayatri Chakravorty. (1988). "Can the Subaltern Speak?". In: Nelson, Cary & Grossberg, Lawrence (Eds.). **Marxism and the Interpretation of Culture**. Urbana: University of Illinois Press. Pp. 271– 313.

The Guardian. (2024, April 23). UN Rights Chief 'Horrified' by Reports of Mass Graves at Two Gaza Hospitals. **The Guardian.**

https://www.theguardian.com/world/2024/apr/23/un-rights-chief-horrified-by-reports-of-mass-graves-at-two-gaza-hospitals

Tyrrell, Patrick, et al. (2023, February 26). Kübler-Ross Stages of Dying and Subsequent Models of Grief. **National Library of Medicine**.

https://www.ncbi.nlm.nih.gov/books/NBK507885/.

United Nations. (1948, December 9). Convention on the Prevention and Punishment of the Crime of Genocide. **United Nations**.

https://www.un.org/en/genocideprevention/documents/atrocity-crimes/Doc.1_Convention%20on%20the%20Prevention%20and%20Punishment%20of%20the%20Crime%20of%20Genocide.pdf

Wagner, Sarah. (2008). **To Know Where He Lies: DNA Technology and the Search for Srebrenica's Missing**. Berkeley: University of California Press.

أصوات مكتومة وفضاءات معسكرة: الأطباء الفلسطينيون في المستشفيات الإسرائيليّة بعد السابع من أكتوبر

غادة مجادلة

خلاصة

تكثّفت على نحوٍ بالغٍ، منذ السابع من أكتوبر 2023، عمليّاتُ ترهيبٍ ومراقَبةِ الفلسطينيّين العاملين في المجال الطبّيّ (أطباء لحقوق الإنسان- إسرائيل، 2023)، والذين يشكّلون 21% من القوى العاملة في مجال الرعاية الصحّيّة في إسرائيل (وزارة الصحة، 2022). فقد جرى تجريم أطبّاء فلسطينيّين، وغيرهم من مقدّمي الرعاية الصحّيّة العاملين في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، لمجرّد تعبيرهم عن تعاطفهم مع الضحايا المدنيّين في غزّة بسبب انتقادهم ممارسات إسرائيل وانتهاكاتها لحقوق الإنسان في القِطاع. وقد أعيدت صياغة مثل هذه التعبيرات عن التعاطف والمعارَضة باعتبارها أعمالًا تستوجب المعاقَبة، وذلك كجزء من جهد أوسع لقمع أصوات هؤلاء والحدّ من قدرتهم على التعبير السياسيّ. تتناول هذه الورقة تجارب أطبّاء وطبيبات فلسطينيّين وفلسطينيّات يعملون في النظام الصحّيّ الإسرائيليّ في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر، وتركّز على كيفيّة تعاملهم مع تصاعد أجواء العسكرة. ومن خلال تأطير تجاربهم في السياق الأوسع لدمجهم في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، تسلّط الورقة الضوء على الطرق التي بها فَرَض هذا النظام عليهم الصمت والقمع، فضلًا عن ردّة فعله إزاء العنف المتصاعد منذ السابع من أكتوبر.

---

* أتقدم بالشكر لكل من الدكتور غاي شاليف والدكتور أسامة طنوس على ملاحظاتهما القيمة.

تقديم

كُتبت هذه الورقة البحثيّة في ضوء حوادث ملاحَقة الأطبّاء الفلسطينيّين وغيرهم من مقدِّمي الرعاية الصحّيّة أثناء الحرب على غزّة، وهي حوادث تكشف عن زيادة مقلقة في قمع وإسكات الأصوات الفلسطينيّة داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ. وقد تواترت تقارير عديدة عن طرد فلسطينيّين من أماكن عملهم في إسرائيل بسبب التعبير عن تضامنهم مع ضحايا غزّة، وذلك من خلال اعتباره "دعمًا للإرهاب"، وهو ما يمكّن من استخدامه ذريعة للفصل عن العمل. وتشتمل الحالات الموثَّقة على حالات من الطرد، والإجراءات التأديبيّة، بل كذلك استجواب الشرطة لمتخصّصين فلسطينيّين في مجال الرعاية الصحّيّة متّهَمين بتأييد الإرهاب والتحريض على العنف (زعبي، 2023).

ونظرًا للحاجة الملحّة إلى رصدِ هذا الوضع غير المسبوق ودراستِه ومَفْهَمَتِهِ، تفحص الورقة ديناميكيّات السيطرة والملاحَقة المتزايدة، وتقدّم تبصُّرات نقديّة في ما يخصّ إسقاطاتها الأكثر اتّساعًا.

وتشكّل قضيّة الدكتور عبد سمارة (Efrati, 2023)، رئيس وحدة العناية المركّزة للقلب في مستشفى هشارون في پـيتَح تِكْـڤـا، مثالًا على ذلك. فقد أُوقِفَ سمارة عن عمله بعد أيّام قليلة من السابع من أكتوبر، دون إجراء أيّ تحقيق بشأن الادّعاءات التي اتّهمته بنشر محتوى على موقع فيسبوك يعبّر فيه عن دعمه للإرهاب. وبالإضافة إلى إيقافه عن العمل، قدّمت إدارة المستشفى شكوى ضدّه لدى الشرطة. وبعد شهر ونصف الشهر، تَبَيَّنَ عدم صحّة الاتّهامات؛ ولكن على الرغم من تبرئته، قرّر الدكتور سمارة ترك وظيفته في المستشفى الذي عمل فيه مدّة خمسة عشر عامًا. وقد نُشِرت تقارير أخرى عن عدّة حالات مماثلة في مختلف أنحاء البلاد، تضمّنت تعليقَ عمل مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين، أو فصْلَهم من العمل بذريعة "التعبير عن آراء تدعم الإرهاب"- وكانت هذه في معظمها مجرَّد تعبير عن التعاطف مع المدنيّين الأبرياء في غزّة.

تتناول هذه الورقة تجارب تسعة من الأطبّاء الفلسطينيّين والطبيبات والفلسطينيّات، يعملون في المستشفيات وصناديق التأمين الصحّيّ الإسرائيليّة (كوبات حوليم) في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر وحرب الإبادة الجماعيّة التي تلتها على غزّة. وفي هذا السياق، تتناول الورقة ثلاث موضوعات رئيسيّة. أوّلًا، تؤطّر

الورقة سياق اندماجهم في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ على مدى العَقْدَيْن الماضيَيْن من خلال سياسات الإدماج والاحتواء التي نزعت الطابع السياسيّ عن أدوارهم المهنيّة وعن هُويّتهم. ثانيًا، تستكشف هذه الورقة الموجة الأخيرة من الترهيب والاضطهاد اللذَيْن يتعرّض لهما مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون، وذلك استنادًا إلى تسع مقابَلات معمَّقة أَجْرَتْها كاتبة هذه السطور مع أطبّاء فلسطينيّين يعملون في مختلف المستشفيات وصناديق التأمين الصحّيّ الإسرائيليّة. تمنحنا المقابَلات تبصُّرات حول كيفيّة تعامُل الأطبّاء الفلسطينيّين مع الترهيب والاضطهاد وتصاعُد أجواء العسكرة التي تسيطر في أروقة مَرافق الرعاية الصحّيّة في إسرائيل، واستجابتهم إزاءها. وبالإضافة إلى المقابَلات، تستند الدراسة إلى تحليل للنصوص ذات الصلة والتقارير الإخباريّة وحالات الملاحَقة الموثَّقة التي ورد ذكرها في وسائل الإعلام. ثالثًا، تبحث الدراسة في كيفيّة تأثير بيئة العسكرة المتزايدة على تشكيل تجاربهم اليوميّة، وذلك من خلال تحليل للكلفة الشخصيّة والمهنيّة التي جباها منهم هذا الـمُناخ العدائيّ. كذلك تسلّط الورقة الضوء على كيفيّة تعزيز هذه التطوُّرات لآليّات السيطرة والمراقَبة القائمة من قَبْل على الفلسطينيّين داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، مع تسليط الضوء على القضيّة الأوسع والمتمثّلة في اختراق السياسة الحكوميّة للمجال الطبّيّ، وخاصّة في السياقات التي تعمل فيها منظومة الرعاية الصحّيّة كموقع للسلطة السياسيّة. فضلًا عن هذا، تصفُ الورقة ديناميكيّات الذاتيّة والفاعليّة الفلسطينيّتين وأنماط الامتثال أو الخضوع، وتُحلّلُها.

في مستهَلّ هذه الورقة يُعْرَض إطار مفاهيميّ يؤطّر سياق واقع مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين العاملين في المستشفيات الإسرائيليّة وغيرها من مَرافق الرعاية الصحّيّة بعد السابع من أكتوبر. يتبع هذا الاستهلالَ قسمٌ يقدّم ويناقش ويلخّص النتائج الرئيسيّة التي تمخَّضَ عنها تحليل المقابَلات، ويمنحنا تبصُّرات تخصّ الإسقاطات الأوسع على مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين العاملين في القِطاع الصحّيّ في ظلّ ظروف القمع السياسيّ والعسكرة. ومن ثَمّ، تُختتَم هذه الورقة بقسم نخصّصه للاستنتاجات.

كُتِبت هذه الدراسة في وقت كان الجيش الإسرائيليّ يقوم خلاله باستهداف النظام الصحّيّ في غزّة على نحوٍ منهجيّ، وذلك من خلال الهجمات العسكريّة على الـمَرافق الصحّيّة والطواقم الطبّيّة والنازحين الذين يبحثون عن مأوى داخل

مستشفيات قِطاع غزّة. فمنذ بداية الحرب، قامت القوّات الإسرائيليّة على نحوٍ ممنهَج ومتعمّد بتفكيك البنْية التحتيّة للرعاية الصحّيّة في غزّة، وذلك من خلال قصف المستشفيات ومراكز الرعاية الصحّيّة، وقطع الكهرباء والإمدادات الطبّيّة، وإجبار المرضى والطواقم الصحّيّة على إخلائها تحت تهديد السلاح، وإطلاق النار على مقدِّمي الرعاية الصحّيّة في المستشفيات والمحتَمين بها أو متلقّي الرعاية فيها.[1]

الإطار المفاهيميّ

في المعتاد، تشكِّل القوى السياسيّة الراسخة البنى التحتيّة للرعاية الصحّيّة، وبخاصّة في السياقات الاستعماريّة، وهو المجال الذي استفاض الباحثون في استكشافه على مدى عديد العقود الماضية (Comaroff, 1993). لا يشكّل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ استثناءً في هذا الصدد، ويمكن فهم ديناميكيّاته الداخليّة بالنظر إلى السياسات الأوسع التي تنتهجها إسرائيل تجاه السكّان غير اليهود داخل الدولة.[2] ومن بين هؤلاء هنالك الفلسطينيّون، الذين في المعتاد تُعتبَر فاعليّتهم السياسيّة تهديدًا للأغلبيّة اليهوديّة. ففي السياق الفلسطينيّ، تعكس البنى التحتيّة المدنيّة، مثل نظام الرعاية الصحّيّة، سياسات دولة إسرائيل الأوسع تجاه الفلسطينيّين. وكما يؤكّد أسامة طنّوس وآخرون، يسهم كلّ من العنصريّة البنيويّة والاستعمار الاستيطانيّ في خلق التفاوتات الصحّيّة الممنهَجة تجاه المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل، وبخاصّة في ما يتعلّق بمنماليّة الرعاية الصحّيّة (Tanous, 2023). وفي العقود الأخيرة، قام العديد من الباحثين (ومن بينهم نادرة شلهوب-كيـڤـوركيان) بدراسة التقاطع بين الاستعمار الاستيطانيّ والرعاية الصحّيّة في السياق الفلسطينيّ، مركِّزين تركيزًا خاصًّا على كيفيّة قيام إسرائيل باستخدام منماليّة الفلسطينيّين للرعاية الصحّيّة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة سلاحًا (Majadle & Ziv, 2022)، (Shalhoub-Kevorkian, 2015)، وتكشف العديد من الحالات الموثَّقة عن تواطؤ نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ مع فرض

1. لمزيد من المعلومات عن هجمات إسرائيل على نظام الرعاية الصحّيّة في غزّة، يرجى الاطّلاع على الملحَق: "أطبّاء ومستشفيات تحت القصف: الإبادة الممنهَجة لجهاز الصحّة العامّة في غزّة خلال الحرب (2023- 2024)"، ص.ص. 243- 246.

2. انظروا -على سبيل المثال- قضيّة حُقَن منع الحَمْل ديـپـو پـروڤـيرا التي حُقِنت بها النساء الإثيوبيّات في إسرائيل دون علمهنّ أو موافقتهنّ، في (The Guardian, [n.d]).

هذه السياسات (Majadli & Tanous, 2022a)، (Majadli & Tanous, 2022b). وفي الحين الذي تطرّق فيه طنّوس بإيجاز إلى نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ باعتباره جزءًا من بنْية الاستعمار الاستيطانيّ الأساسيّة (Tanous, 2020)، يمنحنا هذا الإطار تبصُّرات أساسيّة أخرى في ما يخصّ التجارب التي يعايشها مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون في أعقاب السابع من أكتوبر وردود فعل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ على تصريحاتهم بشأنِ ما لحقه من حرب في غزّة. وكذلك يلقي الضوء على التحدّياتِ التي يواجهها هؤلاء الأطبّاء، والعسكرةِ المتزايدة للرعاية الصحّيّة في إسرائيل، وتأثيرِ ذلك على أدوارهم المهنيّة وهُويّاتهم السياسيّة. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن لهذه الدراسة تقديم تفسيرات تخصّ كيفيّة اندماج نظام الرعاية الصحّيّة في قلب بنى السلطة الأوسع، وكيفيّة تَماشيه مع السياسات العامّة للدولة تجاه مواطنيها الفلسطينيّين، وعلى وجه الخصوص عندما لا تتوافق هُويّاتهم السياسيّة "غير المنضبطة" مع توقُّعات الدولة من سلوكهم. سنقوم باستكشاف هذه الديناميكيّات بمزيد من التفصيل في الأقسام التالية.

قام العديد من الباحثين الفلسطينيّين بدراسة تطوُّرات السياسات الإسرائيليّة تجاه مواطني إسرائيل الفلسطينيّين على مدى العَقدَيْن الماضيَيْن، مسلّطين الضوء على كيفيّة ارتباط هذه السياسات ارتباطًا وثيقًا بالتحوُّلات السياسيّة الأوسع. فقد تكثّفت سياسات الاحتواء والاستيعاب في التسعينيّات، وتطوّرت على نحوٍ أكبر بعد انتفاضة تشرين الأوّل عام 2000 التي أحدثت تحوُّلًا محوريًّا في كيفيّة انخراط الفلسطينيّين في إسرائيل مع القضيّة الفلسطينيّة الأوسع. وردًّا على ذلك، سعت الدولة الإسرائيليّة إلى تقويض انخراطهم المتزايد من خلال اتّباع إستراتيجيّتَيْن متوازيتَيْن: الترهيب السياسيّ والاحتواء (عنبتاوي، 2024).

لقد خلقت هذه السياسات، التي رُوِّج لها على أنّها اندماج اقتصاديّ، بنْيةً من التبعيّة الاقتصاديّة للفلسطينيّين في إسرائيل ولكن دون منحهم اندماجًا سياسيًّا كاملًا (عنبتاوي، 2024). يؤكّد الباحثون في هذا الشأن على الدَّوْر الذي قامت به السياسات النيوليبراليّة منذ ثمانينيّات القرن العشرين في تحويل اقتصاد إسرائيل مستخدِمةً ذريعة التحديث.[3] يضمن الجمع بين الدمج الاقتصاديّ والسيطرة السياسيّة القدرةَ على السيطرة والضبط المدروس لأيّ تقدُّم قد يحرزه

3. انظروا: (Maron & Shalev, 2017).

المواطنون الفلسطينيّون بما يتماشى مع مَصالح الدولة. تُبرز هذه الإستراتيجيّة المزدوجة الهدف المزدوج القائم من وراء هذه السياسات: تعزيز الأهداف الاقتصاديّة القوميّة والاستجابة إلى طلب السوق على القوّة العاملة، مع ضمان الولاء السياسيّ وقمع المقاوَمة لدى العرب الفلسطينيّين في إسرائيل. ومن هنا، يتحقّق الدمج الاقتصاديّ على حساب القمع السياسيّ (Bloch, 2021).

لقد جرى تَبَنّي هذا النهج في خطّة خمسيّة (القرار الحكوميّ رقم 922: 2015-2020) (مكتب رئيس الوزراء، 2015)، وهي الخطّة التي سُوِّقت باعتبارها مبادرة من أجل "التنمية الاقتصاديّة للمجتمع العربيّ" في إسرائيل. وقد تبعت هذه خطّةٌ خمسيّة أخرى (القرار الحكوميّ رقم 550: 2021 - 2026) (مكتب رئيس الوزراء، 2021) حملت الاسم ذاته. صُمِّمت المبادَرتان ابتغاء عَصْرَنة الاقتصاد الإسرائيليّ، وذلك من خلال معالجة نقص القوّة العاملة وتحفيز النموّ الاقتصاديّ، بالإضافة إلى التحكُّم بإدارة السكّان الفلسطينيّين في الوقت نفسه، وعلى هذا الأساس كان لهما بُعْد سياسيّ واضح؛ فقد كان الهدف من المبادرتين تثبيت السيطرة على السكّان الفلسطينيّين من خلال تقييد قدرتهم السياسيّة، وضمان امتثالهم السياسيّ والحدّ من المقاومة.

وكما تؤكّد مجموعة من المؤسَّسات البحثيّة، يسلّط تنفيذ الخطّة الأخيرة، أو القرار 550 -وخاصّة بعد "هبّة الكرامة" في أيّار 2021- الضوءَ على التشابك الحاصل بين المبادَرات الاقتصاديّة والأهداف السياسيّة. فبحسب هذه المؤسَّسات، ثبّتت دولة إسرائيل، من خلال تنفيذها للقرار 550، مصلحتها القوميّة في تعزيز اندماج الشباب العربيّ في الاقتصاد الإسرائيليّ والقوى العاملة عامّة، ومن بين ذلك الوسط الأكاديميّ (The Myers-JDC-Brookdale Institute, 2017). وشدّدت مؤسَّسات أخرى على وجوب اشتمال استجابة الدولة لأحداث أيّار 2021 على خطّة حكوميّة ترمي إلى مكافَحة العنف والجريمة لدى السكّان العرب في إسرائيل، وأن تتضمّن كذلك برامجَ اقتصاديّةً واجتماعيّة متعدّدة السنوات في مجالات كمجالات التعليم والتوظيف. ووَفقًا لهذه المؤسَّسات، ستعمل مثل هذه السياسات على زيادة اندماج المواطنين العرب في المجتمع والسياسة الإسرائيليَّيْن وعلى تعزيز "أَسْرَلَتهم"، وذلك مع السماح لهم بالاحتفاظ بهُويّتهم بوصفهم عربًا (Institute for National Security Studies, 2021).

يجسّد الحضور المتزايد للعمّال العرب في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ هذه السياسات. فقد كانت سياسات الدولة الرامية إلى دمج السكّان المهمَّشين في هذا النظام مدفوعة بدوافع اقتصاديّة وسياسيّة. ويعكس العدد المتزايد من الأطبّاء والطبيبات والممرّضات والممرّضين الفلسطينيّين -الذي ارتفع من 9% في العام 2010 إلى 25% في العام 2022، وَفقًا لوزارة الصحّة الإسرائيليّة- إلى نجاح هذا النهج المزدوج (وزارة الصحة، 2022). على الرغم من دمج مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين في النظام الصحّيّ والاعتراف بإسهاماتهم، يظلّ إدراجهم هذا مشروطًا باحتوائهم سياسيًّا، وهو ما يتّضح على نحوٍ خاصّ من ملاحَقتهم وإسكاتهم بعد السابع من أكتوبر. ومن هنا يتّضح لنا أنّ هذا النظام يعمل كآليّة للسيطرة على القوى العاملة الفلسطينيّة؛ إذ هو يوفّر فرصًا اقتصاديّة في وقت يحدّ فيه من التعبير السياسيّ، وذلك كجزء من إستراتيجيّة الاحتواء التي تنتهجها الدولة على نطاق أوسع.

تقدّم لنا أحداث أيّار 2021 وأحداث تشرين الأوّل 2023 وتداعياتها أمثلةً واضحةً على كيفيّة تكشُّف هذه الديناميكيّات من خلال الممارَسة العمليّة. فخلال "هبّة الكرامة" في أيّار 2021، على سبيل المثال، أفاد مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون بتعرُّضهم للمضايَقات وللمراقَبة المؤسَّساتيّة بسبب تعبيرهم عن تضامنهم مع زملائهم الفلسطينيّين في غزّة والقدس الشرقيّة (أطباء لحقوق الإنسان، 2023). وفي ذات الوقت، قامت الأنظمة المدنيّة الحكوميّة باستخدام دمجهم في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ كأداة لقمع التوتُّرات ولقمع المعارضة (Shalev & Tanous, 2021). وكما يشير چـاي شاليـف (2018)، جرى تقديم ممارسات إسكات الأصوات هذه بوصفها جهودًا للحفاظ على الحياد الطبّيّ، مضيفًا أنّها تشير إلى آليّة أوسع يسيَّس من خلالها الحياد من أجل الضغط على مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين ابتغاءَ قمع هُويّاتهم السياسيّة (Shalev, 2018). ويقوم هذا التلاعب بمفهوم الحياد بدَوْره في إسكات التعبير عن التضامن والمعارَضة، ليرسّخ بالتالي سيطرة الدولة على الفلسطينيّين مقدِّمي الرعاية الصحّيّة.

كان المؤشّر الأوضح على فاعليّة هذه الممارَسات شُحّ مشارَكة الأطبّاء الفلسطينيّين في الإضراب العامّ الذي أُعلِن عنه في أيّار 2021 في جميع أنحاء فلسطين التاريخيّة؛ إذ تشير التقديرات إلى امتناع نحو 90% من مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين عن المشارَكة في الإضراب، وهو ما يسلّط الضوء على تأثير

التدابير المذكورة أعلاه على الحدّ من المشارَكة السياسيّة (Orr & Fleming, 2023). وقد تفاقَمَ هذا القمع، ورافقه بعض المقاوَمة المحدودة له، في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر.

منهج البحث

تستخدم هذه الدراسة مناهج بحث نوعيّة، من بينها المقابَلات المعمَّقة وتحليل الوثائق، وذلك بغية الاستئثار بالتجارب التي عايشها الأطبّاء الفلسطينيّون العاملون في الـمَرافق الصحّيّة الإسرائيليّة. علاوة على هذا، هي تؤطّر التحدّيات الشخصيّة والمهنيّة التي يواجهها هؤلاء في السياق الأوسع للاحتواء السياسيّ والمحو، وخاصّة خلال الأحداث السياسيّة الكبرى مثل الحرب التي بدأت في السابع من تشرين الأول 2023 وهبّة أيّار 2021. تسعى الدراسة إلى تسليط الضوء على آليّات القمع وعلى التجارب التي عايشها الفلسطينيّون مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الذين وقَعوا تحت تأثير هذه الآليّات. فضلًا عن ذلك، تحليل كلّ من الوثائق والموضوعات الواردة في المقابَلات شبه المنظَّمة يسهم في تأطير تجاربهم في سياق هذه الديناميكيّات. بالإضافة إلى هذا، تُعاين الدراسة المراسَلات التي وجّهها رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة إلى أعضائها وإلى الجمعيّات الصحّيّة والأكاديميّة الدوليّة، وتدمجها في القسم الذي يُعْنى بموضوعة عَسْكَرة نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ.

تجدر الإشارة إلى أنّ البحث قد أُجرِيَ أثناء الحرب، وذلك في جوّ من الترهيب والرقابة الذاتيّة، وهو ما جعل الأطبّاء الفلسطينيّين عرضة لمخاطر كبيرة نابعة من المراقَبة والإسكات. ولهذا السبب، كان من الصعب تجنيد مشاركين في الدراسة. جرى اختيار المشاركين التسعة على نحوٍ عشوائيّ. وقد منحني المشاركون موافَقتهم الطوعيّة بعد تلقّيهم شرحًا واضحًا لأهداف البحث وضمانًا بعدم الكشف عن هُويّاتهم. كذلك بذلتُ جهودًا لضمان التنوُّع بين المشاركين، بما يشمل الموقع الجغرافيّ والتراتُب الوظيفيّ، وهذا مكّنني من توفير تمثيل لتسعة مستشفيات وعيادات طبّيّة مختلفة.

ترمي نتائج البحث إلى تسليط الضوء على التجارب الفرديّة، وتوفير تبصُّرات، وتوليد مشاهَدات تمنحنا فهمًا أعمق للديناميكيّات القائمة داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ بعد السابع من أكتوبر، ولكيفيّة تعايش هؤلاء الأطبّاء الفلسطينيّين مع

هذه الديناميكيّات وطُرُق تعامُلهم معها. إجراء بحث أكثر شمولًا حول دَوْر نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ في السيطرة على مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين، من خلال فرض سياسات الدولة، من شأنه أن يمنحنا فَهْمًا أكثر اكتمالًا لهذه الديناميكيّات والآليّات، فضلًا عن تجارب وردود فعل مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين. في جميع الأحوال، قام المشاركون في هذه الدراسة، على الرغم من عددهم المحدود، بمشاركة تجارب شخصيّة كاشفة، وقدّموا تأمُّلاتهم التي تخصّ الجوّ العامّ السائد في أماكن عملهم، من خلال مشاركَتهم تبصُّرات قيّمة بشأن التحدّيات التي يواجهها مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون، وبشأن الطرق التي يسلكونها للتعامل مع هذه التحدّيات.

تستكشف الدراسة الأصوات والتصوُّرات والتجارب الشخصيّة والمهنيّة والتحدّيات التي يواجهها تسعة أطبّاء فلسطينيّين يعملون في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، وخاصّة في أعقاب التوتُّرات المتزايدة والملاحقة الموثَّقة التي سادت بعد السابع من أكتوبر. أضف إلى هذا أنّ الدراسة تقيّم الإجراءات التي اتّخذها نظام الرعاية الصحّيّة، من خلال وضعها في إطار مفاهيميّ أوسع. ومن خلال المقابلات وتحليل الموضوعات، ترمي الدراسة إلى كسب فَهْم بشأن ردّ فعل نظام الرعاية الصحّيّة في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر على وجه الخصوص، إضافة إلى أنّها تستكشف إسقاطات ذلك على أدوار ومناصب الأطبّاء الفلسطينيّين داخل هذا النظام.

أجريتُ مقابلات شبه منظَّمة مع تسعة من الأطبّاء الفلسطينيّين والطبيبات الفلسطينيّات، يعملون في مناطق جغرافيّة مختلفة، وعلى مستويات مختلفة من الأقدميّة المهنيّة. وقد جرى استخدام تحليل الموضوعات لتحديد الثيمات والقضايا الرئيسيّة التي أثيرت أثناء المقابَلات، وذلك من أجل الحصول على تبصُّرات تخصّ الإسقاطات الأوسع لِما عايشوه من تجارب.

ونظرًا لحسّاسيّة هذه الدراسة، كان ضمان عدم الكشف عن هُويّة المشارِكين أمرًا بالغ الأهمّيّة. لقد جرى التأكيد لجميع المشاركين أنّ هُويّتهم الحقيقيّة محميّة، وذلك من خلال استبدال أسمائهم الحقيقيّة بأسماء مستعارة وشطب أيّ معلومة قد تكشف عن هُويّتهم الحقيقيّة أثناء النسخ والتحليل. لكن على الرغم من ذلك، فرض هذا الالتزام بعدم الكشف عن هُويّة المشاركين تقييدًا أثّر على الدراسة؛ إذ كان من الضروريّ التخلّي عن جوانب معيَّنة من تجارب المشارِكين وأمثلة محدَّدة، وهو أمر من شأنه التقليل من عمق النتائج وانعكاساتها.

النتائج والمناقَشة

كشف تحليل المقابَلات التسع المعمَّقة عن أربعة أنواع مختلفة، لكن مترابطة، من التجارب التي سردها المشاركون، إذ ذكر كلّ منهم بعضًا منها أو جميعها، وهي: نزع الصفة الإنسانيّة، التي تتميّز بإنكار إنسانيّة الفلسطينيّين؛ العنصريّة والتمييز العنصريّ، المتجذّران داخل نظام الرعاية الصحّيّة؛ الترهيب والإسكات، المصمَّمان لقمع المعارضة؛ العسكرة، التي تعكس اصطفاف النظام الصحّيّ مع عنف الدولة والأيديولوجيّات العسكريّة.[4]

نزع الصفة الإنسانيّة

أشار المشاركون خلال المقابَلات على نحوٍ متكرّر إلى ما واجهوه من مواقف "نزع الإنسانيّة" والعنصريّة، ودمجوا هذه المفاهيم على نحوٍ صريح في سردهم. وكان استخدامهم لمفهوم "نزع الإنسانيّة" مرتبطًا بالآراء التي عبّر عنها زملاؤهم الإسرائيليّون حول سكّان غزّة، في حين قاموا باستخدام الكلمة "عنصريّة" بصورة أساسيّة لدى وصفهم للقاءاتهم الشخصيّة. وأفاد المشارِكون بأنّ نظراءهم الإسرائيليّين اليهود اعتبروا الناس في غزّة -بصرف النظر عمّا إذا كانوا مدنيّين أَمْ بالغين أَمْ أطفالًا- دون البشر ولا يستحقّون التعاطف أو الاعتبارات الأخلاقيّة (Smith, 2011). ومن الجدير بالذكر أنّ العديد من المشارِكين عَمَدوا كذلك إلى استخدام مصطلح "نزع الإنسانيّة" للتعبير عن شعورهم بكونهم هم أنفسهم مقيّدين من جهة قدرتهم على التعبير عن تضامنهم وتعاطفهم مع الضحايا في غزّة، وعن محدوديّة قدرتهم على التعبير عن الإنسانيّة والتضامن. وبدا جليًّا خلال المقابلات أنّ المشارِكين عايشوا التصريحات التعميميّة واللا_إنسانيّة التي جرى التفوُّه بها عن الفلسطينيّين في غزّة أمامهم كتصريحات مباشرة وشخصيّة، أي كما لو كانت هذه موجَّهةً إلى هؤلاء الأطبّاء أنفسهم.

تطرَّقَ العديد من الباحثين، ومن بينهم فرانز فانون (1952) وأشيل مبيمبي (2020) في نظريّته عن سياسة الإماتة، إلى مفهوم نزع الصفة الإنسانيّة في السياقات الاستعماريّة، وخاصّة عند تقاطع الطبّ والاستعمار. يؤكّد نزع الصفة الإنسانيّة عن الفلسطينيّين في غزّة من قِبل مقدّمي الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّين، إلى جانب

4. أُجرِيَت المقابلات في الفترة ما بين آب وتشرين الأوّل 2024.

التجريم العامّ للتعبير عن التعاطف معهم، على تحليل فرانز فانون للاستعمار باعتباره نظامًا ينزع الصفة الإنسانيّة عن المستعمَرين من خلال إنكار إنسانيّتهم، واختزالهم إلى مجرّد أشياء قابلة للسيطرة ومحوهم سياسيًّا من خلال تجريدهم من فاعليّتهم ومن حقوقهم (Fanon, 1967). نلقى صدى لمفهومِ أشيل مبيمبي لسياسة الإماتة، المفهومِ الذي تُمْلي بحسبه السلطة السياديّة مَن تَجوز له الحياة ومن يجدر به الموت (Mbembe, 2020)، عندما يعتبر مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّون الفلسطينيّين في غزّة أشخاصًا غير جديرين بالتعاطف، وعندما يجرّم نظام الرعاية الصحّيّة التعبير عن التعاطف معهم من قِبل الأطبّاء الفلسطينيّين.

ذكر "حسن" -وهو أحد الأطبّاء الذين أجريتُ معهم مقابلة- تصريحات نازعة لإنسانيّة سكّان غزّة كان قد أطلقها أحد زملائه اليهود الإسرائيليّين أثناء اجتماع طاقم العمل. كانت تلك تصريحات على غرار "لا يوجد مدنيّون في غزّة"؛ "فليدمّروا غزّة"- يطْلقها المتحدّث وهو ينظر مباشرة إلى حسن ويراقب ردود أفعاله. يقول حسن: "كانت لديّ غرفة في العيادة كنت أحبس نفْسي فيها أحيانًا، فأدمع وأبكي بمفردي، وخاصّة خلال الأشهر الأولى. كنت أحبس نفْسي وأبكي. كنت أشعر دائمًا بوجع في الجسم، ولم يكن الألم نفسيًّا فقط. كنت أحسّ أنّي أحمّل نفسي كأنّي فيل عندما كنت أذهب إلى الشغل. كنت أغلق الباب على نفسي...أعني أنّه كان هذا أسلوب التفريغ الذي وجدته".[5]

أمّا "قيس"، فذكر ما مرّ به من تجربة لنزع الإنسانيّة من قِبل نظام الرعاية الصحّيّة عندما مُنِعت عنه مساعدة الفلسطينيّين في غزّة، الذين يواجهون الإبادة الجماعيّة من وجهة نظره. فبالنسبة لقيس، يكمن الواجب الأساسيّ للطبيب في مساعدةِ مَن هم بحاجة إليه. وعلى الرغم من ذلك، لم يجد نفسه غيرَ قادر على الذهاب إلى غزّة لتقديم المساعَدة على نحوٍ مباشر، أو ممنوعًا من التوقيع على رسالة تُدِين الحرب وقتل المدنيّين فحسب، بل كذلك وجد نفسه ممنوعًا حتّى من مجرّد التعبير عن تعاطفه معهم. فقد جرى تصوير كلّ تعبير عن التعاطف أو أيّ انتقاد للحرب في إطار نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ بأنّه دعم للإرهاب، وهو ما جعل مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين مشلولين وغير قادرين على الإقدام على أيّ فعل، حتّى لو كان مجرَّد تعبير عن التعاطف مع الضحايا.

5. مقابلة شخصيّة مع حسن، (2024، 23 آب). (محفوظة لدى الباحثة).

وأكّد قيس أنّه، بناءً على تجربته الشخصيّة، يرى أنّ نزع الصفة الإنسانيّة يَحْدث عندما يُمْلي عليك شخصٌ آخَرُ مَن يحقّ لك التعاطف معه ومن ينبغي لك أن تقف إلى جانبه. وأضاف أنّه لم يُمنَع من مساعدة الغزّيّين فحسْب، بل إنّهم (أي الأطبّاء الفلسطينيّين) لم يتمكّنوا من نشْر رسالة أو بيان ردًّا على الحرب. في هذا قال قيس: "لا أعلم كيف ستنتهي الأمور من ناحية الأطبّاء، ولكنّنا سوف ندفع ثمن أفعالنا في نهاية المطاف، لأنّنا سوف نحاسَب على أفعالنا. وسوف يسألنا الناس: "ماذا فعلتم خلال ذلك الوقت"؟ سيتعيّن علينا أن نفسّر للعالم لماذا فعلنا ما فعلناه. علينا أن نفسّر ذلك للفلسطينيّين، وأن نفسّر لأبنائنا".[6]

وقد عبّر "وسيم" عن هذا الشعور ذاته قائلًا:

> تحسّ أنّ الحياة قد أُغلِقت عليك، وأنّ الخوف سيطر عليك وعلى وجه الخصوص في البداية... وأنّك بلا دَوْر فعّال في ظلّ حدوث شيء كبير كهذا، وإذا كانت هناك على الإطلاق لحظة ليرفع فيها المرء صوته، فهي الآن. يبدو الأمر كما لو كان خيانة لشعبك، وهذا موقف مظلم للغاية. وفي الآن نفسه، أنت كطبيب جزء من الجانب الآخر، وتساعد في إعداد نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ ليكون أكثر تحصينًا وحاضرًا لحالات الطوارئ... وهذا يجعلك تشعر بأنّك لا أخلاقيّ، وأنّك لا تملك أيّ معادلة يمكن أن تجعلك إنسانًا أخلاقيًّا.[7]

يعكس الشعورُ بالذنب أو الفشل، الناجمُ عن عدم القدرة على تقديم الدعم الفعّال للغزّيّين أو تحدّي الإجراءات القمعيّة التي تقوم بها إسرائيل (سواء أكان ذاك بمعارَضة الحرب بصوت مسموع، أَمْ بالمشارَكة في المظاهرات، أَمْ بممارسة الضغط من خلال الإضرابات، أَمْ بالتعبئة للعمل داخل نظام الرعاية الصحّيّة، أَمْ بتقديم المساعدة الطبّيّة على الأرض)، يعكس تجربة أوسع في أوساط الفلسطينيّين في إسرائيل. فقد كان بوسعهم خلال الحروب السابقة، على الأقلّ، المشارَكة في الاحتجاجات، وتنظيم إرسال المساعَدات الإنسانيّة، أو التبرُّع لجهود الإغاثة. ولكن منذ السابع من أكتوبر، قامت دولة إسرائيل بتجريم هذه الأفعال، ممّا جعل الفلسطينيّين في إسرائيل يراقبون من الطرف تَكَشُّفَ حرب

6. مقابلة شخصيّة مع قيس، (2024، 6 آب). (محفوظة لدى الباحثة).

7. مقابلة عبْر الزوم مع وسيم، (2024، 4 أيلول). (محفوظة لدى الباحثة).

الإبادة الجماعيّة على بعد كيلومترات قليلة من منازلهم، بينما هم عاجزون عن اتّخاذ أيّ إجراء ذي قيمة ردًّا على ذلك.

يصبح هذا الشعور بالذنب حادًّا لدى مقدِّمي الرعاية الصحّيّة على وجه الخصوص، وذلك لأنّ الغرض من عملهم تخفيف المعاناة الإنسانيّة. ويصبح الأمر أكثر إيلامًا عندما يكون المحتاجون هم من أبناء شعبهم، وفي وقت يجدون فيه أنفسهم عاجزين عن مساعدتهم. وعلاوة على ذلك، لا يتفاقم شعورهم بالذنب بسبب شعورهم بالعجز فحسب، بل كذلك بسبب سؤال لا يفتأ يطرح نفسه على الكثير من الفلسطينيّين في إسرائيل: هل استسلموا للخوف وتخلَّوْا عن غزّة، في حين كان بوسعهم بذل المزيد من الجهد لمقاومة الترهيب الذي شيّده بعناية كلٌّ من الدولة والبنْية التحتيّة المدنيّة والمجتمع الأوسع؟

في ما يخصّ الأطبّاء الفلسطينيّين، يتعمّق لديهم الشعور بالذنْب بسبب دَوْرهم المهنيّ. وكما ذكر "وسيم"، هم يجدون أنفسهم يعملون على تعزيز نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ وعلى زيادة استعداده للطوارئ، في حين يَلْقَوْن أنفسهم يحافظون فيه على صمتهم وعاجزين عن مساعدة الغزّيّين. هذا التناقض يجعل شعورهم بالصراع الداخليّ يتفاقم، إذ يتعارض دَوْرهم كمعالجين مع عدم قدرتهم على تقديم هذه الرعاية لشعبهم الذي يحتاجها.

وبحسب سامر، عَمَدَ زملاؤه اليهود الإسرائيليّون إلى الانخراط في نزع الإنسانيّة عن الفلسطينيّين في غزّة على نحوٍ يوميّ. وقد بلغ هذا السلوك ذروته عندما تَشارَكوا صورًا من خدمتهم العسكريّة في غزّة خلال اجتماع للطاقم الطبّيّ حضره أعضاء فلسطينيّون. روى سامر قائلًا: "على سبيل المثال، الطريقة التي يصفون بها الناس في غزّة... حتّى الأطفال... قائلين إنّه ليس هناك أشخاص أبرياء. فكلّ شخص إمّا متورّط في الإرهاب، وإمّا يُشار إليه بلقب فأر أو جُرذ أو ما يشابه ذلك من الأسماء".[8] واختتم سامر كلامه بقوله: "في الوقت الحاضر، المطلوب من المرء، كي يواصل عمله في المستشفى، أن يصبح لا-إنسانيًّا؛ فهو ممنوع من التعبير عن التعاطف مع أيّ شخص يموت على الجانب الآخر- وإنْ كان طفلًا".[9]

8. مقابلة شخصيّة مع سامر، (2024، 10 آب). (محفوظة لدى الباحثة).

9. المرجع السابق.

بالنسبة لسامر، يرتبط نزع الإنسانيّة الذي اختبره شخصيًّا داخل نظام الرعاية الصحّيّة بعد السابع من أكتوبر بانهيار مجموعة القِيَم التي تمنح عمل الطبيب معناه بأكملها، ومن ضمن ذلك إيمانُه بمبدأ الإنسانيّة، والتعاطفُ مع الشخص الذي يموت بصرف النظر عن أصله، والمسؤوليّةُ عن تقديم العلاج لكلّ شخص بصرف النظر عن هُويّته. لقد أحسّ وكأنّ هذا الإطار الأخلاقيّ بأكمله قد جرى هدمه عندما وقّع الأطبّاء الإسرائيليّون، على سبيل المثال، على بيان يؤيّد قصف المستشفَيات في غزّة (Middle East (Eye, 2023، وعندما مُنِع من التعبير عن تعاطفه مع أولئك الذين يموتون في غزّة. ففي ظلّ هذه الظروف، كان استمراره في عمله يعني التخلّي عن إنسانيّته.

وبحسب كلام "لبنى"، أصبح تآكل الأخلاق في المجتمع واضحًا داخل النظام الصحّيّ الإسرائيليّ منذ السابع من أكتوبر. في هذا تقول:

> كانت هناك ممرّضة دخلتْ في مواجَهة مع أحد زملائي [فلسطينيّ] في بداية الحرب... قالت له: "واو، لقد قتلنا حتّى الآن 6,000 مخرّب". فنظر إليها وقال: "لكنّنا نتحدّث عن كون أكثر من نصفهم من النساء والأطفال... هؤلاء ليسوا مخرّبين". فقدّمت شكوى ضدّه. مجرّد التشكيك في هذه الرواية... الحديث عن النساء والأطفال... لا مكان لذلك على الإطلاق خلال كلّ هذه الفترة.[10]

وذكر حسن، خلال المقابلة التي أجريتها معه، عدّة وقائع تشير إلى افتقار مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّين التامّ إلى الحصافة، فقد استخدم هؤلاء تعابير نازعة للإنسانيّة ضدّ الفلسطينيّين بدون أيّة كوابح. وبفعلهم ذلك، أظهروا تجاهلًا تامًّا لزملائهم الفلسطينيّين وللتأثير المحتمَل لكلماتهم وأفعالهم عليهم. والأهمّ من ذلك أنّهم أظهروا تجاهلًا صارخًا للقِيَم الأساسيّة لمهنة الطبّ. يوضّح حسن ذلك بقوله:

> في الأيّام الأولى [من الحرب]، أو حتّى بعد شهر... قالت الاختصاصيّة: "ليقضوا على غزة"! ثمّ نظرتْ إليّ... كان معتقَد معظم الحاضرين أنّه ليس هنالك مدنيّون في غزّة... إذّاك قالت المديرة الإداريّة نفسها إنّ أهل غزّة

10. مقابلة عبْر الزوم مع لبنى، (2024، 7 آب). (محفوظة لدى الباحثة).

> يأتون بالدمى ويضعون عليها الكاتشب... ثمّ توجّهت إليّ بالسؤال: "حسن، ما اسم تلك الدمى التي يضعون عليها الكاتشب؟[11]

ثمّ يضيف حسن قائلًا:

> لقد تفاجأت في اليوم الذي قُصِفَ فيه مستشفى المعمدانيّ. وخلال إحدى الجلسات، قالت إحدى الطبيبات إنّ قصف المستشفى كان أفضل شيء لأنّه لم يَعُدْ بالإمكان اعتبار هذا المكان مستشفى. فحتّى المبادئ الطبّيّة التي تعلّمناها انمحت؛ أي إنّه على المرء أن يمحو حتّى تفكيره في الإنسانيّة لكي يتأقلم... أيْ كلّ شيء... أيْ حتّى الطبيب لا يحسّ... الأمر مهين إلى هذه الدرجة... شعور المرء بأنّه غير موجود... ممحوّ تمامًا.[12]

يتوافق تصوُّر حياة الفلسطينيّين كما لو كانت لا تستحقّ أيّة قيمة، أو كون معاناتهم لا تستحقّ التعاطف، مع مفهوم سياسة الإماتة المذكور أعلاه. وقد أعطى وزير الدفاع، يوآڤ چـالانت، وقتذاك مثالًا صارخًا على ذلك إذ فور وقوع هجوم السابع من أكتوبر اعتبر الفلسطينيّين "حيوانات بشريّة" (Middle East Eye, 2023a). ما اكتسب هذا الخطاب النازع للإنسانيّة زَخْمًا داخل المجتمع الإسرائيليّ، بما في ذلك -كما تشير المقابلات- داخل نظام الرعاية الصحّيّة؛ إذ يشير تصوير سكّان غزّة جميعهم كأهداف عسكريّة مشروعة، وإنكار براءتهم، بل حتّى التصفيق لإبادتهم، إلى عمليّة عميقة من نزع الإنسانيّة. وما يجعل الأمر أكثر إقلاقًا هو طغيان هذه العقليّة في أماكن مثل المستشفيات التي جرى تخصيصها للرعاية والشفاء، وهو ما يضخّم الأزمة الأخلاقيّة التي يعايشها الفلسطينيّون هناك، أطبّاء كانوا أَمْ غير ذلك.

العنصريّة والتمييز العنصريّ

تعشّش العنصريّة منذ فترة طويلة داخل الإطار القانونيّ والمؤسَّساتيّ لنظام الرعاية الصحّيّة في إسرائيل. ولكن منذ السابع من أكتوبر، يجد الفلسطينيّون صعوبة متزايدة في تحدّيها ومقاومتها، وهو ما يزيد شعورهم بالعجز والاغتراب

11. مقابلة مع حسن. مرجع رقم 5.

12. المرجع السابق.

والعزلة. وتبعًا لذلك، تفاقمت معايشة العنصريّة الآن أكثر بسبب فقدان الوسائل المحدودة التي كانت متوافرة لديهم من قَبل لمعارضتها.

أشار المشاركون في المقابَلات إلى أنّ مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّين يمتنعون عمومًا عن الإدلاء بتصريحات عنصريّة علنيّة تجاههم، نظرًا لوجود قواعد واضحة تمنع مثل هذا السلوك لتجنُّب المشاكل داخل طاقم المستشفى؛ وذلك كما أوضح قيس. وعلى نحوٍ مماثل، أشار "سامح"[13] إلى أنّ نظام الرعاية الصحّيّة لا يسمح بأن تصبح العنصريّة مكشوفة، بسبب سعي إسرائيل إلى تقديم نفسها على أنّها دولة ديمقراطيّة قائمة على المساواة باعتبارها مبدأ أساسيًّا. يعتقد المشارِكون أنّ هذا هو السبب الوحيد الذي يَحُول دون أن تصبح العنصريّة جليّة أكثر، فإذا ما حصل ذلك فإنّه من شأنها أن تتحوّل إلى شأن طبيعيّ بسرعة. ولكن على الرغم من هذا التقييد، وصف المشاركون على نحوٍ متوافق تعرُّضهم لتعبيرات عنصريّة وأخرى نازعة للإنسانيّة موجَّهة ضدّ الفلسطينيّين في غزّة وفي الضفّة الغربيّة، معتبرين إيّاها مسألة شخصيّة للغاية لكونهم يعتبرون أنفسهم فلسطينيّين كذلك.

حسبما يقول شاليـف، يعمل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ في إطار القوميّة الصهيونيّة الإقصائيّة التي تمحو على نحوٍ منهجيٍّ الهُويّةَ السياسيّة الفلسطينيّة. ويتجلّى هذا المحو في الطريقة التي يُتعامل من خلالها مع الأطبّاء الفلسطينيّين في المستشفيات الإسرائيليّة، حيث يجري تجاهُل ذاتيّتهم السياسيّة أو إعادة صياغتها تحت تسميات نحو: "العرب الإسرائيليّين"؛ "الوسط العربيّ" (Shalev, 2022). ويتجلّى هذا التهميش السياسيّ في صرف النظر عن التصريحات العنصريّة بحقّ الفلسطينيّين في غزّة أو الضفّة الغربيّة باعتبارها لا تمتّ بِصِلة إلى الأطبّاء "العرب الإسرائيليّين". ويشكّل هذا الموقف جزءًا من القمع الأوسع للهُويّة الفلسطينيّة داخل المؤسَّسات الإسرائيليّة، بما في ذلك قِطاع الرعاية الصحّيّة، حيث يُتوقّع من الفلسطينيّين كتم هُويّتهم الوطنيّة. في هذا يكتب شاليـف قائلًا إنّ هذه الآليّات لا تهمّش الهُويّة السياسيّة الفلسطينيّة فحسب، بل إنّها تعمل كذلك على مواءَمة نظام الرعاية الصحّيّة مع الهدف الصهيونيّ للدولة المتمثّل في الحفاظ على الهيمنة الإثنيّة- القوميّة اليهوديّة (Shalev, 2022).

13. مقابلة عبْر الزوم مع سامح، (2024، 26 آب). (محفوظة لدى الباحثة).

وحتّى قبل السابع من أكتوبر، عَمَدَ بعض الأطبّاء الفلسطينيّين إلى التغاضي عن الاحتكاكات العنصريّة، فيما هم مقيَّدون بأخلاقيّات الحياد الطبّيّ والرواية الإسرائيليّة المهَيْمِنة والتي تصوّر نظام الرعاية الصحّيّة نظامًا غير سياسيّ ونموذجًا للتعايش. وبالفعل، في الغالب يُعتبَر هذا النظام مثالًا يجب أن تحتذي به سائر القِطاعات الأخرى (Linder, 2017)، وهو ما يعبّر بدَوْره عن العمليّتَيْن التوأمَيْن المتمثّلَتَيْن في الاحتواء والاستبعاد داخل نظام الرعاية الصحّيّة. منذ السابع من أكتوبر، أصبح التعبير عن الانزعاج أو الإحساس بالإساءة ردًّا على التعليقات العنصريّة أو النازعة للإنسانيّة التي يُتفوَّه بها تجاه الغزّيّين، وذلك كما تبيِّنُ لنا المقابلات وحالات الفصل عن العمل المذكورة آنفًا، أصبح يُفسَّر في كثير من الأحيان على أنّه "انحياز إلى غزّة"، وهو ما يعادل بدَوْره دعم حماس وبالتالي دعم الإرهاب. والأهمّ من ذلك، يخاطر بنفسه كلُّ مَن يتفوّه بمثل هذه التعابير إذ يعتبره زملاؤه اليهود الإسرائيليّون "ضدّنا"، أي ضدّ الأغلبيّة اليهوديّة، وهو ما قد يصبح أرضيّة تؤدّي إلى ملاحَقته، بل قد يَبلغ الأمر حدّ فصله، على نحوِ ما جرى إخطار مقدِّمي الرعاية الصحّيّة به بوضوح منذ الأيّام الأولى لاندلاع لحرب. في هذا يقول وسيم: "لقد أخبرونا على نحوٍ مباشر... من ينتقد الجيش، ومن ينتقد الدولة، ومن يَقُلْ إنّ هذه جرائم حرب، فمكانه ليس هنا".[14]

أفاد سبعة من الأطبّاء الفلسطينيّين التسعة الذين قابلتهم أنّهم واجهوا العنصريّة طيلة فترة تعلُّمهم وتدرُّبهم وحياتهم المهنيّة. ولا تتجلّى هذه العنصريّة في التمييز الصريح فحسب، بل كذلك في قمع هُويّتهم السياسيّة والقيود التي تُفرَض على نشاطهم السياسيّ، في الحرم الجامعيّ أو في مَرافق العمل الطبّيّة. على سبيل المثال، طُرِد أحد الأشخاص ممّن قابلتهم قبل السابع من أكتوبر من عمله، وذلك بسبب مشاركته في مظاهرة ضدّ حرب عام 2018 على غزّة ورفضه الاعتذار عن ذلك. وروى آخَر أنّه شهد طاقمًا طبّيًّا إسرائيليًّا يُدْلي بتصريحات عنصريّة حول المعتقَلين الفلسطينيّين من غزّة والضفّة الغربيّة، ووصف تلك الواقعة باعتبارها حدثًا عنصريًّا. في هذا الشأن تقول لُبنى: "العنصريّة متجذّرة بعمق في النظام الصحّيّ... وغالبًا ما يجد المرء نفسه يواجه معضلات حول ما يجب عليه أن يتصرّف لأنّه أمر نعاينه ونعايشه كلّ يوم، ويصبح روتينيًّا... كنت خائفة من حدوث ذلك... ولا أريد أن يَحْدث، لأنّ تذويت

14. مقابلة مع وسيم. مرجع رقم 7.

العنصريّة وجعْلها جزءًا يوميًّا وعاديًّا من الحياة هو تمامًا كما يَحْدث الآن".[15]

وعبّر سامر وقيس عن مشاعر مماثلة بشأن تذويت وتطبيع العنصريّة واعتبارها أمرًا عاديًّا في صفوف المهنيّين الطبّيّين الفلسطينيّين. يقول سامر: "يبدو الأمر وكأنّه هناك تطبيع للتعليقات العنصريّة إلى حدّ يجعل المرء يتوقّف أحيانًا عن الشعور بأنّ تلك تعليقات عنصريّة. يأخذ بالإحساس أنّها شيء طبيعيّ".[16] وأشار قيس إلى التعليقات التي باتت تتكرّر عندما روى عن التجارب التي مرّ بها في الأيّام الأولى التي تلت السابع من أكتوبر: "كانت هناك أشياء كثيرة. على سبيل المثال، أن يقول شخص على مسمع منك إنّ هؤلاء العرب إرهابيّون، جميعهم إرهابيّون... فليُقتَلوا جميعهم".[17] وذكر قيس المحتوى الذي ينشره زملاؤه على حساباتهم الشخصيّة على مواقع التواصل الاجتماعيّ عن الفلسطينيّين والعرب. بحسب رأيه، لن يَذْكر أحدٌ هذه الآراء أمامه أو أمام غيره من الأطبّاء الفلسطينيّين على نحوٍ علنيّ، لأنّ من شأن ذلك أن يضرّ بالعلاقات داخل طاقم العمل. ومع ذلك، تمنحنا مثل هذه المنشورات فكرة عن معتقداتهم وعن مواقفهم الشخصيّة. يقول قيس:

> عندما أدخل دون أن يلاحظني أحد، أنزعج حين أسمعهم يقولون أشياء على غرار "العرب هنا إرهابيّون أكثر من أولئك الذين في غزّة"... ولكنّني أتعلّم أن أسكت على مضض إزاء ذلك، ودونما صعوبة. برأيي، طوّر الأطبّاء الفلسطينيّون في الداخل درجة معيَّنة من التأقلم. هذه ليست لامبالاة، بل هي تأقلم. وهذه قدرة عقليّة، وأعتقد أنّها قوّة جيّدة.[18]

موضوعة تكيُّف الأطبّاء الفلسطينيّين مع نزع الإنسانيّة عن الفلسطينيّين -التي تتمدّد في أحيان كثيرة لتطول الأطبّاءَ أنفسهم من خلال العنصريّة أو المحو السياسيّ- تَلزمها دراسةٌ أكثر تعمُّقًا. يُثْبِت تطبيعُ التصريحات العنصريّة، وإلى جانبه الشعور الطاغي بالعجز عن تحدّيها أو مقاومتها، مدى فاعليّة نظام الرعاية الصحّيّة في "ترويض" الأطبّاء الفلسطينيّين. ويعمل هذا النظام في إطار

15. مقابلة مع لبنى. مرجع رقم 10.

16. مقابلة مع سامر. مرجع رقم 8.

17. مقابلة مع قيس. مرجع رقم 7.

18. المرجع السابق.

الهيمنة اليهوديّة، وهي السرديّة التي تَستبعد من الإدماج الكامل حتّى أولئك الفلسطينيّين الذين ينأَوْن بأنفسهم عن الهُويّة الفلسطينيّة ويطلقون على أنفسهم التسمية "العرب الإسرائيليّين".

الترهيب والإسكات

ذكر سبعة أشخاص من أصل تسعة ممّن قابلتهم روايات مفصَّلة عمّا عايشوه من الترهيب والإسكات القسريّ. وقد أتى جميعهم على ذكر حالات جرى فيها طرد فلسطينيّين من مقدِّمي الرعاية الصحّيّة من وظائفهم بسبب نشاطهم على وسائل التواصل الاجتماعيّ، وذكروا كذلك ما تلاها من عواقب شخصيّة عانَوْا منها. بالإضافة إلى ذلك، تبيَّنَ أنّ الإسكات القسريّ يتسبّب في ضائقة عاطفيّة عميقة، بما في ذلك مشاعر القمع والإذلال والمحو. في هذا الشأن قال قيس:

> إنّ ما حدث في المستشفى بعد أيّام من السابع من أكتوبر جعل الجميع يلتزمون الصمت... فإمّا أن تكون على هذا الجانب أو على ذاك الآخَر... لقد عقدوا جلسة استماع قبل الطرد إذا نشر أحدٌ أيَّ شيء أو حتّى عبّر عن تعاطفه مع أطفال غزّة... وفي الوقت نفسه، ظلّ الطرف الآخر حرًّا ينشر ما يحلو له على الفيسبوك.[19]

لقد قدّمتْ شهادة لبنى وصفًا شاملًا لردّ الفعل المتطرّف لنظام الرعاية الصحّيّة على أحداث السابع من أكتوبر، وعلى جميع الآراء المعارِضة للإجراءات العسكريّة الإسرائيليّة في غزّة، حتّى عند مقارنته بفترات سابقة من التوتُّر السياسيّ:

> سادت منذ السابع من أكتوبر أجواء من الترهيب والخوف كانت أشدّ حدّة من أيّ وقت مضى. مقارَنةً بموجات التصعيد والهجمات السابقة على غزّة التي شهدتها من قبل، بدت هذه المرّة مختلفة. إنّها الأسوأ. فمنذ السابع من أكتوبر حتّى الآن، أصبح الإسكات والقمع عميقَيْن إلى حدّ الوريد. فالملاحَقة والعنصريّة دخلتا إلى حدّ الوريد. بالنسبة للكلّ. إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها مثل هذا الأمر، حتّى من طرف الزملاء والأصدقاء. وللمرّة الأولى، لا أجرؤ حتّى على التحدُّث... في البداية، أرسلت الإدارة

19. المرجع السابق.

رسائل تفيد أنّه بموجِب قانون مكافَحة الإرهاب، سيؤدّي أيّ تصريح يمكن تفسيره كدعم للإرهاب إلى اتّخاذ إجراءات تأديبيّة، وقد يؤدّي إلى الفصل من العمل. صدر هذا التهديد منذ اليوم الأوّل. صدر مباشرة عن إدارة الموارد البشريّة. وفي أعقاب ذلك، بدأنا نسمع قصصًا عن أشخاص طُرِدوا من وظائفهم، بسبب رفع علم أو حمامة سلام. وسرعان ما بدأت قصص الملاحَقة هذه بالانتشار.[20]

وَصفتْ لبنى تجربتها المؤلمة من القمع الناتج عن الإسكات القسريّ قائلة:

من الصعب جدًّا أن يعيش المرء مقموعًا، وهو غير قادر على المجاهَرة أو الاحتجاج على الظلم. بودّي لو كان بإمكاني أن أصرّح علانيَةً بأنّ هناك إبادة جماعيّة تَحْدث، وأنْ أعبّر عن كلّ ما أومن به حقيقةً. ولكن كما هو واضح، لا أستطيع ذلك. يشعر المرء باستمرار وكأنّ هناك حواجز تمنعه من التعبير عن معتقداته وأفكاره.[21]

أمّا سامر، فقد أعرب عن قناعته بأنْ لا طائل من وراء مناقشة هذه القضايا في ظلّ العسكرة العميقة وديناميكيّات القوّة غير المتوازنة بين العرب واليهود داخل نظام الرعاية الصحّيّة، لكونها تعيق الحِوار الصادق، إذ قال: "إذا صرّح المرء بأيّ شيء ممّا يمْكن تأويله على أنّه دعْم للإرهاب- وإن كان ذاك اتّخاذ موقف ضدّ قتل الأطفال، أو شيئًا من هذا القبيل- فسيتعرَّض للطرد من العمل".[22]

ووصف وسيم اجتماعًا للموظَّفين عُقِد في الأسابيع التي تلت السابع من أكتوبر، لمعالجة التوتُّرات بين الموظَّفين اليهود والعرب، على النحو التالي:

لقد تعرّضنا للهجوم. لم يكن هذا الاجتماع الكبير مخصَّصًا للاستماع إلينا. بدأوا في الهجوم علينا مباشرة، وهم يتساءلون عن سبب إحجامنا عن الإدانة، وعمّا نقوم به، وعن سبب عدم قيام ممثّلينا بالإدانة... أتفهمين؟! هذه هي المقولات التي ألقَوْا بها علينا. وكما ذكرت لك، أنا أدرك كلّ هذه الأمور تمام الإدراك (ديناميكيّات القوّة، والعنصريّة داخل نظام الرعاية

20. مقابلة مع لبنى. مرجع رقم 10.

21. المرجع السابق.

22. مقابلة مع سامر. مرجع رقم 8.

الصحّيّة، وعسكرته)، ولكن ثمّة خوف شديد يشتعل في داخل المرء، لأنّنا في الخلفيّة نسمع عن الأطبّاء الذين جرى فصلهم، وعن آخرين جرى اعتقالهم. لم تَعُدْ بيئة العمل مجرّد بيئة رقابة فحسب، بل تخطّت ذلك إلى تهديدات فعليّة. وعلى الرغم من أنّني لم أقل أيّ شيء، فإنّ حقيقة بقائي صامتًا أثارت تساؤلات. لماذا لا يتحدّث المرء صراحة؟ لأنّه يدرك أنّه من الممكن استخدام كلّ كلمة يقولها ضدّه، وقد يقومون بتحريفها.[23]

وربّما يكون ما ذكره وسيم أحد الأمثلة الأكثر كشفًا للتحوُّلات الكبيرة التي مرّ بها الأطبّاء الفلسطينيّون، إذ صرّح قائلًا:

ورغم أنّني وصلت إلى معادلة تجعلني أعتقد أنّني لا أخشى شيئًا -لأنّني إذا فتحت الباب للخوف فسيسيطر عليّ- وعلى الرغم من أنّني درّبت نفسي على هذا الأمر كثيرًا، انقلب كلّ شيء رأسًا على عقب. فقد انهار كلّ ما تعلّمته ووعدت نفسي به، مثل عدم السماح لأيّ يهوديّ أو صهيونيّ بتخويفي أو المحافَظة على الشعور بالأمان في منصبي المستقرّ والثابت. هناك شيء جديد لم نشهده من قبل في ما يتعلّق بعدوانيّتهم وسلطتهم؛ لأنّهم في صراع وجوديّ من أجل أبنائهم وبناتهم وأزواجهم، وأدرك الآن أنّهم يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون. يمكنهم الاتّصال بالشرطة، والاتّصال بمكان عملك لطردك، وقد تقوم الشرطة باعتقالك. نزعة الانتقام واضحة لا لبْسَ فيها.[24]

استهدف المرضى بعضَ المشاركين في الدراسة بسبب منشوراتهم على موقع فيسبوك؛ إذ اتّهمهم المرضى بدعم إرهاب حماس وطالبوا بإزالتها. ولدهشتهم، وقف مقرّ العمل إلى جانبهم. ومع ذلك، ذكروا أنّهم منذ هذه الحادثة امتنعوا عن النشر على وسائل التواصل الاجتماعيّ، وذلك على الرغم من أنّ منشوراتهم كانت تركّز على المدنيّين وعلى انتهاكات حقوق الإنسان.

كان الإسكات والرقابة المنهجيّان والبنيويّان كلاهما سائدَيْن منذ أمد بعيد داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، وذلك قبل أحداث السابع من أكتوبر (Shalev &

23. مقابلة مع وسيم. مرجع رقم 7.

24. المرجع السابق.

Tanous, 2021). لاحظ الأشخاص الذين أجريْتُ معهم المقابَلات حدوثَ تصعيد كبير؛ إذ بسبب الترهيب يمتنع اليوم الأفراد الذين جاهروا فيما سبق بالحديث عن الانتهاكات الإسرائيليّة عن المجاهرة برأيهم اليوم. لقد غرست عمليّات الفصل التي تلت السابع من أكتوبر مباشرة شعورًا جماعيًّا بالخوف في أوساط مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين، وهو ما أدّى إلى ترسيخ صمتهم القسريّ.

لقد شعر العديد من الأطبّاء الفلسطينيّين بالعجز عن مواجهة نظام الرعاية الصحّيّة حتّى قبل السابع من أكتوبر. وبعد السابع من أكتوبر، ومع تجريم التعاطف ووصم المعارَضة بوصفها دعمًا للإرهاب، تزايدت توقُّعات الصمت. وفي الحالات التي لم يتمكّن فيها الأطبّاء الفلسطينيّون من الخضوع "للانضباط" وعَمَدوا إلى التشكيك في الرواية السائدة، جرى اتّخاذ إجراءات فوريّة لإعادة فرض السيطرة من جديد. وهذه هي المواقف التي يحصل فيها تصعيد للخوف من المراقَبة والترصُّد المضاعفَيْن وصولًا إلى الفصل والتجريم. لقد صُمِّم هذا النهج القاسي لضمان عدم قيام الأطبّاء الفلسطينيّين بتعطيل الرواية المهَيْمِنة التي تُشَرْعِن الحرب وتصوّر جميع الإجراءات الـمَنُوطة بها بوصفها إجراءات مبرَّرة.

العسكرة

تحمل عسكرة نظام الرعاية الصحّيّة جانبين؛ أوّلهما بنيويّ وثانيهما شكليّ. وهما يسبقان أحداث السابع من أكتوبر (Majadli & Tanous, 2022a) (Majadli & Tanous, 2022b) (Tanous, 2020). فعلى سبيل المثال، غالبًا يكون كبار المسؤولين (كمديري المستشفيات -مثلًا) من جنود الاحتياط الدائمين في الجيش. وقد صرّحت المستشفيات علنًا بدعمها للمجهود الحربيّ، وكذلك يتنقّل عدد كبير مـن مقدِّمي الرعايــة الصحّيّة باستمرار بيــن الخدمة الاحتياطيّة وعملهم في المستشفيات. وبالإضافة إلى هذا، تعمل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، التي دعمت طَوال الوقت سياسات إسرائيل في الأراضـي الفلســطينيّة المحتلّة (Majadli & Tanous, 2022a), (Majadli & Tanous, 2022b)، على نحوٍ نشط للتأثير على الرأي العامّ العالميّ منذ السابع من أكتوبر، وذلك من خلال نشر المقالات وإصدار رسائل إلى المنظَّمات الدوليّة التي تعارض حرب إسرائيل في غزّة. ويمكن تتبُّع هذا المجهود من خلال عدد من رسائل البريد الإلكترونيّ التي أرسلها تْصِيُون

حاجاي، رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، منذ السابع من أكتوبر إلى أعضاء في نظام الرعاية الصحّيّة. تُعَدّ نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة جسمًا قويًّا داخل نظام الرعاية الصحّيّة في البلاد، وتمثّل نحو 95% من مجموع الأطبّاء في إسرائيل (Jewish Medical Association UK) في رسالة مكتوبة أرسلها حاجاي إلى المتخصّصين في الرعاية الصحّيّة في 25 تشرين الأوّل 2023، وَرَدَ ما يلي:

> تعمل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة بلا كلل للتأثير على الرأي العامّ العالميّ، وينعكس ذلك من خلال المقالات أو من خلال المنظَّمات الدوليّة المختلفة التي تحاول إدانة الحرب الإسرائيليّة في غزّة. تقوم نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة أسبوعيًّا بالردّ على عشرات الادّعاءات الناقدة، وحتّى تلك الكاذبة أو التي في غير محلّها في بعض الأحيان، داعمةً ردودها هذه بالحقائق والبيانات الحقيقيّة، مثل قصف المستشفيات في غزّة، واستخدام القنابل المحظورة بموجب اتّفاقيّة جنيـف، وتعمُّد اختلاق أزمة إنسانيّة. (Jewish Medical Association UK).

وفي 15 تشرين الثاني 2023، بُعث بالرسالة التالية إلى طرف بقيت هُويّته طيّ الكتمان بخصوص المقاطَعة الأكاديميّة الإيطاليّة لإسرائيل:

> باعتبارنا المنظَّمة الممثِّلة لأطبّاء إسرائيل، صُدِمنا وذُهِلنا عندما قرأنا ما ورد في "الدعوة إلى اتّخاذ إجراءات عاجلة لوقف إطلاق النار الفوريّ واحترام القانون الإنسانيّ الدوليّ" التي وقّع عليها أكاديميّون إيطاليّون. ليس بوسعنا التحدُّث باسْم الحكومة الإسرائيليّة أو الجيش الإسرائيليّ. نتوجّه إليكم بوصفنا أطبّاء إسرائيليّين.[25]

ومن ثَمّ أشاد بالعلاج الطبّيّ الذي تقدّمه إسرائيل للمرضى الفلسطينيّين من غزّة ومن الضفّة الغربيّة، وبالتدريب الذي تقدّمه للأطبّاء الفلسطينيّين من الأراضي المحتلّة في المستشفيات الإسرائيليّة، قبل أن يطرح تساؤله: "إن كانت هناك مقاطَعة أكاديميّة لإسرائيل، فمَن سيعاني أكثر بحسب رأيكم"؟ وفي الرسالة ذاتها، يشير إلى استغلال المؤسَّسات الأكاديميّة لتحقيق أَجِنْدات سياسيّة. فضلًا

25. وجّه تْصِيُون حاچـاي، رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، رسالته إلى الأطبّاء في إسرائيل، وأبرز فيها جهود الجمعيّة في مواجَهة الانتقادات الدوليّة للعمليّات العسكريّة الإسرائيلية في غزّة. أُرسِلت الرسالة في 25 تشرين الأوّل 2023.

عن هذا، نقل حاچـاي إلى الأعضاء رسالة من طرف المدير العامّ لوزارة الصحّة الإسرائيليّة والموجَّه إلى أعضاء نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، والمؤرَّخة في 12 كانون الأوّل 2023 وموضوعها سفر الأطبّاء الإسرائيليّين. وكتب فيها ما يلي:

> شهدنا منذ اندلاع الحرب محاولات من قِبل جهات ومنظَّمات طبّيّة وأكاديميّة مختلفة في الخارج تسعى إلى استبعاد الأطبّاء والمؤسَّسات الإسرائيليّة من الأنشطة الأكاديميّة والبحثيّة والعياديّة المهِمّة بسبب رب، وهي مصحوبة بانتقادات سلبيّة حادّة على سلوك إسرائيل [...] تبذل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة كلّ ما في وسعها لمواجهة هذه المواقف والإصدارات، وللردّ على هذه الادّعاءات على نحوٍ مستمرّ وبموضوعيّة. وفي هذا السياق، فإنّ السماح للأطبّاء بالسفر إلى الخارج والمشارَكة في المؤتمرات والأنشطة الأكاديميّة والبحثيّة هو أمر بالغ الأهمّيّة؛ إذ من شأن ذلك أن يمكّنهم من الإسهام في الدبلوماسيّة العامّة لإسرائيل، وخاصّة في ما يتعلّق بالمنظومة الصحّيّة.[26]

من الجدير بالذكر أنّه لا نقابة عمّاليّة مستقلّة للأطبّاء الفلسطينيّين في إسرائيل، وأنّ الأطبّاء الفلسطينيّين لا يتمتّعون بتمثيل مؤثّر في نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، على الرغم من ادّعائها أنّها هيئة مهنيّة تمثّل جميع الأطبّاء في البلاد؛ إذ تتماهى نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة مع مصالح الدولة، وغالبًا ما يكون ذلك على حساب الأخلاقيّات الطبّيّة والقانون الدوليّ (Majadli & Tanous, 2022a), (Majadli & Tanous, 2022b)، كما أنّها تصنِّف على نحوٍ انتقائيّ بعضَ النشاطات على أنّها نشاطات "سياسيّة". فعلى سبيل المثال، نلقاها متسامحة مع الدبلوماسيّة المؤيِّدة لإسرائيل والمساعَدة العسكريّة التي يقدّمها الأطبّاء، فيما هي تُقْدِم على إدانة أنشطة أخرى مثل تأييد المقاطعة الأكاديميّة باعتبارها تجاوزًا سياسيًّا. ويعزّز هذا النهجُ حقيقةَ كون نظام الرعاية الصحّيّة، ومن خلال الهيئات القياديّة مثل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، كيانًا غير محايد، بل كيانًا يسهّل إنتاج الدولة للعنف وتهميش الأصوات الفلسطينيّة في صفوف المجتمع الطبّيّ. يؤكّد الافتقارُ إلى تمثيل فلسطينيّ لائق في نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة الحاجةَ إلى نقابة تخصّهم، على نحوٍ

26. نقل تْصِيُون حاچـاي رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، رسالة المدير العامّ لوزارة الصحّة للأطبّاء الإسرائيليين، إلى الأطبّاء الإسرائيليّين ويبرز فيها التشديد على أهمّيّة السفر إلى الخارج لمواجهة جهود الإقصاء ودعم الدبلوماسيّة الإسرائيليّة العامّة. تعود الرسالة إلى 12 كانون الأوّل 2023.

ما يؤكّد أربعة من الذين أُجرِيَتْ معهم المقابَلات على الأقلّ. فقد أعرب هؤلاء عن الطبيعة الملحّة لإنشاء نقابة عمّاليّة تخصّ الأطبّاء الفلسطينيّين وحدهم، وذلك ليس باعتبار شعورهم بأنّ نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة لا تؤدّي مَهَمّتها في تمثيل قضاياهم فحسب، بل كذلك بسبب تواطؤها النشط في العنصريّة التي تستهدف الفلسطينيّين.

بالإضافة إلى ذلك، أشار ثمانية من المشارِكين إلى زيادة ملحوظة في عسكرة نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ بعد السابع من أكتوبر. فقد أشار المشارِكون إلى أنّ الـمَرافق الصحّيّة باتت منذ السابع من أكتوبر تُبرِز على نحوٍ مطّردٍ الرموزَ العسكريّة التي تماثل تلك المعروضة في المؤسَّسات والفضاءات العامّة الأخرى. أصبحت اللافتات التي تحمل الشعار "معًا سننتصر" تظهر بصورة جليّة في مختلف الأماكن. كذلك وُجِّهت الفِرَق الصحّيّة للقيام بتثبيت دبّوس يحمل الشعار ذاته على معاطفهم المخبريّة، ورُفِع العلَم الإسرائيليّ على نحوٍ بارز في العديد من المواقع في الـمَرافق الطبّيّة.

لقد تجاوز دعم الحرب العروض الرمزيّة في المستشفيات ومَرافق الرعاية الصحّيّة، ممتدًّا ليصل إلى المشارَكة العسكريّة الفعّالة في الحرب من قِبل الأفراد العاملين في نظام الرعاية الصحّيّة. لقد أتى الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات على ذِكر عدّة أمثلة، بمن في ذلك قيس الذي قال:

> ما يثير الإحساس بالخوف رؤية طبيب يرتدي زيًّا عسكريًّا يتجوّل في المستشفى [...] حتّى بعض رؤساء الأقسام يتجوّلون مسلّحين. هناك نحو أربعة رؤساء أقسام يحملون السلاح [...] لقد سمعت أنّ إدارة المستشفى أجبرت كلّ رئيس قسم على حمل السلاح [...] ولكنّني لا أصدّق ذلك. لم أتحقّق من الأمر، وأشكّ في صحّة هذا؛ وذلك أنّ هؤلاء الذين يحملون السلاح عنصريّون. وربّما يكون أحدهم من الذين وقّعوا على الرسالة التي شَرْعَنتْ تدمير المستشفيات في غزّة.[27]

وأفاد كلّ من سامر وقيس أنّ بعض أفراد الطاقم الطبّيّ الإسرائيليّ تشاركوا صورًا شخصيّة من خدمتهم العسكريّة في غزّة مع أعضاء الطاقم الآخرين، إمّا أثناء الاجتماعات أو في مجموعات الدردشة على تطبيقات المراسلة. في

27. مقابلة مع قيس. مرجع رقم 7.

هذا يقول سامر: "إحساسي هو أنّي أذهب كلّ يوم للعمل جنبًا إلى جنب مع مجرمي حرب. المستشفى مجنَّد كلّيًّا عن طريق رسائل البريد الإلكترونيّ اليوميّة والأَعلام المنتشرة في كلّ مكان... عندما يدخل المرء إلى المستشفى يحسّ وكأنّه جزء من موقع إدارة حرب".[28]

أمّا وسيم، فقد قدّم لنا ما عايشه خلال اجتماع الطاقم المذكور آنفًا، إذ روى قائلًا:

> ظننت بكلّ براءة أنّنا سنتمكّن من التحدّث عن الألم الذي يشعر به كلا الطرفين، وأنّنا سنحافظ على الاحترام المتبادل من أجل إبقاء بيئة العمل محايدة وبلا سياسة، بحيث لا يفرض أيّ شخص آراءه على الآخرين لكي نتمكّن من الاستمرار في العمل معًا. ولكن ما صدمني منذ اللحظة الأولى، على الرغم من منصبي مديرًا يشرف على العديد من الأشخاص، قولهم أشياء على غرار ما يلي: "لقد سمعنا أنّ هناك العديد من المؤيّدين العرب للإرهاب، ويجب على مكان العمل اتّخاذ الإجراءات اللازمة للتحقيق في ما إذا كان لدينا أيّ موظّفين يتعاطفون مع الإرهاب". فحتّى المسؤول عنّي صرّح بلا لفّ أو دَوَران أنّه يجب أن يكون واضحًا أنّه "كلّ من ينتقد الجيش، وكلّ من ينتقد الدولة، أو يصف هذه الأفعال بأنّها جرائم حرب، مكانه ليس هنا". كان الأمر، كمنطلَق، مرعبًا؛ إذ لقد قالوا ذلك بكلّ صرامة. لقد أذهلتني السهولة التي تَحوَّل من خلالها كلّ واحد إلى جنديّ يحمل هذا النوع من السلطة، وخاصّة النساء، لأنّهنّ أمّهات لجنود.[29]

تسلّط هذه الأمثلة الضوء على كيفيّة ترسيخ القِيَم والمبادئ والممارَسات العسكريّة وتطبيعها داخل الحياة والمؤسَّسات المدنيّة من خلال عمليّة العسكرة. ومن بين هذه الممارسات تَنَقُّلُ الموظَّفين المستمرُّ بين الخدمة العسكريّة الاحتياطيّة في غزّة والعمل الطبّيّ في المستشفيات. وثمّة مثال آخَر على ذلك نجده في الموافَقة على خطّة جديدة لقبول الطلبة الذين جُنِّدوا للحرب بموجِب أمر الطوارئ حامل الرقم 8، والذين كانوا يَدرسون في الخارج في كلّيّات الطبّ في إسرائيل. ففي نهاية المطاف، مُنِح الجنود وأُسَرهم مجموعة واسعة من الامتيازات والإقامات وغيرها من الترتيبات التفضيليّة. تُوضِّح هذه التدابير

28. مقابلة مع سامر. مرجع رقم 8.

29. مقابلة مع وسيم. مرجع رقم 7.

كيفيّة إعادة تخصيص الموارد لخدمة الأهداف العسكريّة، وهو ما يؤدّي إلى إعادة تشكيل المؤسَّسات ومُواقَتَتها مع الأهداف العسكريّة، على نحوٍ ما تُوضِّح كاثرين لوتس (Lutz, 2002).

وأتى أربعة من التسعة الذين أجريتُ معهم المقابَلات على ذكْر الرسالة المفتوحة التي وقّعها نحوُ مئة طبيب إسرائيليّ، وورد فيها أنّ من "حقّ وواجب" الجيش الإسرائيليّ مهاجمة المستشفيات في غزّة، وهي (المستشفيات) التي أشير إليها بالاسم "أَوْكار الإرهابيّين" (Middle East Eye, 2023b). وأشارت إحدى هؤلاء إلى أنّ أحد زملائها الإسرائيليّين كان من مؤيّدي الرسالة المفتوحة، وأنّه يتسنّم دَوْرًا إداريًّا يتولّى من خلاله مسؤوليّة الإشراف على عدد كبير من الأطبّاء الفلسطينيّين. وعلاوة على ذلك، ذكرتْ أنّه كرّر تأييده للبيان خلال اجتماع لاحق في المستشفى.

تؤكّد الأمثلة التي أتينا على مناقَشتها أعلاه -بالإضافة إلى الانخراط المتزايد لمقدّمي الرعاية الصحّيّة في تسهيل وصول الأسلحة الناريّة إلى المدنيّين- على التطبيع الشامل للعنف داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ. فقد أصبحت اليوم عمليّة استيفاء "التصريح الصحّيّ" (الذي يُعَدّ شرطًا أساسيًّا للحصول على ترخيص حيازة الأسلحة الناريّة) في عِداد واجبات طبيب العائلة؛[30] وهو ما يكشف عن العنف المتجذّر في المجال الصحّيّ في إسرائيل.

الاستنتاجات

تكشف التجارب التي مرّ بها الأطبّاء الفلسطينيّون داخل النظام الصحّيّ الإسرائيليّ بعد السابع من أكتوبر عن منظومة متجذّرة ومتنامية تعمل على نزع الإنسانيّة وعلى المحو السياسيّ والعسكرة. لقد جُرِّدَ الأطبّاء الفلسطينيّون -على الرغم من تشكيلهم جزءًا كبيرًا من القوى العاملة في مجال الرعاية الصحّيّة- من فاعليّتهم السياسيّة، كما جرى حرمانهم من القدرة على التعبير عن التضامن مع الفلسطينيّين في غزّة الذين تعرّضوا للعنف الشديد والمميت. يشكّل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ جزءًا لا يتجزّأ من بُنى الدولة، ولا يمكن اعتباره من وجهة نظر

30. للاطّلاع على المزيد في ما يخصّ دَوْر العائلة الإسرائيليّة، انظروا: (أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل، 2024).

سياسيّة فضاءً محايدًا. فقد أعلنت الـمَرافق الصحّيّة على الملأ دعمها للمجهود الحربيّ، وكان جنود الاحتياط من مقدِّمي الرعاية الصحّيّة يتنقّلون باستمرار بين الخدمة العسكريّة وعملهم الطبّيّ المنتظم في أقسام المستشفيات. إضافة إلى هذا، يمتدّ دعمهم ليصل إلى قمع معارضة مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين للحرب وانتقادهم لها، وإلى العمل على التأثير على الرأي العامّ العالميّ في أعقاب السابع من أكتوبر، ليتواءم بالتالي نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ مع أهداف الدولة العسكريّة والسياسيّة الأوسع.

كانت إحدى الموضوعات الرئيسيّة التي برزت من المقابَلات، التي أُجْرِيت خلال البحث المخصَّص لهذه الورقة، محو الهُويّة الفلسطينيّة والفاعليّة السياسيّة الفلسطينيّة في قلب نظام الرعاية الصحّيّة. فعلى الرغم من كون الفلسطينيّين يشكّلون نحو ربع مجْمَل جميع الأطبّاء والممرّضين في إسرائيل، فإنّهم يظلّون مهمَّشين من ناحية فعليّة، فيما يقوم تواجدهم في النظام الصحّيّ مقام القناع الذي يخفي ديناميكيّات القوّة الفاعلة الأوسع. في الغالب، يُطْلَق المسَمّى "العرب الإسرائيليّون" على هؤلاء الفلسطينيّين، وهو المصطلح الذي ينكر هُويّتهم الفلسطينيّة ويقلّل من وجودهم ليصبح شكلًا من أشكال الدمج الرمزيّ الذي لا يحمل أيّ وزن سياسيّ. يضمن نظام الرعاية الصحّيّة قدرتهم على الإسهام مهنيًّا، ولكنّهم لا يستطيعون حشد قدراتهم سياسيًّا ولا يمتلكون القدرة على إثارة القضايا التي تخصّ مجتمعهم. وقد تفاقَمَ هذا المحو السياسيّ من خلال تجريم التعاطف بعد السابع من أكتوبر، حيث أصبح أيّ تعبير عن التعاطف مع الضحايا المدنيّين في غزّة بمثابة دعم للإرهاب يستوجب أن يعاقَب مرتكبوه.

في هذا السياق، يتّخذ نزع الإنسانيّة شكلَيْن أساسيَّيْن. الشكل الأوّل نزع الصفة الإنسانيّة عن الفلسطينيّين في غزّة، الذين يُعتبرون روتينيًّا غير جديرين بالتعاطف، حتّى من قِبل الإسرائيليّين المتخصّصين في الرعاية الصحّيّة، وذلك كصدى لسرديّة الدولة الأوسع التي تحطّ من قيمة حياة الفلسطينيّين وتتجاهل معاناتهم. الشكل الثاني أنّ الأطبّاء الفلسطينيّين العاملين في إسرائيل يتعرّضون لنزع إنسانيّتهم من خلال حرمانهم من القدرة على الفعل؛ إذ لا يمنعهم النظام من تقديم المساعَدة الطبّيّة للمرضى في غزّة فحسب، بل كذلك يجرّم الأمر قدرتهم المبدئيّة عن التعبير عن أنفسهم. ونتيجة ذلك يطغى صراع داخليّ عميق في أوساط هؤلاء الأطبّاء، الذين يتمثّل دَوْرهم المهنيّ في تخفيف المعاناة

الإنسانيّة، ولكنّهم واقعون في حالة من الشلل بسبب تهديد بالاضطهاد من طرف الدولة.

أعرب جميع الأطبّاء الذين أجريتُ معهم المقابَلات عن شعورهم بالذنب والعجز في مواجَهة عدم قدرتهم على اتّخاذ إجراءات ذات قيمة. ففي الجولات السابقة من الصراع، كان بمقدور الفلسطينيّين في إسرائيل على الأقلّ تنظيم الاحتجاجات أو الانخراط في أعمال الإغاثة الإنسانيّة. ولكن منذ تجريم مثل هذه النشاطات بعد السابع من أكتوبر، أصبح الأطبّاء الفلسطينيّون يراقبون تطوُّرات الحرب من على الهامش، بينما هم عاجزون عن التدخُّل. ومن ناحية مقدِّمي الرعاية الصحّيّة، هذا الجمود موجع على نحوٍ خاصّ؛ وذلك أنّه يحرمهم من إمكانيّة ممارَسة الدَّوْر الإنسانيّ المرتبط بمهنتهم.

ويتفاقم لديهم شعورٌ طاغٍ بالذنب بسبب موقعهم: ففيما هم ممنوعون من مساعَدة الفلسطينيّين في غزّة، يَلقَوْن أنفسهم يشاركون كأطبّاء في صيانة نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، الذي يتزايد تسليحه على نحوٍ متسارع. فقد أشار العديد من المشاركين إلى الحضور المتزايد للرموز والقِيَم العسكريّة داخل مؤسَّسات الرعاية الصحّيّة، ممّا يعزّز الصلة بين الرعاية الصحّيّة وعسكرة الدولة. يخلق الشعور بالصراع الذي يعيشه الأطبّاء الفلسطينيّون -لكونهم معالِجين لا يمتلكون القدرة على مساعدة أبناء شعبهم الذين يحتاجون إلى مساعدتهم- مأزقًا أخلاقيًّا عميقًا بالنسبة لهم، ممّا يزيد من شعورهم بنزع إنسانيّتهم.

على الرغم من اندماج الأطبّاء الفلسطينيّين في النظام الصحّيّ الإسرائيليّ، ليس لهم في إسرائيل تأثير يُذْكَر؛ إذ تجري إدارة وجودهم بعناية لضمان ألّا يتمكّنوا من تشكيل أيّ تهديد سياسيّ للدولة. وتعكس هذه البنْية سياسات الدولة الأوسع في ما يخصّ الاحتواء ليسمح للفلسطينيّين في إسرائيل بالاندماج اقتصاديًّا، مع إبقائهم مهمَّشين سياسيًّا داخل الدولة. من شأن الإسهامات التي يقدّمها الأطبّاء الفلسطينيّون أن تحظى بالتقدير، ولكن أصواتهم تتعرّض للإسكات، وخاصّة عندما تتطرّق هذه إلى قضايا مجتمعهم. تُعَزِّز هذه الديناميكيّة أَجِنْدة الهَيْمَنة الاستعماريّة الاستيطانيّة الأوسع، والتي من خلالها يجري التحكُّم عن كثب بمشاركة الفلسطينيّين وربطها بخضوعهم السياسيّ.

على وجه الإجمال، تُبرِز نتائج هذه الدراسة التأثير العميق الذي خلّفته عمليّات نزع الإنسانيّة والمحو والعسكرة على مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين في إسرائيل في أعقاب السابع من أكتوبر. فعلى الرغم من وجود الأطبّاء الفلسطينيّين البارز داخل نظام الرعاية الصحّيّة، هم يتعرّضون على نحوٍ منهجيّ للإسكات وللتجريد من ذاتيّتهم السياسيّة. كذلك تُقيَّد قدرتهم على التعبير عن التعاطف والتصرُّف وَفقًا لأخلاقيّاتهم المهنيّة بشدّة بسبب التهديد بالتجريم، وهو ما يجعلهم يشعرون بالعجز وبالتواطؤ داخل نظام يعمل على نحوٍ فعّال على نزع الإنسانيّة عن أشقّائهم الفلسطينيّين. تعكس هذه العمليّةُ المزدوجةُ، المتمثّلةُ في نزع الإنسانيّة عن ضحايا العدوان العسكري الإسرائيليّ في غزّة وعن الأطبّاء الفلسطينيّين أنفسهم، الديناميكيّاتِ الأوسعَ لدى الاستعمار الاستيطانيّ، والهَيْمَنةَ التي تَسْبك نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ. وإذا لم يحصل مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون على تمثيل مستقلّ وفاعليّة سياسيّة، فلن تستمرّ المنظومة في الإخفاق في حماية حقوقهم فحسب، بل كذلك في إدامة تهميشهم.

ملحَق

أطبّاء ومستشفيات تحت القصف:
الإبادة الممنهَجة لجهاز الصحّة العامّة في غزّة خلال الحرب (2023- 2024)

في إطار الغضب المتفجّر الذي صاحَبَ السلوك الإسرائيليّ عقب قيام الفصائل الفلسطينيّة بعمليّة السابع من أكتوبر، استهدف الجيش الإسرائيليّ الجهاز الصحّيّ في غزّة على نحوٍ منهجيّ ومتعمَّد؛ بحجّة أنّها تحوّلت إلى مراكز قيادة وسيطرة تابعة لحركة حماس، وهو ما خلق واقعًا صحّيًّا بالغ الصعوبة والتعقيد. في هذا التقرير سوف نسلّط الضوء على الاعتداءات الإسرائيليّة على الجهاز الصحّيّ، والطواقم الطبّيّة والنازحين داخل المستشفيات في قِطاع غزّة.

في حين تميّزت الهجمات الإسرائيليّة على القِطاع الصحّيّ في الضفّة الغربيّة بالاعتداء على سيّارات الإسعاف والطواقم واقتحام المستشفيات والعيادات، بالإضافة إلى عرقلة وصول سيّارات الإسعاف إلى المواقع الحرجة (طنوس، 2024)، كانت الإجراءات الإسرائيليّة تجاه الجهاز الصحّيّ في غزّة مختلفة تمامًا. فخلال أربع حروب متتالية على قِطاع غزّة (2008؛ 2012؛ 2014؛ 2023)، كانت الهجمات على القِطاع الصحّيّ خلال تلك الحروب تتميّز بقصف العيادات والمستشفيات والمختبَرات بصورة منتظِمة (Asi, Yara, et.al, 2021).

منذ بداية الحرب، فكّكت القوّات الإسرائيليّة على نحوٍ منهجيّ ومدروس البنْيةَ التحتيّة للرعاية الصحّيّة في قِطاع غزّة، عبْر قصف المستشفيات والمراكز الصحّيّة، وقطع الكهرباء والإمدادات عنها، وإجبار المرضى والموظَّفين على إخلائها تحت تهديد السلاح، وإطلاق النار على العاملين في المستشفيات والباحثين عن مأوى، أو مَن يتلقَّوْن الرعاية فيها (حنبلي، 2024). لقد قام الاحتلال الإسرائيليّ بتدمير المؤسَّسات الصحّيّة الكبرى مثل، مجمع الشفاء الطبّيّ في مدينة غزّة. وفي الجنوب، أفضى الأمر إلى إخراج المستشفيات الآتي ذكْرها عن

---

* أتقدم بالشكر للباحث السياسي الدكتور منصور أبو كريّم على مساهمته في كتابة الملحق.

الخدمة: أبو يوسف النجّار، والهلال الأحمر الإماراتيّ، والكويتيّ، ودار السلام، في حين يعمل المستشفى الأوروبيّ جزئيًّا، وما زال مستشفى "ناصر" تحت التهديد. أمّا مستشفى "شهداء الأقصى" فيعمل بنحو 10 % من طاقته. كذلك قام الاحتلال بتدمير "مستشفى الصداقة التركيّ الفلسطينيّ للأورام"، ممّا أدّى إلى تفاقم معاناة مرضى السرطان، وكذلك أخرج ثلاثة مستشفيات للأطفال من الخدمة بعد تدميرها وهي: "النصر"؛ "عبد العزيز الرنتيسي"؛ "محمّد الدرّة" (الجزيرة نت، 2024).

وثَّقَتْ منظّمة الصحّة العالميَّة مئة واثنتين من حالات الهجوم على مراكز الرعاية الأوّليّة، بينما تلقَّت ثلاث عشرة مؤسَّسة صحّيّة أوامر بالإخلاء من غزّة وشمال غزّة (UNDP, 2024). وحسب تقارير المكتب الإعلاميّ الحكوميّ في غزّة، فإن ثلاثةً وثلاثين مستشفى، وأربعةً وستّين مركزًا صحّيًّا، خرجت عن العمل بسبب الحرب على قِطاع غزّة، وأكّدت البيانات أنّ مئةً وستّين مؤسّسة صحّيّة قد استهدفها الاحتلال (الريان، 2024). إضافة إلى هذا، وثّقت منظّمة "هيومن رايتس ووتش" الاعتداءات على المنشآت الصحّيّة في غزّة حيث "قصفت القوّات الإسرائيليّة المستشفى الإندونيسيّ مرّات عدّة بين 7 و28 تشرين الأوّل، فقتلت مدنيَّيْن على الأقلّ". وتعرّض المركز الدوليّ للعيون لقصف متكرّر ودُمِّر بكامله بعد غارة في 10 تشرين الأوّل 2023، كما ألحقت الغارات الإسرائيليّة المتكرّرة أضرارًا بمستشفى القدس التابع لجمعيّة الهلال الأحمر الفلسطينيّ، وأصابت رجلًا وطفلًا أمامه. كذلك قصفت القوّات الإسرائيليّة في عدّة مناسبات سيّارات إسعاف تحمل علامات واضحة. في حادثة واحدة، جرت في 3 تشرين الثاني 2023، قتلت وجرحت ما لا يقلّ عن اثنَيْ عشر شخصًا، بينهم أطفال، أمام مستشفى الشفاء (هيومن رايتس واتش، 2023).

من الواضح أنّ ثمّة نمطًا متكرّرًا ومتّسقًا من الهجمات على المستشفيات في مختلف أنحاء قِطاع غزّة يتّسم بالترهيب والهجمات على المناطق المحيطة والاستهداف المباشر والحصار. وقد أدّى تأثير هذا النمط الممنهَج والواسع النطاق، من تدمير للبنْية التحتيّة الطبّيّة ومن نقل قسريّ للسكّان، إلى خروج أغلب المستشفيات والمراكز الصحّيّة العاملة في غزّة عن الخدمة، بما في ذلك جميع المستشفيات الواقعة في شمال القِطاع (Forensic-Architecture, 2024a). الاعتداءات على المستشفيات حدثت بطرق شتّى، من بينها قصف محيط

هذه المستشفيات، واجتياحها، وقنصها، وحصارها، وتحويل ساحاتها الخلفيّة إلى مقابر جماعيّة (طنوس، 2024).

علاوة على هذا، لم تتوقّف الاعتداءات الإسرائيليّة على المستشفيات والمراكز الصحّيّة، بل لقد بلغت حدّ الاعتداء على الطواقم البشريّة العاملة في هذا المجال. فمنذ السابع من أكتوبر، قُتِل 1,057 من أفراد القِطاع الصحّيّ في غزّة، كان آخِرهم الطبيب سعيد جودة عقب تعرُّضه لإطلاق نار إسرائيليّ مباشر ببلدة بيت لاهيا شمال القِطاع (وكالة الأناضول، 2024ب)،كما اعتقلت وقتلت قوّات الاحتلال العديد من الكوادر الطبّيّة من مستشفيات غزّة، كان من بينهم الدكتور عدنان البرش رئيس قسم العظام في مستشفى الشفاء بغزّة. وكان البرش قد اعتُقِل في كانون الأوّل 2023، خلال وجوده في مستشفى العودة شمال غزّة إلى جانب مجموعة أطبّاء (وكالة الأناضول، 2024ب). قدّم "روهان تالبوت"، مدير المناصرة والحملات في المنظّمة الخيريّة البريطانيّة (المعونة الطبّيّة للفلسطينيّين)، شهادةً أمام البرلمان البريطانيّ بشأن جرائم الاحتلال الإسرائيليّ ضدّ الأطبّاء في غزّة. في شهادته، أكّد أنّ ثمّة أدلّة تشير إلى الاستهداف المتعمَّد من قِبل إسرائيل للكوادر الطبّيّة الفلسطينيّة (التلفزيون العربي، 2024ب).

أضف إلى ذلك أنّ الاعتداءات الإسرائيليّة طالت النازحين داخل أسوار المستشفيات؛ ففي 17 تشرين الأوّل 2023، افتتحت إسرائيل مسلسل استهدافها للمشافي الفلسطينيّة، وذلك عبْر استهداف الساحة الداخليّة للمستشفى الأهليّ المعمدانيّ، لتحصد أرواح قرابة 500 فلسطينيّ غالبيّتهم من النساء والأطفال ممّن لجأوا إلى المستشفى (الجزيرة نت، 2023). ادّعى مسؤولون إسرائيليّون أنّ الإخفاق في إطلاق صاروخ محلّيّ كان مسؤولًا عن الانفجار، وعلى وجه التحديد أشار المسؤولون الإسرائيليّون إلى وابل من سبعة عشر صاروخًا أُطلِقت من داخل غزّة باتّجاه المستشفى، زاعمين أنّ أحد هذه الصواريخ أخطأ الهدف وكان مسؤولًا عن الانفجار في مستشفى الأهليّ والدمار الناتج عنه، لكن السلطات الفلسطينيّة والتقارير الواردة من الميدان ألقت اللوم على غارة جوّيّة إسرائيليّة. في تقريرٍ لاحِقٍ لجمعيّة الهندسة المعماريّة المحقَّقة، توافرت أدلّة تنفي الادّعاءات الإسرائيليّة (Forensic-Architecture, 2024b).

وكذلك قُتل اثنان وأصيب ستّة وعشرون آخرون بقصف إسرائيليّ استهدف خيامًا لصحافيّين ونازحين داخل أسوار مستشفى شهداء الأقصى، وذلك للمرّة

التاسعة منذ بدء العدوان (التلفزيون العربي، 2024أ). تَحْدث هذه الاعتداءات على المستشفيات والمراكز الصحّيّة في قِطاع غزّة، رغم أنّها محصَّنة من الاستهداف بموجب القانون الدوليّ، فالمستشفيات والـمَرافق الطبّيّة الأخرى هي أعيان مدنيّة تتمتّع بحماية خاصّة بموجب القانون الإنسانيّ الدوليّ، أو قوانين الحرب (هيومن رايتس واتش، 2024).

آثار الحرب على غزّة تظهر على نحوٍ جليٍّ في قِطاع الصحّة؛ إذ إنّ هذا القِطاع يعاني انتكاسات مدمّرة لها آثار طويلة الأمد على الوقاية من الأمراض، والتماسك الاجتماعيّ. تشير التقديرات إلى أنّ 16,854 طفلًا لم يتمكّنوا من الحصول على التطعيمات الروتينيّة، وهو ما أدّى إلى انتشار عدد من الأمراض الوبائيّة مثل الكبد الوبائيّ، ممّا يؤكّد على مستقبل الصحّة المقلق في قِطاع غزّة، والحاجة الملحّة إلى التدخُّل في الأزمة الصحّيّة (الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، 2024).فقد أدّى النقصُ الحادّ في المياه وتلوُّثها، والنقصُ الحادّ في الطواقم البشريّة نتيجة الاغتيالات والاعتقالات، والنقصُ الحادّ في الأدوية والمستلزمات الطبّيّة والدم ومشتقّاته، وعدمُ القدرة على الوصول إلى الخدمات والصحّيّة، إلى حصول تدهور كبير في الخدمات الطبّيّة المقدَّمة للمواطنين في غزّة (الحسيني، 2024).

خاتمة

يمرّ الجهاز الصحّيّ في غزّة في فترات عصيبة نتيجة تداعيات الحرب؛ فمنذ اليوم الأوّل للحرب على غزّة كان القِطاع الصحّيّ هدفًا مباشرًا للاستهداف الإسرائيليّ، سواء أكان ذاك في المستشفيات أَمْ في مراكز الرعاية الصحّيّة، فغالبيّتها توقّفت تمامًا عن العمل أو هي تعمل على نحوٍ جزئيّ نتيجة التدمير الممنهَج، وهو ما أسفر عن عجز في تلبية احتياجات ما يقارب مئة ألف من الجرحى جرّاء الحرب، إلى جانب المرضى وعموم السكّان. وقد أسهم هذا في انتشار العديد من الأمراض والأوبئة، مثل ڤـيروس شلل الأطفال والجدريّ والكبد الوبائيّ وغيرها من الأمراض والأوبئة، ممّا ينْذر بمزيد من التداعيات الصحّيّة إن استمرّت الاعتداءات على الجهاز الصحّيّ والنقص في الموارد البشريّة والأدوية والمستلزَمات الطبيّة.

المراجع

أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل. (2023، 17 تشرين الأوّل). الآن تحديدًا- شراكة حقيقيّة في نظام الرعاية الصحّيّة. **أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل**. [بالعبريّة]
https://shorturl.at/1FmAN

أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل. (2024، 8 كانون الثاني). إضفاء الطابع الطبّيّ على التسليح: انتشار الأسلحة في الأماكن المدنيّة، والعنف، ودَوْر المجتمع الطبّيّ. **أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل**. [بالعبريّة]
https://www.phr.org.il/the-medicalization-of-civilian-armament/

التلفزيون العربي. (2024أ، 9 تشرين الثاني). للمرّة التاسعة.. الاحتلال يستهدف خيام النازحين في مستشفى شهداء الأقصى. **التلفزيون العربي**.
https://shorturl.at/fnWlX

التلفزيون العربي. (2024ب، 17 تشرين الثاني). اغتصاب حتّى الموت.. هكذا عاملت إسرائيل طبيبًا فلسطينيًّا أسَرَتْه من غزّة. **التلفزيون العربي**.
https://shorturl.at/krcNs

الجزيرة نت. (2023، 23 أيار). حرب على المستشفيات. إستراتيجيّة اعتمدتها قوّات الاحتلال في عدوانها على القِطاع. **الجزيرة نت**.
https://shorturl.at/iWzOh

الجزيرة نت. (2024، 2 تشرين الأول). كيف أثّرت الحرب على الحالة الصحّيّة لسكّان قِطاع غزّة؟. **الجزيرة نت**.
https://shorturl.at/6I0xs

الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. (2024، 6 تشرين الأول). الإحصاء الفلسطينيّ يستعرض الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة والبيئيّة بعد مرور عام كامل على عدوان الاحتلال الإسرائيليّ على قِطاع غزّة والضفّة الغربيّة. **الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني**.
https://www.pcbs.gov.ps/postar.aspx?lang=ar&ItemID=5845

الحسيني، عبد اللطيف. (2024، 7 شباط). على حافة الهاوية: الحرب والصحّة العامّة في غزّة. **جامعة بيرزيت**.
https://www.birzeit.edu/ar/blogs/l-hf-lhwy-lhrb-wlsh-lm-fy-gz

حنبلي، ليث. (2024). تدمير القِطاع الصحّيّ في قِطاع غزّة. **مؤسَّسة الدراسات الفلسطينيّة**.
https://www.palestine-studies.org/ar/node/1655249

الريان. (2024، 15 تموز). 283 يومًا للحرب على غزّة. **الريان**.
https://alryan.co.il/?p=19362

زعبي، بكر. (2023، 20 تشرين الثاني). منذ الحرب: اضطهاد غير مسبوق للعرب العاملين في الطبّ. **ميكوميت**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/57nztd5p

طنّوس، أسامة. (2024). الاعتداءات الإسرائيليّة على القِطاع الصحّيّ: المعيار الجديد أيضًا في الضفّة الغربيّة. **مؤسّسة الدراسات الفلسطينية**.
https://gazahcsector.palestine-studies.org/index.php/ar/node/3992

مكتب رئيس الوزراء. (31 كانون الأوّل، 2015). النشاط الحكوميّ للتنمية الاقتصاديّة بين السكّان الأقلّيّة في الأعوام 2016- 2020، قرار حكوميّ رقْم 922 لسنة 2016 بتاريخ 30/12/2015. **مكتب رئيس الوزراء**. [بالعبريّة]
https://www.gov.il/he/pages/2015_des922

مكتب رئيس الوزراء. (24 تشرين الأوّل، 2021). الخطّة الاقتصاديّة لتقليص الفجوات في المجتمع العربيّ بحلول عام 2026، قرار حكوميّ رقْم 550 بتاريخ 2021/10/24. **مكتب رئيس الوزراء**. [بالعبريّة]
https://www.gov.il/he/pages/dec550_2021

هيومن رايتس ووتش. (2023، 24 تشرين الثاني). غزّة: القصف الإسرائيليّ غير القانونيّ للمستشفيات يفاقم الأزمة الصحّيّة. **هيومن رايتس ووتش**.
https://tinyurl.com/4xcxa2tp

وزارة الصحّة. (2022). القوى العاملة في المهن الصحّيّة 2022. **وزارة الصحّة**. [بالعبريّة]
https://tinyurl.com/2hxah4pf

وكالة الأناضول. (2024أ، 5 أيار). عدنان البرش أشهَر جرّاحي غزّة.. اعتقال وتعذيب واستشهاد بسجون إسرائيل (بروفايل). **وكالة الأناضول**.
https://tinyurl.com/3z9esuee

وكالة الأناضول. (2024ب، 12 كانون الأول). صحّة غزّة: ارتفاع حصيلة شهداء القِطاع الصحّيّ إلى 1,057. **وكالة الأناضول**.
https://tinyurl.com/yu7ea9yu

Anderson, Warwick. (2007). **Colonial pathologies: American tropical medicine, race, and hygiene in the Philippines**. Duke University Press.

Asi, Yara M; et al. (2021). Are There 'Two Sides' to Attacks on Healthcare? Evidence from Palestine. **European Journal of Public Health,** 31 (5). Pp. 927– 928.

Asi, Yara M. (2022). Palestinian dependence on external health services: De-development as a tool of dispossession. **Middle East Law and Governance**, 14 (3). Pp. 366- 387.

Bloch, Ofra. (2021). Hierarchical inclusion: The untold history of Israel's affirmative action for Arab citizens (1948– 68). **Law and History Review**, 39 (1). Pp. 29- 67.
https://tinyurl.com/2jtsden6

Comaroff, Jean. (1993). "The diseased heart of Africa: Medicine, colonialism, and the black body". In: Lindenbaum, Shirley; & Lock, Margaret M (Eds.). **Knowledge, power, and practice: The anthropology of medicine and everyday life.** University of California Press. Pp. 305- 329.

Efrati, Ido. (2023, December 20). Arab-Israeli doctor leaves job after being wrongly accused of supporting terrorism. **Haaretz**.
https://tinyurl.com/28nzxfxh

Fanon, Frantz. (1967). **Black Skin, White Masks.** (Charles L. Markmann, Trans.). Grove Press. (Original work published 1952).

Forensic-Architicture. (2024a). Destruction of the Medical Infrastructure in Gaza. **Forensic-Architicture**.
https://forensic-architecture.org/investigation/destruction-of-medical-infrastructure-in-gaza

Forensic Architecture. (2024b). Israeli Disinformation: Al-Ahli Hospital. **Forensic Architecture**.
https://forensic-architecture.org/investigation/israeli-disinformation-al-ahli-hospital

Institute for National Security Studies. (2021, May 31). Jewish-Arab relations in Israel, April- May 2021. **Institute for National Security Studies**.
https://www.inss.org.il/publication/arabs-and-jews-in-israel/

Jewish Medical Association UK. [n.d.]. **Israeli Medical Association**.
https://jewishmedicalassociationuk.org/medicine-in-israel/israel-medical-association/

Linder, Ronny. (2017, March 31). Israel's medical field: A model of Jewish-Arab equality and coexistence. **Haaretz**.
https://tinyurl.com/2p52jd98

Lutz, Catherine. (2002). Making war at home in the United States: Militarization and the current crisis. **American Anthropologist**, 104 (3). Pp. 723- 735.
https://anthrosource.onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1525/aa.2002.104.3.723

Majadli, Ghada; & Tanous, Osama. (2022a, March 3). A medical school in the service of colonialism. +**972 Magazine**.
https://www.972mag.com/ariel-university-adelson-medicine-colonialism/

Majadli, Ghada; & Tanous, Osama. (2022b, June 7). When hospitals become battlefields. **+972 Magazine**.
https://www.972mag.com/saint-joseph-hospital-jerusalem-abu-akleh/

Majadle, Ghada; & Ziv, Hadas. (2022). Amputating the body, fragmenting the nation: Palestinian amputees in Gaza. **Health and Human Rights**, 24 (2). P. 281.
https://brill.com/view/journals/melg/14/3/article-p366_004.xml

Mbembe, Achille. (2020). **Necropolitics**. Durham: Duke University Press.

Middle East Eye. (2023a, October 9). Israel-Palestine war: 'We are fighting human animals', Israeli defence minister says. **Middle East Eye**.
https://tinyurl.com/222pysc3

Middle East Eye. (2023b, October 18). Israeli doctors call for Gaza hospitals to be bombed. **Middle East Eye**.
https://www.middleeasteye.net/news/israel-palestine-war-doctors-call-gaza-hospitals-bombed

Maron, Asa; & Shalev, Michael (Eds.). (2017). **Neoliberalism as a state project: Changing the political economy of Israel**. Oxford University Press.
https://academic.oup.com/book/10088

Orr, Zvika; & Fleming, Mark D. (2023). Medical neutrality and structural competency in conflict zones: Israeli healthcare professionals' reaction to political violence. **Global Public Health**, 18 (1).
https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/17441692.2023.2171087

Shalev, Guy. (2018). Medicine and the politics of neutrality: The professional and political lives of Palestinian physicians in Israel. [Doctoral dissertation, University of North Carolina].
https://cdr.lib.unc.edu/concern/dissertations/ft848r32p

Shalev, Guy; & Tanous, Osama. (2021, May 20). To achieve 'coexistence,' Palestinian healthcare workers in Israel cannot show up as their full selves. **Forward**.
https://tinyurl.com/3rjf5dpn

Shalev, Guy. (2022, August 25). Helsinki in Zion: Hospital ethics committees and political gatekeeping in Israel/ Palestine. **American Anthropologist**, 124 (3). Pp. 1- 15.
https://anthrosource.onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/aman.13767

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2015). The politics of birth and the intimacies of violence against Palestinian women in occupied East Jerusalem. **The British Journal of Criminology**, 55 (6). Pp. 1187– 1206.
https://www.jstor.org/stable/43819350

Smith, David Livingstone. (2011). **Less Than Human: Why We Demean, Enslave, and Exterminate Others**. New York: St. Martin's Press.

Tanous, Osama. (2020). Covid-19 fault lines: Palestinian physicians in Israel. **Journal of Palestine Studies**, 49 (4). Pp. 36- 46.

Tanous, Osama, et al. (2023). Structural racism and the health of Palestinian citizens of Israel. **Global Public Health**, 18 (1). https://www.tandfonline.com/doi/full/10.1080/17441692.2023.2214608

The Guardian. [n. d]. Ethiopian women in Israel 'given contraceptive without consent'. **The Guardian**. https://www.theguardian.com/world/2013/feb/28/ethiopian-women givencontraceptives-israel

The Myers-JDC-Brookdale Institute. (2017). Arab youth in Israel: A comprehensive statistical review. **The Myers-JDC-Brookdale Institute**. https://tinyurl.com/2p9s4ewx

United Nations Development Programme (UNDP). (2024). **The Gaza War: Anticipated Economic and Social Implications for the State of Palestine**. Jerusalem: United Nations Development Programme (UNDP).

المساهِمون في الكتاب

(حسب الترتيب الأبتثي)

إلهام شمالي: أكاديمية من قطاع غزّة. باحثة في دائرة الأمن القومي بمركز التخطيط الفلسطيني ومشرفة طلبة الماجستير في "جامعة الأقصى"- غزّة. حاصلة على شهادة الدكتوراة في التاريخ الحديث المعاصر، بامتياز مع مرتبة شرف، من جامعة عين شمس في مصر. نشرت عددًا من الكتب والدراسات المحكّمة حول قضايا الهوية، والقوانين الإسرائيلية، وسياسات التهويد، والاستيطان، والتهجير القسري، والأمن القومي الفلسطيني، والتطبيع العربي مع إسرائيل. من أبرز مؤلفاتها: كيف استوطنوا فلسطين؟ (2019)، الصندوق القومي اليهودي (2020)، التهجير القسري الإسرائيلي لغزة (2025).

امطانس شحادة: باحث في العلوم السياسيّة، متخصّص في الاقتصاد السياسيّ وأنماط التصرّف السياسيّ والتصويت. مدير برنامج "دراسات عن إسرائيل" في مدى الكرمل. حاصل على شهادة الدكتوراة في العلوم السياسيّة من الجامعة العبريّة- القدس. له عدّة دراسات في السياسات الإسرائيليّة تجاه المجتمع الفلسطينيّ داخل الخط الأخضر، السياسات الاقتصاديّة الإسرائيلية تجاه الاقتصاد العربيّ داخل الخط الأخضر، أنماط التصويت لدى المجتمع الفلسطينيّ داخل الخط الأخضر.

جاد قعدان: طالب دكتوراة في مرحلة متقدّمة في علوم الثّقافة واللسانيّات الإدراكيّة بجامعة تل أبيب، ويبدأ قريبًا دراسات ما بعد الدكتوراة في جامعة ستانفورد. يبحث جوانب من النسبيّة اللُّغويّة عند مُتكلّمي العربيّة بالتشديد على المجاز والاستعارات، والعلاقة بين اللّغة والثّقافة. نشر مقالات أكاديميّة في مجال الدّراسات اللسانيّة الإدراكيّة، وعلوم الثّقافة وتحليل الخطاب، والدراسات المُعجميّة. مُحاضر في كليّة أورانيم، وموجّه مجموعات في معهد هارتمان. كتب في مجلّات مثل "فسحة- ثقافيّة فلسطينيّة".

حبيب مخّول: باحث في مدى الكرمل، ناشط، مجنّد موارد في المركز العربي للتخطيط البديل، عضو مؤسّس لمركز الكرامة الحقوقي. حاصل على شهادة الماجستير في السياسة العامّة من جامعة يورك في بريطانيا. يكتب عن سياسات الحكومة الإسرائيلية، بالذات في ما يتعلق بالتعامل مع فلسطينيي الـ 48 ومواضيع العنف والجريمة. يعمل على تعديل الأطر النظرية في السياسة العامة لتلائم وتخدم حالة فلسطينيي الـ 48.

حنين زعبي: ناشطة سياسيّة، ونائب سابق في الكنيست عن "التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ". حاصلة على شهادة البكالوريوس في الفلسفة وعلم النفس، وشهادة الماجستير في الإعلام السياسي. لها مساهمات خلال السنوات الأخيرة في ضرورة مراجعة فرضيّات العمل السياسي لدى فلسطينيي الـ 48 بناء على تحولات الواقع، عبّرت عنها في سلسلة من المقالات والحوارات، لا سيّما عبر موقع عرب48 ومجلة الدراسات الفلسطينية.

عرين هوّاري: المديرة العامة لمدى الكرمل. أكاديمية وناشطة نسوية وسياسية، حاصلة على شهادة الدكتوراة في دراسات الجندر من جامعة بن غوريون. تهتم أبحاثها بالفلسطينيين داخل الخط الأخضر وبشكل خاص في ما يتعلق بتقاطع الفعل السياسي مع الدين والجندر والاستعمار. محاضِرة غير متفرغة في برنامج الماجستير في الدراسات الإسرائيليّة- جامعة بير زيت وفي برنامج Glocal للدراسات العليا في التنمية الدولية- الجامعة العبريّة.

غادة مجادلة: طالبة دكتوراة في جامعة كوين ماري في لندن. حاصلة على شهادة الماجستير في حقوق الإنسان والعدالة الانتقالية من الجامعة العبرية في القدس. تركّز أبحاثها على العلاقة بين الصحة والسياسة وبُنى السلطة في السياق الفلسطيني- الإسرائيلي.

محمّد عوّاد: محامٍ وناشط سياسيّ. حاصل على شهادة البكالوريوس في الحقوق والعلوم السياسية من جامعة تل أبيب، تدرّب في مركز عدالة القانوني، يعمل في جمعية مسلك-جيشا (مركز للدفاع عن حرية الحركة).

مهنّد مصطفى: محاضر وباحث في العلوم السياسيّة، حاصل على شهادة الدكتوراة في العلوم السياسيّة من جامعة حيفا. عمل باحثًا زائرًا في مركز الدراسات الإسلاميّة في جامعة كامبردج، وفي المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السياسات في الدوحة. متخصّص في السياسة الفلسطينيّة، والسياسة الإسرائيليّة، والديمقراطيّة، والأنظمة السياسيّة والإسلام السياسيّ في العالم العربيّ. المدير العام السابق لمدى الكرمل، والمدير الأكاديمي لبرنامج دعم طلبة الدراسات العليا في مدى.

همّت زعبي: عالمة اجتماع حضرية، تركّز أعمالها على المدن والتمدن في السياق الاستعماري. تحمل شهادتي ماجستير، أحدهما في علم الجريمة والأخرى في دراسات النوع الاجتماعي، وشهادة الدكتوراة في علم الاجتماع. باحثة مشاركة في مدى الكرمل، وزميلة بحث ما بعد الدكتوراة في برنامج أوروبا والشرق الأوسط-الشرق الأوسط في أوروبا (EUME)، في مركز "الدراسات العابرة للمناطق" (Forum Transreginale Studien)، وباحثة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

يوسف طه: قيادي طلابي وناشط سياسي وأكاديمي من الداخل الفلسطيني، يحمل شهادتي البكالوريوس والماجستير في كلية العلوم الإنسانية في جامعة تل أبيب، طالب دكتوراة في كلية العلوم الاجتماعية في الجامعة العبرية بالقدس. ركّز عمل الهيئة الطلابيّة المشتركة، التي تشكلت من 27 حركة طلابيّة فاعلة إبّان حرب الإبادة على قطاع غزّة للدفاع عن الطلاب الفلسطينيين في الجامعات والكليات الإسرائيلية، إثر حملة الملاحقة الواسعة وإجراءات الفصل ولجان الطاعة ضد الطلاب العرب.

مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة هو مركز أبحاث فلسطينيّ مستقلّ أُسِّس عام 2000 في مدينة حيفا، يشكِّل فضاءً أكاديميًّا نقديًّا يُعنى بإنتاج معرفة نظريّة وتطبيقيّة حول فلسطين وفلسطينيّي الـ48 وإسرائيل، من منظور يناهض الاستعمار. ينطلق المركز من التزامه بتمكين المجتمع الفلسطينيّ اجتماعيًّا وسياسيًّا عبْر تطوير دراسات معمّقة في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، وتحليل السياسات العامّة ودراسات تطبيقيّة، على نحوٍ يتجاوز السرديّات المعرفيّة المهَيْمِنة المتماهية مع بِنى القوى الاستعماريّة.

يسعى المركز إلى بناء مجتمع معرفيّ فلسطينيّ نقديّ، وفتح آفاق بحثيّة بديلة تسائل بِنى القوى القائمة بمختلف تجلّياتها السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة، ويعيد صياغة الحقول المعرفيّة بما يعكس التجربة الفلسطينيّة. كذلك يوفّر مدى الكرمل حاضنة أكاديميّة للجيل الجديد من الباحثات والباحثين الفلسطينيّين، محفّزًا قدراتهم على التفكير النقديّ، وعلى إنتاج معرفة تتقاطع مع النقاشات الفكريّة والسياسيّة الإقليميّة والعالميّة حول قضايا الاستعمار الاستيطانيّ، والهُويّة، والقوميّة، ونزع الاستعمار عن المعرفة، والمواطَنة والعدالة الاجتماعيّة.

وقد رسّخ المركز مكانته بوصفه مرجعيّة بحثيّة وفكريّة في دراسة المجتمع الفلسطينيّ في مناطق الـ48 وعلاقته بإسرائيل، وأصبح فضاء جامعًا للأوساط الأكاديميّة والثقافيّة، وللأجيال الجديدة من المهتمّين والمهتمّات بالشأن المعرفيّ والسياسيّ، فضلًا عن مؤسَّسات بحثيّة وثقافيّة متعدّدة. يسهم المركز، من خلال أبحاثه النظريّة والتطبيقيّة ومشاريعه وأنشطته المتنوّعة، في تعزيز الحضور المعرفيّ داخل الحقل الأكاديميّ المحلّيّ الإقليميّ والعالميّ بوصفه فاعلًا مؤثّرًا في السجالات الفكريّة والسياسيّة الراهنة.

تعتمد معظم فصول هذا الكتاب على الأوراق التي قُدِّمت خلال مؤتمر مدى الكرمل السنويّ عام 2024، الذي عُقِد بعد مرور بضعة أشهر على بداية حرب الإبادة على قِطاع غزّة، وجاء تحت عنوان "فلسطينيّو 48 والحرب على غزّة". جاء المؤتمر في لحظة ترسّخَ فيها الخوف وساد فيها الصمت وبرز الفعل السياسيّ من خلال غياب هذا الفعل! كذلك كشفت هذه اللحظة عن اهتزاز مفاهيم كانت تُعتبَر ضمنًا قواعدَ ناظمةً للعلاقة مع الدولة، وفي مقدّمتها معنى المواطَنة وحدود شرعيّة الفعل السياسيّ.

تسعى فصول هذا الكتاب إلى تقديم تشخيص لأثر الحرب على غزّة على فلسطينيّي الـ48 وعلى فاعليّتهم السياسيّة أو غيابها. وهو محاولة لوصف الانكفاء والانخراط لا كموقفَيْن متقابلَيْن، بل كساحتَيْن متداخلتَيْن في صراع الوعي والسياسة: بين الخوف والغضب، بين الصمت والرغبة في الفعل، بين إعادةِ إنتاج شروط الإخضاع والبحثِ عن أفق سياسيّ جديد. إنّ أوراق هذا الكتاب، التي تتنوّع بين التحليل السياسيّ والنفسيّ والثقافيّ والفلسفيّ، تنطلق من وعي أنّ غزّة هي المركز الذي يعيد ترتيب أسئلة الفلسطينيّين في الداخل عن الذات والموقع والمعنى السياسيّ، كما تفرض على العالم كافّة، وعلى أحراره ومثقّفيه النقديّين تحديدًا، إعادةَ النظر في قناعاتهم ومفاهيمهم وفي المرجعيّات التي ينطلقون منها والقوى التي يعوّلون عليها.

The ’48 Palestinians and the Genocidal War on Gaza: A Critical Inquiry into Silence and Political Agency.

Edited by: Himmat Zoubi and Areen Hawari

ISBN: 978-965-7308-33-2

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية